جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد / كلية الآداب
قسم الاجتماع

"المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية
دراسة ميدانية

رسالة تقدم بها (مجاهد ابو الهيل بدر الجابري) إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في علم الاجتماع

إشراف

أ.د. ناهدة عبد الكريم حافظ

١٤٣٣هـ ٢٠١٢م

بســـــم اللهِ الـرَّحـــمَنِ الـرَّحِـيم

" ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب"

صدق الله العلي العظيم
سورة الحج: الآية ٣٢

"إنّ لقتل ولدي الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لن تنطفئ أبداً"

حديث نبوي

"لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح"

الإمام الحسين (ع)

الإهـــداء

إلى أمي التي أودعت فيّ حب الاطلاع

و إلى

الدكتورة حنين عمر علي

التي

سلمتني مفاتيح اللغة الثانية من أجل هذا البحث

الباحث

شـــكر وتقــدير

لكل الأنامل الندية التي تركت في هذا البحث رائحة الكتابة

إلى: مشرفتي وأستاذتي الأم الفاضلة الدكتورة ناهدة عبد الكريم حافظ

إلى: أستاذي الدكتور سلام العبادي

إلى: المفكرّين الصديقيّن

الدكتور عبد الجبار الرفاعي و الأستاذ غالب الشابندر

والى: الصديق الباحث احمد قاسم مفتن بشكل كبير

إلى: الأصدقاء

الدكتور خالد حنتوش

السيد صادق التبريزي

الأستاذ علي طاهر

محمد هاشم البطاط

ضياء الشبيب

لقاء مولى الجابري

السيد حسين علي الميالي

مصطفى إسماعيل

حكيم كاطع

السيد حسين عطية الميالي

عبد الرزاق فتاح

علي حسين علو جان

إبراهيم الاعسم

أسامة خلف

مياسة وليد

الاستاذ محمد ابراهيم يونس

والى سارة رياض بالتاكيد

والى كل من فاتني ان أتذكر

الباحث

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
الفهارس (المحتويات، الجداول، الصور)	أ – ج
المقدمة العامة	١ - ٤
الباب الأول: الجانب النظري	
الفصل الأول: الإطار العام للدراسة	٧-٢٧
المبحث الأول : عناصر الدراسة	٧
أولا: مشكلة البحث	٧
ثانيا: أهداف البحث	٩
ثالثا: أهمية البحث	١٠
رابعا: صعوبات البحث	١١
المبحث الثاني : المفاهيم و المصطلحات	١٣
أولا: المشّاية	١٣
ثانياً: الزيارة الأربعينية	١٥
ثالثاً: الشعائر	١٧
رابعاً: العزاء	١٨
خامساً: عاشوراء	١٩
المبحث الثالث : الإطار النظري	٢٠
أولا: نظرية السلوك الجمعي	٢١
ثانياً: النظرية التفاعلية الرمزية	٢٦
الفصل الثاني : طقوس العزاء الحسيني في العراق ... مدخل تاريخي	٢٩-٦١
توطئة	٢٩
المبحث الأول: تاريخ العزاء الحسيني ومراحله.	٣١
المبحث الثاني: التأصيل الديني للعزاء.	٣٩
أولا: التأصيل الروائي	٣٩
ثانياً: التأصيل الفقهي	٤١
المبحث الثالث: صور من العزاء الحسيني.	٤٦
أولا: التعزية أو مجالس العزاء	٤٦
ثانياً: اللطم	٤٨
ثالثاً: التشابية أو المسرح الحسيني	٥١
رابعاً: التطبير	٥٣
المبحث الرابع: العزاء الحسيني .. آراء واتجاهات معاصرة.	٥٦
الفصل الثالث: المشّاية	٦٣-١١٠
المبحث الأول: المشّاية في مراسم الزيارة الأربعينية	٦٣

أولا: التأصيل الديني لزيارة الأربعين	٦٣
ثانيا: تاريخ المشّاية لأداء الزيارة الأربعينية	٦٩
ثالثا: المشّاية بوصفها ظاهرة سياسية قبل ٢٠٠٣	٧٣
المبحث الثاني: "المشّاية" الدوافع والأسباب	٧٦
أولا: الدوافع الدينية والروحية "حب الحسين "	٧٦
ثانيا: المنبر الحسيني و استمالاته الدائمة	٧٨
ثالثا: استيفاء الديون التاريخية	٨١
رابعا: التظهير الشيعي للحكم بعد ٢٠٠٣	٨٨
خامسا: الانبعاث الشيعي واثبات الهوية	٩٠
سادسا: الشيعة وإنتاج المعنى الديني	٩٤
سابعا: الكرم في طبيعة المجتمع العراقي	٩٨
المبحث الثالث: "المشّاية" وظاهرة القديس بيسو.. دراسة مقارنة	١٠١
اولاً: دلالة الزيارة الدينية.	١٠١
ثانياً: تعريف القديس بيسو وطقوس زيارته	١٠٣
ثالثاً: المقارنة الدلالية بين "المشّاية" وزوار القديس بيسو.	١٠٦
رابعاً: مقارنة الاداء الديني للطقس بين المشّاية وزوار القديس بيسو.	١١٢
خامساً: اوجه الاختلاف بين الظاهرة الكاثوليكية والظاهرة الشيعية.	١١٤
سادساً: الخلاصة.	١١٥
الباب الثاني: الجانب الميداني	
الفصل الرابع: الاطار المنهجي للدراسة	١١٨-١٣٥
توطئة	١١٨
المبحث الأول: منهجية الدراسة	١١٨
اولاً: المنهج التاريخي	١٢٠
ثانياً: المنهج المقارن	١٢١
ثالثاً: المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقيا)	١٢٢
رابعاً: منهج المسح الاجتماعي	١٢٦
المبحث الثاني: مجالات الدراسة وتصميم العينة الإحصائية	١٢٨
اولاً: مجالات الدراسة	١٢٨
ثانياً: تصميم العينة الاحصائية	١٢٩
ثالثاً: تحديد حجم ونوع العينة	١٢٩
المبحث الثالث: أدوات جمع البيانات المستخدمة في الدراسة وتوصيفها	١٣١
اولاً: تصميم الاستبانة.	١٣١
ثانياً: الملاحظة بالمشاركة (المباشرة).	١٣٣
ثالثاً: المقابلة والملاحظة البسيطة.	١٣٤
الفصل الخامس: عرض نتائج الدراسة الميدانية وتوصيفها	١٣٧-١٨٦
توطئة	١٣٧

المبحث الاول: عرض نتائج استبيان المشّاية وتوصيفها	**١٣٨**
المبحث الثاني: عرض نتائج الاستبيان مسؤولي المواكب وتوصيفها	**١٦٣**
المبحث الثالث: نتائج الدراسة والتوصيات والمقترحات	**١٧٦**
أولا: النتائج التي توصلت اليها الدراسة	**١٧٦**
ثانياً: إستنتاجات الدراسة	**١٨٢**
ثالثا: المقترحات	**١٨٥**
المصادر والملاحق	

فهرست الجداول

ت	عنوان الجدول	رقم الصفحة
	أولا: جداول الاستبيان الخاص بزوار أربعينية الإمام الحسين (ع)	١٣٨-١٦٢
١	النوع	١٣٩
٢	العمر	١٤٠
٣	التحصيل الدراسي	١٤١
٤	نوع العمل/المهنة	١٤٢
٥	الجنسية	١٤٢
٦	التوزيع الجغرافي لمناطق سكن الزائرين	١٤٣
٧	بيئة سكن المشّاية	١٤٤
٨	نقطة انطلاق المشي	١٤٥
٩	من يرافقك أثناء الزيارة	١٤٦
١٠	كم عدد المرات التي مشيت بها لغرض الزيارة الاربعينية	١٤٧
١١	هل سبق أن مشيت لزيارة الأربعين أيام النظام السابق	١٤٨
١٢	هل تركت عملك او دراستك عند مجيئك لأداء هذه الزيارة	١٤٨
١٣	ما سبب مجيئك ماشياً لأداء مراسم الزيارة الأربعينية	١٥٠
١٤	ما نوع العلاقات الاجتماعية التي حصلت عليها أثناء الزيارة	١٥١
١٥	هل حصل أنّ التقيت بصديق في أثناء المشي لم تلتق به منذ فترة	١٥٢
١٦	ما رأيك بالخدمات التي تقدمها الحكومة للزوار أثناء المشي	١٥٣
١٧	كم معدل مصروفك منذ خروجك لأداء الزيارة حتى الآن	١٥٤
١٨	هل رأيت أو سمعت بحادثة غريبة أو كرامة حصلت مع الزائرين	١٥٥
١٩	إذا كان جواب السؤال السابق بنعم، هل لك أن تصف لنا هذه الكرامة	١٥٦
٢٠	هل لديك ملاحظات على ظواهر سلبية حصلت أمامك	١٥٧
٢١	هل لديك إضافة أو مقترح لتطوير المشّاية	١٦٢
	ثانياً: جداول الاستبيان الخاص بالمواكب الحسينية	١٦٣-١٧٤
٢٢	دلالات أسماء المواكب	١٦٤
٢٣	تأريخ تأسيس الموكب	١٦٦
٢٤	هل سُجّلَ الموكب في هيئة المواكب الرسمية	١٦٧
٢٥	مهن أصحاب المواكب	١٦٨
٢٦	جنسية مسؤولي المواكب	١٦٩
٢٧	التوزيع الجغرافي لسكن مسؤولي المواكب العراقيين	١٧٠
٢٨	نوع الخدمة التي يقدمها الموكب	١٧١
٢٩	التكاليف المالية المتوقعة للموكب	١٧٢
٣٠	مصادر تمويل المواكب	١٧٣
٣١	ما دوافع الخدمة	١٧٤

فهرست الصور

ت	عنوان الصورة	رقم الصورة	رقم الصفحة
١	صور توضيحية لطقوس ظاهرة بيسو	١ - ٥	١٠١
٢	صور الباحث في أثناء المقابلات	٦ -٧	١٣٥
٣	صور لمواكب طلبة الجامعات والمعاهد المشاركة في الظاهرة	٨ - ١٠	١٤١
٤	صورة توضح طريقة تحضير الطعام للزائرين.	١١	١٤٧
٥	صور توضح مشاركة الحكومة وقواتها الامنية في دعم الظاهرة.	١٢- ١٣	١٥٤
٦	صورة مشاركة المرضى في الظاهرة لغرض الشفاء.	١٤	١٥٧
٧	صور توضح التوظيف السياسي للظاهرة	١٥- ١٨	١٦١
٨	صور توضح تسمية المواكب باسماء أهل البيت .	١٩ - ٢١	١٦٤
٩	صور توضح تسمية المواكب باسماء مراجع الدين والقادة السياسيين .	٢٢- ٢٤	١٦٥
١٠	صور توضح الدلالات الدينية والسياسية لأسماء المواكب.	٢٥- ٢٨	١٦٦
١١	صورة توضح مشاركة الناس في خدمة اللإطعام والشراب.	٢٩	١٧١

المقدمة

لم تأخذ ظاهرة دينية طابعاً اجتماعياً وسياسياً كما أخذت ظاهرة ((المشاية)) في أداء مراسم زيارة الإمام الحسين (ع) في ٢٠ صفر من كل عام، فمنذ سقوط النظام العراقي بعد ٢٠٠٣ وانهيار مؤسساته الأمنية وسلطته القمعية، برزت ظاهرة أداء الزيارة في أربعينية الإمام الحسين (ع) بشكل لافت للنظر، بحيث أخذت بالتطور واتساع نسبة المشاركة المليونية في هذه الظاهرة، ومن الطبيعي أن تتسع دائرة الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة ومعرفة دوافعها والأسباب التي أدت إلى اتساعها بهذا الشكل الكبير، وهذا ما دفع الباحث لاختيارها موضوعاً لبحثه ودراستها بشكل يوفر جانباً من الإحاطة بتلك الدوافع والأسباب.

إن الغرض الأساس من هذا البحث هو تقديم دراسة اجتماعية حول هذه الظاهرة وقراءتها من الداخل على وفق منهج تحليلي ميداني لمعرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى تفاقمها واتساعها بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣، واستقصاء العلاقات الاجتماعية وما ينجم عنها أثناء المشاركة وممارسة عملية السير لمسافات شاسعة، حيث تنتقل العادات والقيم الاجتماعية والثقافية بين المجتمعات الفرعية المشاركة، كما يمكن التعرف على التوظيف السياسي والديني للظاهرة من قبل المؤسسات والحركات والأحزاب التي تدعم هذه الظاهرة لتشكل أكبر ظاهرة سلوك جمعي في العراق على مر العصور.

إن هذه الدراسة تبحث في علم الاجتماع الديني من خلال رصد وتحليل ظاهرة أداء زيارة الأربعين سيراً على الأقدام بوصفها مظهراً دينياً ذا طابع اجتماعي وسياسي واقتصادي، وقد حاول الباحث جهد إمكانه أن يشكل تصوراً عنها مستعملاً الأدوات البحثية لعلم الاجتماع معززاً إياها بالوسائل الإحصائية المناسبة ليخرج برسالة شارفت صفحاتها على أكثر من (٢٠٠)

صفحة معززة بوثائق وصور، تناول فيها كل ما توافر لديه من أدوات ومعلومات للتعريف بهذه الظاهرة من قبيل توظيفه لنظرية السلوك الجمعي عند أميل دوركهايم وعدد من مناهج البحث الاجتماعي بحسب علاقتها بفصول البحث حيث تضمنت الدراسة بابين مفصلين، الأول منهما غطى الجانب النظري والثاني كان مكرساً للجانب الميداني، حيث أحتوى الجانب النظري على ثلاثة فصول، كان أولها الإطار العام للدراسة تناول فيه الباحث عناصر الدراسة والمصطلحات والمفاهيم والإطار النظري وغيرها من المواضيع التي تتعلق بدراسة الظاهرة.

أما الفصل الثاني فقد تناول طقوس العزاء الحسيني في العراق من زاوية تاريخية مستبعداً تاريخية العزاء عند مجتمعات أخرى، لأن ذلك يحتاج إلى دراسات مستقلة وواسعة، كما أن ظاهرة البحث تحدث في مكان وزمان عراقيين، لذلك تناولها الباحث في المجتمع العراقي، وقد تناول في هذا الفصل تاريخ العزاء الحسيني ومراحله، وبيّن التأصيل الديني للعزاء الذي يدخل ضمن المراحل التاريخية للطائفة الشيعية على مستوى الروايات الواردة عن أئمتهم، وفي مبحث آخر تطرق الباحث إلى صور من العزاء الحسيني ثم إلى آراء واتجاهات معاصرة حول العزاء، وفي الفصل الثالث كرس الباحث الحديث عن الظاهرة بشكل كامل (المشاية في مراسم الزيارة الأربعينية) متناولاً التأصيل الديني لها وعلاقتها بالجوانب الدينية والسياسية والإجتماعية بالإضافة إلى الدوافع والأسباب التي أدت إلى اتساعها بهذا الشكل الكبير بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣.

أما في الجانب الميداني فقد تناول الباحث في الفصل الرابع الذي ضمّ ثلاثة مباحث أساسية، الأول منها يتعلق بمناهجَ الدراسة، في حين اختص المبحث الثاني بمجالاتها وتصميم العينة، أما في المبحث الثالث فقد تناول الباحث أدوات ووسائل جمع البيانات المستخدمة في الدراسة، اما في الفصل الخامس وبعد الانتهاء من جمع البيانات وتبويبها وتفريغها، عُولجت البيانات في

خطوات عدة ومن ثم وُضعت جداول بسيطة ومركبة (مزدوجة) لوحدات عينة الدراسة (سواء للمشّاية أم لمسؤولي المواكب) عن طريق حساب التكرارات لكل متغير من المتغيرات واستخراج النسبة المئوية لكل تكرار. وبعد جدولة البيانات جرى تحليلها والتعليق عليها وكتابة تقرير الدراسة النهائي.

وقد واجه الباحث جملة صعوبات بسبب كون ظاهرة الدراسة غير مسبوقة بدراسات وبحوث سابقة تدله على دراسة "المشّاية"، وربما يعود ذلك إلى الظروف السياسية التي رافقت هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الدينية تأريخياً، إذ لا يخفى أن ممارسة الطقوس الدينية ذات الطابع الايديولوجي واجهت المنع والتضييق عليها من السلطات الحاكمة قبل (٢٠٠٣) والحقب الزمنية الممتدة إلى أعوام عديدة.

كما أن دراسة الطقوس والشعائر الحسينية في المجتمع العراقي ليست مهمة يسيرة يمكن للباحث استيعابها والإحاطة بكل جوانبها، لا لإنها متعددة الاتجاهات و الإطراف فحسب، وإنما لارتباطها بعقائد العامة من المجتمع التي تكون مسورة بخطوط حمر على الأغلب، لان الشعائر والطقوس بشكل عام تُعد من المناطق المحرمة في البحث كونها تنبش المستور وتهيّج الانفعالات الشعبية الراكدة المستسلمة لعادات وتقاليد متوارثة.

وقد توصل الباحث من خلال دراسته بشقيها (النظري والميداني) إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات التي تضع ظاهرة "المشّاية" في إطارها الحقيقي من خلال البحث في جذورها التاريخية والعوامل التي أدت إلى استعادتها بهذا الشكل الواسع بعد (٢٠٠٣) على وفق الاستبانة التي قام بها الباحث من خلال مشاركته في هذه الظاهرة، إذ خلص الباحث إلى أن ظاهرة "المشّاية" تعد ظاهرة اجتماعية / سياسية رغم جوهرها الديني، وذلك يعود إلى طبيعة المجتمع العراقي الذي يشارك بشكل كبير في ممارسة هذه الظاهرة منطلقاً من منظومته الاجتماعية

وعاداته والتقاليد التي نشأ عليها، ساعدت في ذلك التحولات السياسية بعد ٢٠٠٣ للمجتمع المسلم الشيعي الذي بدأ بإستيفاء ديونه التاريخية من الجماعات الفوقية (السلطة) التي تسببت في حرمان الشيعة من ممارسة طقوسها وشعائرها الدينية في مختلف العصور، إذ أدركت الجماعة الشيعية من خلال المشاركة في هذه الظاهرة أن بإمكانها التلاعب بالحاضر لتعويض الطموحات السياسية المكبوتة للإعلان عن انبعاث جماعي لاستعادة الهوية، معتمدين على المكاسب السياسية التي حصلت عليها الأحزاب الشيعية بعد سقوط النظام سنة ٢٠٠٣.

هذهِ هي أهم عناوين وموضوعات الرسالة التي أخذت من عمر الباحث ما يقارب العامين وهو بين مدينتي النجف وكربلاء بالإضافة إلى مروره ببعض المدن التي تشهد ممارسة ظاهرة "المشّاية" لكي يكون ملماً بجوانب البحث من خلال مشاركته وتواجده المتواصل، ولا يدّعي الباحث أنه استطاع الإحاطة الكاملة بجوانب موضوع بحثه لكنه لم يدخر جهداً يتمكن من خلاله تسجيل إضافة جديدة في مجال الدراسة إلا وبذله.

ومن الله التوفيق.

الباحث

الباب الأول
الجـــــانب النـــــظري

الفصل الأول
الإطـــار العـــام للـــدراسة

الفصل الثاني
طقوس العزاء الحســيني في العراق

الفصل الثالث
المشّـــــاية

الفصل الأول
الإطـــار العـــــام للـــدراسة

المبحث الأول
عناصر الدراسة

المبحث الثاني
المفاهيم والمصطلحات

المبحث الثالث
الإطار النظري

المبحث الأول: عناصر الدراسة

أولا: مشكلة البحث.

تتناول هذه الدراسة بشقيها النظري والميداني ظاهرة المشي على الأقدام لأداء مراسم زيارة أربعينية الإمام الحسين عند الشيعة من خلال استقصاء حيثيات هذه الظاهرة بكل أبعادها الإجتماعية والسياسية والدينية والإقتصادية والرجوع بالظاهرة إلى جذورها التاريخية والمراحل التي مرت بها وعلاقتها بالعوامل السياسية والإجتماعية والإقتصادية، ولذا فإنّ مشكلة البحث تتلخص بجملة أسئلة سيجيب عنها الباحث من خلال جانبي البحث، النظري والميداني، إذ لا يمكن دراسة ظاهرة "المشّاية" دراسة ميدانية من دون الرجوع إلى جذورها التاريخية وتحديد العوامل الإجتماعية والدينية والسياسية التي أدت إلى نشوئها، سنعرض في مشكلة البحث الأسئلة الآتية:

١- ما القوة الخفية التي تدفع ملايين الناس لتحمل عناء السير من مسافات بعيدة لأداء مناسك وشعائر لشخص استشهد منذ قرون عدة ؟

٢- ما أسباب ظاهرة المشّاية في العراق ومتى بدأت هذه الظاهرة؟

٣- ما الأسباب والدوافع التي أدت إلى اتساع ظاهرة المشي لأداء الزيارة بعد سقوط النظام سنة ٢٠٠٣؟

٤- هل هناك تأصيل فقهي وديني لهذه الظاهرة أو إنّها ظاهرة إجتماعية تطورت نتيجة قيم وعادات وتقاليد ؟

٥- هل هناك إسقاطات اقتصادية وطائفية لهذه الظاهرة ؟

وأما الجانب الميداني للبحث فإنّه يكمن في طرح الباحث أسئلة على عينات من مجتمع الدراسة من خلال استمارة البحث الميداني بالإضافة إلى طريقة الملاحظة بالمشاركة التي يقوم بها الباحث للتعرف على الظاهرة، وهذا النوع من الدراسة يقوم به الباحث لجمع البيانات فهي أداة رئيسة للبحث الاجتماعي؛ لان كلّ بحث اجتماعي يستعملها بدرجات مختلفة من الدقة والضبط ابتداء من الملاحظة البسيطة وانتهاءً بالملاحظة العلمية الدقيقة .

فالعلم يبدأ بالملاحظة ثم يعود اليها مرة أخرى لكي يتحقق من صحة النتائج التي توصل اليها.[1]

كما نلجأ للملاحظة عندما يكون ميدان البحث جديدا لم يسبق إنّ اكتشف طريقه باحثون آخرون او إنّ مستوى المعلومات عن البحث قليل نتيجة عدم توافر المصادر والدراسات السابقة، وهذا ينطبق على موضوع بحثنا "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية.

كيف سيجيب المشاركون في هذه الظاهرة عن أسئلة الباحث المختلفة ؟

كل هذه المعطيات وغيرها من أسئلة تفصيلية يحاول الباحث الإجابة عنها في هذا البحث من خلال اللجوء إلى الإقامة الميدانية ومعايشة الظاهرة التي ستكون على شكل مشاركات ميدانية مع الحشود المليونية على مدى عامين متواصلين لاتباع وسيلة الملاحظة الميدانية التي يستعملها الانثروبولوجيون، فضلا على اطلاعه على العديد من المصادر الخاصة بالشعائر وطقوس العزاء الحسيني والسعي للإفادة القصوى منها، لدراسة كل ما يتعلق بالظاهرة من موضوعات وحيثيات وزوايا البحث.

١- ناهدة عبد الكريم حافظ، مناهج البحث العلمي، بغداد، ٢٠٠٧، ص ٦٧

ثانيا: أهداف البحث.

من الشروط الأساسية لنجاح كل بحث وجود أهداف واضحة ومحددة للوصول إلى نتائج مرجوة ينشدها الباحث، ولما كانت ظاهرة "المشّاية" في الطقوس الدينية للمجتمع العراقي واتساعها بعد عام ٢٠٠٣ اكبر ظاهرة جمعية، فقد اختيرت مادة للدراسة والتحليل على وفق منهج سوسيولوجي يرجع الظاهرة إلى جذورها ويحدد أسبابها ودوافعها الحقيقية التي جعلت ملايين الناس تشارك فيها على مدى أيام وأسابيع، لذا يمكننا تلخيص أهداف هذه الدراسة بالنقاط الآتية:

١- التعرف على تصورات الناس من حيث سلوكهم وطبيعة المنظومة العقائدية التي تحرّك ذلك السلوك.
٢- قياس نسبة الوعي السياسي الذي يقترن بهذا السلوك ويرافقة.
٣- معرفة تصورات الناس إزاء ايجابيات وسلبيات السلوك.
٤- تقديم دراسة إجتماعية بخصوص الظاهرة و قراءتها من الداخل على وفق منهج تحليلي ميداني لغرض معرفة العوامل والأسباب التي ادت إلى تفاقمها واتساعها بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣.
٥- استقصاء العلاقات الإجتماعية وما ينجم عنها في اثناء سير الحشود بين المدن لمدة تقرب من الشهر حيث تنتقل العادات والتقاليد والقيم الثقافية بين المجتمعات الفرعية.
٦- تهدف هذه الدراسة إلى تقويم هذه الظاهرة من خلال إرجاعها إلى جذورها الدينية وتخليصها من العوامل التي تسربت اليها من عادات وتقاليد لا علاقة لها بالأصول والثوابت الدينية.

وسيحاول الباحث جاهداً تقديم كل ما بوسعه من أجل تحقيق هذه الأهداف.

ثالثاً: أهمية البحث.

تأخذ دراسة ظاهرة "المشّاية" أهميتها من اتساع هذه الظاهرة وتناميها عاما بعد اخر وما يرافقها من اهتمام سياسي وإعلامي كبيرين، في حين لم يرافق هذا الاهتمام ايَّ جهدٍ أكاديمي لبحث الظاهرة وإرجاعها إلى جذورها التاريخية والدينية والإجتماعية واستقصاء التطورات التي مرت بها وعلاقتها بالأنظمة السياسية على مر العصور.

كذلك تستقصي هذه الدراسة آراء بعض العلماء والمفكرين والباحثين في الشعائر الحسينية ومدى اختلافهم واتفاقهم حول تفاصيل هذه الطقوس من خلال بحوثهم ومؤلفاتهم في هذا الخصوص.

كما تحاول هذه الدراسة أن تغطي مرحلة ما بعد ٢٠٠٣ في العراق وكيفية اتساع ظاهرة "المشّاية" بشكل عفوي وما رافقه من اهتمام سياسي من النخب والأحزاب السياسية التي اخذت تشجع هذه الظاهرة وتدعمها لتشكل اكبر ظاهرة سلوك جمعي في العراق والعالم الإسلامي، اذ يتوافد ملايين الزوار على مدينة كربلاء لأداء مراسم الزيارة الأربعينية سيرا على الاقدام في حركة جماعية لم يشهدها العراق على مر العصور.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من خلال مشاركة الباحث وملاحظاته لعينات البحث وفق الإستمارة الميدانية التي تنوعت فيها الأسئلة والاستفهامات المتعلقة بهذه الظاهرة وإجابات المشاركين عن كل أسئلة الباحث.

يحاول الباحث في هذه الرسالة ان يقدم مصدرا للدارسين ومرجعا قادما للباحثين في شؤون المجتمع العراقي والتغيرات التي طرأت عليه بعد عام ٢٠٠٣ ولاسيما إنّ الدراسات في هذا الشأن قليلة جدا، وتعد هذه الدراسة من المحاولات الاولية لوضع الدراسات التأسيسية المستقبلية لمثل هذا الموضوع في علم الاجتماع الديني وعلى هذا الأساس يجب وضع الأسس الواسعة التي ستبنى عليها دراسات عديدة في المستقبل.

رابعاً: صعوبات البحث.

لا يوجد بحث بلا صعوبات، فالباحثون الذين لا يواجهون مشكلة ندرة المصادر او انعدامها لا تخلو بحوثهم من صعوبات البحث الذي يبينون فيه جملة من المصاعب التي واجهتهم اثناء البحث التي منها ما يتعلق موضوع الدراسة او غيرها من التحديات التي تواجه الباحث الأكاديمي.

اما فيما يتعلق بمادة بحثنا هذا فإنّها تمثل صعوبة مترامية الأطراف على صعيد المادة نفسها من جانب وعلى صعيد المصادر والمراجع ومن جانب اخر اذ لا توجد دراسات سابقة عن الموضوع إذ لم يكتب بحث واحد عن هذه الظاهرة على الرغم من أهميتها وانتشارها وعدد المشاركين فيها سوى بعض المقالات والبحوث القصيرة والتغطيات الإعلامية التي لم تقدم مادة علمية عن الظاهرة وإنّما تناولتها بطريقة استعراضية تفتقر إلى أدنى مستوى من المعرفة.

لذلك تأتي أهمية هذه الدراسة التي ستكون بأذن الله تعالى مادة أولية تغطي هذه الظاهرة أكاديميا ومعرفياً لتسجل محاولة في البحث عن هذه الظاهرة الكبيرة.

إنّ دراسة الطقوس والشعائر الحسينية في المجتمع العراقي ليست مهمة سهلة يمكن للباحث استيعابها والإحاطة بكل جوانبها، لأنّها متعددة الاتجاهات والاطراف، فضلاً على حساسيتها وارتباطها بعقائد العامة من المجتمع التي تكون مسورة بخطوط حمراء على الاغلب، لذلك واجه الباحث جملة اعتراضات في بداية اختياره لموضوعة "المشّاية". إذ كانت اغلب هذه الاعتراضات من المؤسسة الدينية ورجالاتها يوم كنت استأنس بآرائهم حول اختياري هذا الموضوع ودراسته، و كانت اعتراضاتهم تصب في عدم مساس عقائد الناس وشعائرهم، لأن الشعائر والطقوس تعد من المناطق المحرمة في البحث كونها تنبش المستور وتهّيج الانفعالات الشعبية الراكدة المستسلمة لعادات وتقاليد متوارثة، لذا ارتأى بعض العلماء الذين طرقت اسماعهم للاستئناس برأيهم حول بحثي هذا، إنْ لا أخوض في هذا الموضوع الذي يُعدُّ الطقس الاكبر للناس في هذه الحقبة لاسيما بعد اتساع ظاهرة المشاركة فيه ومباركة المرجعيات الدينية له.

لكنّ إصرار الباحث على سبرغور الموضوع ودراسته بطريقة موضوعية مجردة من الشعور المذهبي جعل كثيراً منهم يستسلم ويمد يد العون لي.

لكن لا انسى إن الكثير من الباحثين الاسلاميين دفعني بهذا الاتجاه وسلمني مفاتيح البحث.

المبحث الثاني: المفاهيم والمصطلحات

إنّ تحديد المفاهيم والمصطلحات يعد المفتاح الأساس للدخول إلى قضية البحث، لذا اعتاد الباحثون على تعريف مفاهيم بحوثهم التي لها علاقة مباشرة بوظيفة الدراسة قبل التعمق فيها، وتعريف المفاهيم هو الخطوة الأولى لبحثنا الموسوم (**"المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية .. دراسة ميدانية**) لذا يتوجب علينا تعريف المفاهيم الأساسية للدراسة وهي:

١ـ المشّاية.
٢ـ الزيارة الأربعينية.
٣ـ الشعائر.
٤ـ العزاء.
٥ـ عاشوراء.

هذه المفاهيم برأي الباحث لها علاقة مباشرة وأساسية في موضوع الدراسة، لذا سنقوم بتعريفها بشكل يضمن للقارئ فهم علاقتها بعنوان الرسالة:

١ـ المشّاية:

مشى: مشياً وتمشاءً: نقل القدم من مكان إلى مكان بإرادة سريعاً كان او بطيئاً، مشى تمشية وأمشى الرجل: جعله يمشي، تماشياً: مشيا معاً والمشاء: كثير المشي، مشى مشياً وتمشاءً: آهتدي. [١]

تجدر الاشارة إلى إنّ المصطلح لم يرد ذكرة في المعاجم العربية القديمة والحديثة، وإنّما هو كلمة يتداولها عامة الناس، وهو مفرده يصطلح بها على المشي - أي السير على الأقدام - من أكثر من شخص، ولها معنيان في الاستعمال العراقي للمفردة، فمرة يقصد بها العراقيون الجماعة التي تذهب للخطبة قبل الزواج، فيقولون: "راحوا مشّاية لآل فلان لخطبة ابنتهم"

١ـ لويس معلوف، المنجد في اللغة والاعلام، دار المشرق، بيروت لبنان، ط، ١٩٨٦، ص٢٦.

ومرة يستعملونها قاصدين بها السير على الأقدام لأداء الزيارة - أي زيارة قبور الأئمة من أهل البيت عند الشيعة، فيقال: "انطلقت المشّاية او فلان ذهب مشّاية للزيارة، بمعنى إنّه قطع مسافات طويلة سيرا على الأقدام لغرض زيارة مراقد أولياء الله الصالحين من أئمة الشيعة.

ويرى الباحث في هذه الدراسة إنّ المعنى الثاني للمفردة هو ما يعني موضوع الدراسة - أي المشي لغرض الزيارة - .

وتعود ذاكرة النجفيين بالمفردة إلى أوائل القرن الماضي، اذ كان النجفيون وبعض طلبة الحوزة العلمية القادمين إلى النجف برفقة أصحاب المواكب والحسينيات، يقطعون المسافة التي تفصل مدينتهم عن مدينة كربلاء حيث يرقد الإمام الحسين ومن استشهد معه في واقعة الطف، سيرا على الاقدام لأداء الزيارة في أربعينية الإمام الحسين التي توافق يوم ٢٠ صفر من كل عام هجري، وكان يُطلق على اصحاب هذا الطقس "المشّاية" أو "البيّاده" وهي مفردة فارسية تعني المشي، ويمكن تفسير استعمال هذه المفردة الفارسية لكثرة الإيرانيين الذين يقيمون بالنجف آنذاك لغرض الدراسة الحوزوية.

كانت مسيرة المشي تبدأ قبل أربعينية الإمام الحسين بثلاث ليال تزيد او تقصر تبعا لإرادة الزوار والمواكب، ليقيموا سرادقهم في "خان الربع" لغرض الاستراحة، وهو ربع المسافة بين النجف وكربلاء، ثم يواصلون مسيرتهم حتى "خان النص"، أي يقطعون نصف المسافة بين المدينتين، و كانوا يطلقون هذه الاسماء على الأماكن التي تقع في مرمى الطريق، وكانت أعدادهم قليلة جدا نسبة إلى الأعداد المليونية التي تشارك في المشّاية بعد عام ٢٠٠٣، كما سيأتي في مباحث لاحقة.[١]

كانت ظاهرة المشي لغرض الزيارة تمارس في أربعينية الإمام الحسين فقط ولا تتعدى إلى بقية الأضرحة والمناسبات كما يحصل الآن، اذ يتكئ الشيعة على روايات عن أهل البيت تقول باستحباب أداء الزيارة الأربعينية سيرا على الأقدام، وهناك في الأدبيات الدينية للشيعة أنّ خير الامور أحمزها - أي أصعبها - والأجر على قدر المشقة.

١- مقابلة للباحث مع أصحاب المواكب الحسينية الذين شاركوا أو سمعوا بها في الظاهرة ابان النظام السابق

انطلاقا من هذا الدافع يقوم الشيعة بتحمل الصعاب وقطع المسافات لأداء الزيارة، مصطحبين معهم الأكل والماء وقليلاً من الأمتعة الضرورية، اذ لم تكن المواكب منتشرة على طول الطريق مثلما يحصل اليوم، عدا بعض البيوت والبساتين التي كانت في الطريق بين النجف وكربلاء إذ كان أصحابها يطعمون الزوار ويؤمّنون لهم المبيت في بيوتهم وبساتينهم.

بقيت أعداد المشاركين بالمشّاية محدودة ومقتصرة على النجف والمدن المحيطة بها إلى مدة طويلة، حتى بداية الضغط الذي قام به نظام صدام الذي عدّ هذه الشعائر الحسينية تحديا لإرادته وقوته ونظامه، لما لها من دلالات رمزية تتعلق بجوهر الثورة الحسينية ضد الظلم والطغيان وما يردده الزوار الشيعة من هتافات وشعارات تتفق مع مبادئ هذه الثورة، فبدأ يضغط على هذه الظاهرة والمشاركين بها، محاولا تقنينها في بداية الأمر لكنه وجد تحديا وإصرارا من الزوار الذين تشبثوا اكثر بممارسة طقوسهم مما اضطره إلى منعها والعقاب عليها. كما سيأتي في البحث في الفصول القادمة للدراسة.

٢ـ الزيارة الأربعينية:

وهنا نأتي على تعريفين للمفردتين "الزيارة" ومن ثم "الأربعين" فلكل منهما تعريف مستقل وبينهما عموم وخصوص من وجه، إذ إنّ المفردة الاولى أعمُّ بكثير من الثانية اذا ارتبطت بها اصطلاحا.

أ- **الزيارة:** زار زيارة ومزاراً وزواراً: أتاه بقصد الالتقاء به، فهو زائر جمعها زائرون وزوّار.[١]

وقال في مجمع البحرين، زاره يزوره زيارة: قصده ... إلى إنّ قال: والزيارة في العرف: قصد المزور اكراما له وتعظيما له واستيناسا به، وقيل الزيارة هي الحضور عند المزور، وقيل: هي التشرف بمحضر الإمام.[٢]

وهذا المعنى هو الأقرب إلى دراستنا، اذ إنّ معنى الزيارة في هذه الدراسة هو زيارة الإمام الحسين وآل بيته الشهداء في كربلاء، إذ اعتاد المسلمون على زيارة قبور وأضرحة اولياء الله الصالحين ولاسيما أهل بيت النبي (ص).

١- لويس معلوف، المنجد في اللغة والاعلام، مصدر سابق، ص ٣١٠.
٢- مهدي تاج الدين، النور المبين في شرح زيارة الأربعين، منشورات دار الانصار، مطبعة باقري، ط الاولى، قم ٢٠٠٥، ص ٢٦.

وهناك مصاديق كثيرة للزيارة بمعناها الأخير، فمن الزوار من يقصد راكبا ومنهم من يقصد سيرا على الاقدام ولاسيما في أوقات الزيارات المستحبة مثل زيارة أربعين الإمام الحسين وغيرها. وتأتي ممارسة هذه الطقوس استجابة لروايات وأحاديث كثيرة منقولة عن النبي (ص) وأهل بيته تحث على زيارة الإمام الحسين والأئمة من ولده، وتؤكد جميعا على عظم الأجر والثواب.

ب- **الأربعين:** لهذا الرقم أهمية خاصة عند المسلمين، فهو مليء بالأسرار ومحاط بهالة مقدسة لا يشترك فيها معه الا الرقم سبعة، فلا يعرف أحد السرَّ الدفين في عدد "الأربعين" وفلسفته الوجودية، وامتيازه على الأعداد الاخرى، إذ نواجه في الأحاديث المأثورة عن رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام تركيزا كثيرا في شتى المواضيع والمجالات على هذا العدد: "الأربعين"، منها: استحباب شهادة أربعين مؤمنا بالخير والإيمان للمؤمن الذي رحل عن الدنيا، ومنها استحباب دعاء الإنسان لأربعين مؤمنا قبل دعائه لنفسه.[١]

وربما يربط المسلمون بين هذه الأحاديث وبين القرآن الكريم عند سرده لقصص بعض الانبياء التي يومئ فيها إلى أثر هذا العدد في حياة النبي (ص)، كقوله تعالى: "و إذ واعدنا موسى أربعين ليلة ... ".[٢]

أو قوله تعالى: "حتى اذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني إنّ أشكر نعمتك".[٣]

وغيرها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

إنّ الاحتفال بيوم الأربعين بعد الوفاة هي عادة عربية ـ إسلامية، ترتبط بأهمية العدد "أربعين" وقدسيته، ليس في الإسلام فحسب، بل

في الديانات الاخرى والحضارات القديمة مثل اليهودية والمسيحية والحضارات السومرية والبابلية.[٤]

اما ما يرتبط بموضوع بحثنا وتعريفنا لهذا العدد "الأربعين" فهو ما يتعلق بزيارة الأربعين التي اكدت عليها الروايات والسير للائمة من ذرية النبي (ص)

١- المصدر السابق، ص ٣٥.
٢- القرآن الكريم، سورة البقرة، ٥١.
٣- القرآن الكريم، سورة الاحقاف، ١٥.
٤- ابراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم ايران، ٢٠٠٢، ص ١٣١.

توالت الأحاديث والوصايا حول استحباب زيارة ضريح الإمام الحسين في يوم الأربعين من استشهاده وهو يوم العشرين من صفر، و عدها الحسن العسكري (ع) من علامات الايمان إذ يروى عنه أنه قال: "علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم". [١]

وبعد أن قدمنا توضيحات مختصرة عن مفهومي الزيارة والأربعين نحاول مما تقدم وضع تعريف اجرائي لزيارة الأربعين عند المسلمين الشيعة:

وهي الزيارة التي يؤديها الفرد والجماعة لضريح الإمام الحسين و أهل بيته في كربلاء يوم العشرين من صفر في كل عام هجري، استكمالا لطقوس عاشوراء وشعائرها الحسينية، اذ يقوم الشيعة باحياء هذه الشعائر والطقوس مطلع كل سنة هجرية في اليوم الاول من شهر محرم الحرام ولغاية يوم أربعينية الإمام الحسين.

٣ـ الشعائر:

الشعيرة جمعها شعائر: العلاقة، شعار الحج: علاماته ومناسكه.[٢]

وفي كتاب "العين" للخليل: انت الشعر دون الدثار: تصفه بالمودة، واشعر قلبه: البسه، وليت شعري: علمي، وشعرته: عقلته وفهمته: والمشعر: موضع النسك، والشعار والشعيرة: اعمال الحج، والشعيرة: البدنة، واشعرتها لله نسكا: جعلتها شعيرة تهدى، وعن القرطبي نقلا عن بعض اللغويين: كل شيء لله فيه امر اشعر به واعلم يقال له: شعار، الشعار: العلامة، أشعرت: اعلمت.[٣]

الشعيرة في اللغة هي العلامة، يقال: أشعر البدنة، اذا اثر فيها بما يجعلها معروفة للناظر.[٤]

ويقرر مجمع اللغة العربية في القاهرة إنّ الشعيرة هي: "ما ندب الشرع إليه وأمر بالقيام به وفي التنزيل العزيز ((ومن يعظّم شعائرَ الله فإنّها من تقوى القلوب))".[٥]

١ـ لويس معلوف، نفس المصدر السابق،ص ٣٩١.
٢ـ الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة ال البيت، ايران، قم، ط٤، ١٩٩٤، ص٥٦.
٣ـ محمد سند، الشعائر الدينية نقد وتقييم، سلسلة دراسات أسلامية، دار الغدير- قم ٢٠٠٣ ط ١ ص ١٥-١٦
٤ـ الزمخشري، جار الله، الكشاف، ج ١، ص ٣٢٤ / كما ينظر: مجلة التوحيد، السنة ١٦، العدد ٩٤، مايس ١٩٩٨، ص ٦٢.
٥ـ مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط ، ج ٢، ص ٤٥٨ . / كما ينظر : مجلة التوحيد ، السنة ١٦، العدد ٩٤، مايس ١٩٩٨، ص ٦٣.

من مجموع ما تقدم يمكن استخلاص الجامع المشترك وهو: إنّ الشعيرة والشعار يستخدم في مورد العلامة الحسية، ومن ثم فالشعار الديني هو التعليم على ألمعاني الدينية بأدوات حسية، فكل ما علّم بالله تعالى او بفكرة منتسبة له مثل دينه او أمره ونهيه فهو شعار ديني.[١]

ويعرفها بعض الباحثين: "الشعائر إحدى الوسائل التي اعتمدها الإنسان للتعبير عن عقائده، فهي رموز تعبيرية تختزن دلالات محددة، وليست مجرد ممارسات تعكس الوضع النفسي وترتبط بجانبه العاطفي فقط، وإنّما تجسد تفاعل البعد العقيدي مع المشاعر والأحاسيس".[٢]

والشعائر في هذا البحث تعني الشعائر العاشورائية او الحسينية، إذ يحتفل المسلمون الشيعة مطلع كل عام هجري في شهر محرم بذكرى معركة كربلاء التي غدت الحدث التأسيسي بالنسبة للإسلام الشيعي، وبها تحوّل الإمام الحسين واستشهاده إلى رسالة يحيها المسلمون الشيعة بواسطة الرموز الشعائرية العاشورائية عادين ذلك من شعائر الله التي عليهم إحياؤها.

٤ـ العزاء:

اشتُقّت المفردة من فعل عزّى بمعنى واسى الآخر في أحزانه، فهو ـ إذاً ـ عزاء ومواساة في الحزن عند حدوث وفاة بصورة عامة، غير أن العزاء اتخذ في البيئة الإسلامية الشيعية بمرور الزمن معنى خاصا وهو اظهار الحزن والاسى في شهري

محرم وصفر من كل عام ولاسيما في اليوم العاشر من شهر محرم المعروف بيوم عاشوراء، وهو يوم استشهاد الإمام الحسين في كربلاء، بالاضافة إلى يوم ٢٠ صفر المعروف عند الفرقة الشيعية بيوم أربعين الإمام الحسين، وعلى الرغم من إنّ كلمة عزاء لم ترد في القرآن غير إنّها وردت في جميع كتب الحديث والسنة وخاصة في الفصل الخاص المسمى "كتاب الجنائز" الذي يختص بالأحاديث النبوية التي تشير إلى مراسيم التشييع وطقوس الموتى والدفن عند المسلمين، إذ يقدم المشيعون تعازيهم إلى أفراد عائلة الفقيد.[٣]

إنّ العزاء ظاهرة شعائرية خاصة بالبيئة الإجتماعية ـ الثقافة الشيعية .

١ـ محمد سند، مصدر سابق، ص ١٧.
٢ـ ماجد الغرباوي، افتتاحية العدد، مجلة التوحيد، السنة ١٦، العدد ٩٤، مايس ١٩٩٨، ص٥.
٣ـ ينظر: روبير بندكتي، الشعائر بين الدين والسياسة، دار مصر المحروسة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥، ص ١٠٠.

٥- عاشوراء:

جاءت كلمة عاشوراء في المنجد بمعنى: عاشوراء: العاشور والعاشورى والعشورى: العاشر من المحرم، العاشر جمعها عُشّر مفردها عاشرة وجمع عواشر: الواقع بعد التاسع.[١]

وهو اليوم العاشر من شهر محرم الحرام، وهو أول شهر قمري من السنة الهجرية والذي يوافق حادثة مقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه في معركة الطف بكربلاء سنة ٦١ هجرية، وبه يحتفل المسلمون الشيعة من كل عام بمناسبة هذه الذكرى التي غدت الحدث التأسيسي للإسلام الشيعي. إنّ عاشوراء عيد تذكاري تدور احتفالاتها حول شخصية الإمام الحسين بن علي بن ابي طالب واستشهاده في معركة كربلاء (١٠ تشرين الاول ٦٨٠ م) وقد تحوّل الحسين واستشهاده إلى رسالة يحييها المسلمون الشيعة بواسطة الرموز الشعائرية العاشورائية.[٢]

ويسمي العراقيون ليلة عاشوراء بليلة الحج أو "الحجة" أي يبقون مستيقظين حتى فجر هذه الليلة، كما يسمى يوم عاشوراء في العراق بيوم "الطبك" أي اليوم الذي انطبقت فيه السماء على الارض على أثر استشهاد الإمام الحسين في كربلاء، ولهذا اليوم أهمية كبرى في حياة المسلمين الشيعة بصورة عامة والعراقيين بصورة خاصة، إذ تقام احتفالات كبرى تستمر منذ الصباح الباكر ليوم عاشوراء حتى ليلة "الوحشة" وهي ليلة الحادي عشر من محرم الحرام، حيث بقيت نساء الحسين والإمام السجاد مع الاجساد المقطعة بعد مقتل الحسين (ع).

١- لويس معلوف، المنجد في اللغة والادب، مصدر سابق، ص ٥٠٧.
٢- ينظر : روبير بندكتي ، مصدر سابق ، ص ٨٣

المبحث الثالث: الإطار النظري للبحث

إنّ النظريات الإجتماعية تساعد بشكل كبير على اختبار المفاهيم والنظريات التي يجريها الباحث، لأنّ النظرية التي سيتبناها لابد أنْ تحتوي على مجموعة من المفاهيم والفرضيات التي ستكون عونا له في تكوين نسق معرفي يمكّنه من السير باتجاهها لتحقيق الغرض الذي أجُريَ من أجله البحث.

النظرية التي هي أعلى مراحل العلم تعرّف بأنّها: مجموعة من المفاهيم مع العلاقة المتداخلة التي يفترض وجودها بين تلك المفاهيم، كما أنّ النظرية تتضمن النتائج التي نفترض منطقيا أنها تستمد من العلاقات المفترضة في النظرية. إنّ تلك النتائج هي ما نسميه فرضيات. و يشير كريب إلى تعريف آخر للنظرية من خلال وظيفتها وليس عن طريق مكوناتها قائلا إنّها تستعمل لتفسير خبرة ما وفهمها على أساس خبرات وأفكار عامة أخرى عن الحياة.[١]

ويعرفها عالم الإجتماع الامريكي تالكوت بارسنز بأنّها "النسق النظري بالمفهوم الحديث يشكل وحدة لمفاهيم مترابطة ومتساندة منطقيا وبنائيا، لها مرجعية امبيريقية في الواقع، تشكل فيها العلاقات بين الأجزاء امكانية اشتقاق فرضيات جديدة، او تعميمات تعبيراً عن انتظامات امبيريقية ".[٢]

وبحسب تلك التعاريف يكون الباحث قد أثبت أنْ لابد من وجود نظرية توفر إطارا مرجعيا ونسقا معرفيا وأسلوبا للتفسير في أي بحث ميداني، ولوجود ضروة منهجية فقد استخدم الباحث أكثر من نظرية أو إطار نظري في هذا البحث مبررا ذلك بجواز توليف الإطار النظري للدراسة بين نظريتين او أكثر على إنّ تُراعى الشروط التي يجب على الباحث الالتزام بها وأولها إنّ يكون هناك انسجام وصلة موضوع بين النظريات المستعملة.[٣]

لذا يرى الباحث إنّ "التفاعلية الرمزية" و "نظرية السلوك الجمعي" يشكلان الإطار النظري المناسب لتدعيم دراسة ظاهرة "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية في

١- ينظر: د . ناهدة عبد الكريم حافظ ، مصدر سابق ، ص ٢٩ .
٢- د. ابراهيم عيسى عثمان ، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع ، دار الشروق ، عمان ، الاردن ، ٢٠٠٧ ، ص ١٦
٣- ينظر : د ناهدة عبد الكريم حافظ ، مصدر سابق ، ص ٤٧

المجتمع العراقي، ولكي تتضح الرؤية الحقيقية لهذه النظريات سيحاول الباحث تقديم نبذة مختصرة عنها وكيف شكلت مرجعية لبحثه.

اولا: نظرية السلوك الجمعي.

السلوك الجمعي: هو ذلك الحقل من علم النفس الاجتماعي الذي يعنى بدراسة الظواهر التي بين السلوك الجماعي المنظم على أساس القواعد والنظم الإجتماعية من جانب وبين السلوك الفردي من جانب آخر.[1]

ويمكن التمييز بين ثلاثة نماذج للسلوك الجمعي هي:

- السلوك الجماهيري او الكتلي (الرأي العام، المودة، البدعة، الفزع).
- الحشود .
- الحركات الإجتماعية والعبادات.

وقد تقترب ظاهرة البحث من تلك النماذج ف" المشّاية " بوصفها سلوكاً جماهيرياً او كتلياً لها شكل الرأي العام، لأنها تشكّلت من خلال اتفاق او إجماع آراء مجموعة أفراد تطورت بمرور الزمن لتشكل رأيا عاما او اتفاقا جماعيا لدى غالبية فئات الجمهور تجاه أمرٍ او ظاهرة مثلما حصل مع ظاهرة البحث، و تقترب ظاهرة المشّاية من كونها مودة وذلك لوجود جانب التقليد من خلال الرفقة الإجتماعية التي تمخضت عنها نتائج الاستبيان، وبحسب المشاهدات الميدانية للباحث فإنّ كثيراً من المشاركين في هذه الظاهرة يمارسونها طقساً سنوياً اعتادوا عليه نتيجة تأثرهم الاجتماعي وتحول الطقس إلى مودة يمارسها المجتمع الشيعي كلّ عام .

اما كون الظاهرة تشكل حشدا جماهيريا فإنّ ذلك من المسلّمات اذ تُعد المشّاية ظاهرة حشدية بامتياز لأنها تتشكل على وفق المواصفات التي تتميز بها الحشود.

و تُعد هذه الظاهرة من الحركات الإجتماعية والعبادات لأنها ظاهرة إجتماعية كما سيأتي في المباحث اللاحقة تستبطن جانبا عباديا، ولعلّ الآراء الكثيرة التي تعود إلى كثرة منظري السلوك الجمعي تجعل الباحث يميل إلى انتقاء النظرية المناسبة لموضوع البحث، ومن خلال استقرائه هذه النظريات وجد أنّ المفكر الفرنسي الذي

١- حاتم الكعبي، السلوك الجمعي ،ج١، مطبعة الديوانية الحديثة، الديوانية ، العراق الطبعة الاولى ١٩٧٣، ص١٤١.

يمكن عدُّه من أبرز الرواد الأوائل في هذا الميدان عالم الاجتماع المشهور "اميل دوركهايم" الذي كإنّ له فضل كبير في تنمية كل من السلوك الجمعي وعلم الاجتماع العام. وجد الباحث أنّ "دوركهايم" أقرب المفكرين إلى ظاهرة الدراسة، ففي تنمية مفهومي (الحقائق الإجتماعية social facts) و(التمثلات الجمعية collective representation) كان "دوركهايم" قد أوجز أهمية العامل الجماعي (group factor) في السلوك البشري.

يضاف إلى ذلك أنّ معالجة "دوركهايم" كانت معالجة تفاعلية - اي أنّها قائمة على أساس التفاعل الإجتماعي وأثره وأهميته - إذ كإنّ يعتقد بإنّ التمثلات الجمعية أو الحاضرة هي نتاج، او مستخرجة من اندماج او انصهار العقول الفردية للأفراد الذين هم في ترابط أو تعايش أو اشتراك (Association) اجتماعي وليست هي نتاج تقليد فرد ما من الاخرين وحسب، وعلى هذا فإن دركهايم يرى أنّ التمثلات الفردية (Individuals representation) او(الفكرIdeas) تتحور وتتحول او تتغير في عملية التركيب الاجتماعي - النفسي (Psycho-social synthesis) التي تحدث عادة في الجماعة. ومن هنا فإنّ التمثلات الجمعية هي أشياء اخرى لا يمكن تفسيرها على أساس العمليات العقلية الفردية او بواسطتها. [1]

إنّ "دوركهايم" هو من الروّاد الأوائل المهتمين ببلورة بعض الآراء الأساسية في السلوك الاجتماعي. إنّ إصرار دوركهايم ضمنا وصراحة على إنّ الافكار الدينية والشعائر والطقوس تتولد من الجو الاجتماعي الحماسي الهائج، ومن ثم ينشأ دين المجتمع، او الطائفة الإجتماعية وينشأ المقدس او الإله وعلى هذا الاساس يرى دوركهايم أنّ التغيّر الإجتماعي الذي يحصل نتيجة السلوك الجمعي يحدث ببسببين هما:

١ـ هياج طقوسي، إذ تتولد وتنمو تمثلات جمعية جديدة ورموز مقدسة.

٢ـ الكثافة الخلقية او ديناميكية السكان وهذه تؤدي إلى تقسيم العمل الذي يؤدي إلى تحويل التماسك الاجتماعي من نوع التماسك الميكانيكي إلى تماسك عضوي.

١ـ ينظر: نفس المصدر السابق.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن اعتبار ظاهرة "المشّاية" هي المقصودة من نظرية دوركهايم وفقا لتلك الآراء، لأنّ الفكرة الدينية للظاهرة والشعائر والطقوس التي تولدت عنها نتيجة الجو الاجتماعي للمشاركين الذين يغلب عليهم طابع الحماسة والهياج، جعلت من هذه الظاهرة ظاهرة سلوك جمعي مع وجود سببين لحدوثه، هما: الهياج الطقوسي الذي يحصل عند المشاركين نتيجة التمثلات الجمعية والرموز المقدسة، والكثافة الخلقية او دينامية السكان، اذ من خلال المشاهدات الميدانية للباحث وجد إنّ كل العناصر التي وضعها دوركهايم لنظريته متوافرة في ظاهرة البحث لتجعلها ظاهرة سلوك جمعي.

يميز دوركهايم بين نوعين من التمثلات هي التمثلات الفردية والتمثلات الجمعية.

إنّ الأساس الأولي لشعور الفرد بحسب رأيه هو الأحاسيس، إذ إن هذه الأحاسيس هي نتاج عدة خلايا شوكية تكون في تفاعل، إنّ هذا النتاج هو مركب بحد ذاته، اذ إنّ هذه الأحاسيس قد تتركب لتكون صورا ذهنية وهذه الأخيرة تتركب لتكوّنَ التمثلات الفردية. إنّ الحياة العقلية ما هي إلا مجرى هذه التمثلات فردية وجمعية. إنّ المجتمع يتكون من روح جمعية أو وعي جمعي وهي تنتج من اندماج واتحاد شعور الأفراد مع بعضهم بعضا أو بتركيب التمثلات الفردية في مركب جديد هو المجتمع. إنّ التمثلات الجمعية هي نتاج تعاون هائل يمتد ليس عبر المكإنّ فقط بل عبر الزمان. أيضاً كما يحصل في ظاهرة البحث التي تبدأ بزمإنّ ومكان خاضعين لهذه التمثلات الجمعية التي تنتج من اندماج واتحاد شعور الأفراد مع بعضهم بعضا، ولأجل إنّ تحال إلى تمثلات جمعية فإنّ مجموع العقول قد تعاشرت وتشاركت واتحدت وربطت أفكارها وعواطفها، و راكمت أجيال عديدة فيها خبرتها ومعرفتها. وعليه، فإنّ نشاطا ذهنيا خاصا قد ركز فيها ومن ثمّ فهي أغنى وأكثر تعقيدا من التمثلات الفردية، زد على ذلك أنّ التمثلات الجمعية تختلف عن التمثلات الفردية من حيث النوع. (فالجماعة تفكر، وتعمل، وتشعر بشكل يختلف عن تفكير وفعل الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة فيما لو كانوا منعزلين عن بعضهم بعضا).

١- ينظر: د. حاتم الكعبي، نفس المصدر السابق.

وقد لاحظ الباحث في أثناء مشاركته في أداء هذه الظاهرة إنّ الفرقة الشيعية وعبر تراكمات عديدة من خلال مشاركتها في هذه الظاهرة أصبحت تفكر وتشعر بشكل جمعي يختلف عن تفكير الأفراد انسجاما مع ما ذهب اليه دوركهايم الذي يرى أنّ العقل الاجتماعي يتميز بالتفوق على العقل الفردي. إنّ الشعور الجمعي ـ على حد رأيه ـ هو ذروة الحياة النفسية لأنّه الشعور الناتج عن كل الشعورات. إنه متفوق من الناحية الخلقية على الشعور الفردي، ومن ثم كّان هو الموضوع الحقيقي الذي يدور حوله الدين. إنّ الإله ما هو الا المجتمع مؤلها، إنّ المجتمع هو الاله الحقيقي.

والواقع أنّ المدرسة الفرنسية التي يتزعمها "دركهايم" ومنها "ليفي بريل" و"موس" وغيرهما كانت تدعو الرموز المشتركة العامة في الجماعات الكبيرة باسم (التمثلات الجمعية) وكانت هذه المدرسة ترى أنّ هذه التمثلات الجمعية:

- مشتركة عامة بين أعضاء جماعة إجتماعية ما، لذلك نرى أنّ التمثلات او الرموز المشتركة عند الجماعة الشيعية في أثناء ممارسة الطقوس تتسم بصفة الاشتراك لأنّ كلَّ المشاركين في أداء الزيارة الأربعينية مشيا على الاقدام يخضعون لتمثلات جمعية أو رموز مشتركة وهي أداء زيارة الإمام الحسين الذي يشكل الرمزية الدينية عند المسلمين الشيعة.
- تنتقل من جيل إلى جيل، وهذا يتجسد بشكل كبير في ظاهرة البحث "المشّاية" التي انتقلت عبر الأجيال الشيعية لتصل ذروتها الحالية بعد عام ٢٠٠٣ وزوال الأسباب التي حدت من تناميها لفترة من الزمن.
- تفرض نفسها على أعضاء الجماعة فرضاً، إنّ هذه الظاهرة ومن خلال قوتها الدينية تفرض نفسها على أعضاء الجماعة الشيعية فرضا لأنها وبحكم التأصيل الديني والفقهي لها عبر الأجيال تأخذ جانبا مهما من السلوك الفردي والجماعي للتعبير عن التمثلات الجمعية.
- توقظ فيهم عواطف وانفعالات من قبيل الاحترام والخوف والاعتزاز والفخر وما شاكل، كذلك نرى أن المشاركين في ظاهرة المشّاية يخضعون لعواطف وانفعالات مشتركة نتيجة التمثلات الجمعية لهم

١ـ ينظر: المصدر السابق نفسة.

وعلى كل حال فإنّ هذه التمثلات تتسم على الأقل بما يأتي:

١- أنّها خارجية لكلّ فردٍ إذ هي تُفرضُ عليه من الخارج، من المجتمع.

٢- أنّها مُلزمة لأعضاء الجماعة وفيها خاصية الإلزام.

أطلق دوركهايم على هذه التمثلات الإجتماعية اسم الحقائق الإجتماعية، وهي حقائق عامة لأنها جمعية وعلى هذا فإنّ هذه الحقائق موضوعية ،خارجية وملزمة.

إنّ وظيفة او الحقيقة الإجتماعية او مهمتها يجب إن تنشد وإنّ يبحث عنها من حيث علاقة هذه الحقيقة بالأهداف الإجتماعية (لا بالهدف السايكولوجي الفردي).

فالظاهرة الدينية هي ظاهرة إجتماعية عامة في المجتمع، تقليدية ومن خصائصها الإكراه والإلزام، وعليه فإنّ مهمة عالم الإجتماع هي أن يبحث عن علاقة هذه الظاهرة الدينية مثلا وعن علاقة المفاهيم الدينية بنسيج الحياة الإجتماعية وعن أثر هذه الملابسات الإجتماعية في أحداث وخلق وبلورة هذه المفاهيم، وتلك الطقوس والمراسيم التي يتميز بها الدين. إنّ ممّا يدعم هذه النظرة للظاهرة الدينية أنّ علماء الإنسان قد وجدوا أن الدين ـ تفكيرا وشعورا وعملا- يتأثر تأثيرا كبيرا بما يشيع في الشعوب البدائية التي درسوها من ظروف وأحوال سياسية واقتصادية ويرتبط ارتباطا وثيقا بما يسود فيها من ظروف إجتماعية .[١]

وعلى ضوء ما تقدم يرى الباحث أن آراء دوركهايم هي الأقرب من بين النظريات والآراء في حقل السلوك الإجتماعي لقراءة ظاهرة "المشّاية" ـ في هذه الدراسة ـ التي تقوم على أساس التفاعل الإجتماعي، فالتمثلات الجمعية التي هي نتاج اندماج وانصهار العقول الفردية للإفراد الذين هم في ترابط او تعايش او اشتراك اجتماعي في ظاهرة "المشّاية" هي نتاج الشعور الجمعي الناتج عن كل الشعورات، لوجود مشتركات عامة بين أعضاء الجماعة الشيعية تدفعهم لممارسة هذه الطقوس بشكل جماعي، كما إنّها انسجاما مع نظرية دوركهايم أصبحت تنتقل من جيل إلى جيل بحكم التنشئة الإجتماعية التي تقوم بها الأسر للمحافظة على ممارسة هذا الطقس، بالاضافة إلى كون هذه الظاهرة أصبحت تفرض نفسها على اعضاء الجماعة الشيعية فرضا وتوقظ فيهم عواطف وانفعالات طقسية شعائرية متسمة بخاصية الإلزام التي تغذيها الآراء الفقهية النابعة من العقل الاجتماعي للجماعة.

١- ينظر : د.حاتم الكعبي ، السلوك الجمعي ،مصدر سابق ص ٦١-٦٧.

فالظاهرة الدينية "المشّاية" في حقيقتها وجوهرها هي ظاهرة إجتماعية عامة في المجتمع، تقليدية ملزمة، لذا فإنّ مهمة الباحث الاجتماعي هي أن يبحث ـ بحسب رأي دركهايم ـ عن علاقة هذه الظاهرة الدينية مثلا، وعن علاقة المفاهيم الدينية بنسيج الحياة الإجتماعية، وعن أثر الملابسات الإجتماعية لهذه الظاهرة في إحداث وخلق هذه المفاهيم وتلك الطقوس والمراسم التي يتميز بها الدين.

ثانيا: النظرية التفاعلية الرمزية

التفاعل الرمزي هو أحد المحاور الأساسية التي تعتمدها النظرية الإجتماعية في تحليل الأنساق الإجتماعية وقد ظهرت النظرية التفاعلية الرمزية في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين على يد العالم جورج هربرت ميد. وهي تبدأ بمستوى تحليل الوحدات الصغرى (مايكرو سوسيولوجي) للوحدات الكبرى بمعنى تبدأ بالأفراد وسلوكهم بوصفهِ مدخلاً لفهم النسق الاجتماعي.[1]

وهذا ما حصل نتيجة البحث عن ظاهرة "المشّاية" التي ابتدأ الباحث بعملية تحليل الوحدة الصغرى لها وهم الأفراد المشاركون ثم انتقل لتحليل الوحدات التي تأخذ طابعا اوسع مثل تحليل المواكب الحسينية لينتقل إلى الوحدات الكبرى وهي تحليل هذه الظاهرة بشكل عام.

أفعالُ الأفراد تصبح ثابتةً لتشكل بنية من الأدوار؛ ويمكن النظر إلى هذه الأدوار من حيث توقعات البشر بعضهم تجاه بعض من حيث المعاني والرموز. وهنا يصبح التركيز إما على بُنى الأدوار والأنساق الإجتماعية، أو على سلوك الدور والفعل الاجتماعي ومع إنّها تَرى البُنى الإجتماعية ضمناً، بوصفها بنىً للأدوار على وفق طريقة بارسونزParsons، إلا إنها لا تَشغل نفسها بالتحليل على مستوى الأنساق.بقدر اهتمامها بالتفاعل الرمزي المتشكِّل عبر اللغة، والمعاني، والصور الذهنيةِ، استناداً إلى حقيقةٍ مهمةٍ، هي إنّ على الفرد إنّ يستوعب أدوارَ الآخرين.

١- ينظر: د . فادية عمر الجولاني ، علم الاجتماع التربوي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٧ ، ص ٢١٥.

إنّ الحياة الإجتماعية كما تعتقد هذه المدرسة وما يكتنفها من ظواهر وأحداث، شبكة معقدة من نسيج التفاعلات والعلاقات بين الأفراد والجماعات التي يتكون منها المجتمع. [1]

لقد استطاع المفكر الاجتماعي "ميد" أن يبلور على نحو متقن الأفكار الأساسية لهذه النظرية، إذ يزعم أنّ اللغة تتيح لنا الفرصة لنصل إلى مرحلة الوعي الذاتي وندرك ذاتنا ونحس بفرديتنا، كما إنّها تمكننا من أنْ نرى أنفسنا من الخارج مثلما يرانا الآخرون.

وينظر "ميد" إلى الذات على أنها المحور الأساس في عمليات التفاعل وبواسطتها يتحول الفرد البيولوجي إلى فاعل اجتماعي له ارتباطات بالآخرين، ومن خلال التنشئة الإجتماعية يصاغ سلوكنا في ضوء ما يتوقعه الآخرون منا ، والعلاقة تكون تبادلية بين الذات والمجتمع. [2]

ولعل مفاهيم هذه النظرية المتعلقة بموضوع البحث التي يشتغل عليها الباحث هي التي جعلته يستعمل التفاعلية الرمزية في بحثه هذا، فمفاهيم هذه النظرية مثل (التفاعل، المرونة، الرموز، اللغة، التنشئة الإجتماعية وغيرها) كل هذه المفاهيم دفعت الباحث بأن يجعل من هذه النظرية إطارا للبحث.

إنّ التفاعل الذي يحصل بين الأفراد من خلال الرموز واللغة يجعل هذه النظرية قابلة للتطبيق.

١- د . إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٩، ص ٥٧٥.

٢- ينظر : محمد علي محمد ، تاريخ علم الاجتماع ، دار المعارف الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٣٨٤ - ٣٨

الفصل الثاني
طقوس العزاء الحسيني في العراق

توطئة

المبحث الأول
تاريخ العزاء الحسيني ومراحله

المبحث الثاني
التأصيل الديني للعزاء

المبحث الثالث
صور من العزاء الحسيني

المبحث الرابع
العزاء الحسيني... آراء واتجاهات معاصرة

توطئة:

يعود تاريخ العزاء في بلاد ما بين النهرين إلى العصور القديمة التي سبقت واقعة كربلاء إذ كانت طقوس الموت و الحزن و البكاء معروفة في المجتمعات و الأديان الشرقية، و لا سيما في بلاد ما بين النهرين إذ إنَ تراتيل البابليين و مناحاتهم على خرائب سومر و أكد و كذلك مناحات عشتار على فقيدها إله الربيع المقتول تموز في سومر القديمة، تذكرنا بنواح زينب على أخيها الحسين و ليلى على ولدها علي الأكبر في كربلاء .[١]

و ليس غريباً أن تنتقل طقوس البكاء بين الأجيال لتجعل من الشخصية العراقية ميالةً للعزاء و النواح، فهذه الطقوس لها جذور تاريخية في العراق قبل واقعة عاشوراء واستشهاد الإمام الحسين، إن ثقافة البكاء مرتبطة بالإنسان العراقي منذ القدم.[٢]

إنَ واقعة كربلاء شكلت عودة هذا الفرد إلى طقوسه التي اعتاد عليها في العصور البابلية التي كان الحزن و البكاء يشكلان طابعها الجوهري، و هذا ما يؤكده "ايردمنس" في المقارنة التي أجراها بين طقوس الموت و البكاء على الإله تموز (ادونيس) التي كانت تقام سنوياً في سومر و بابل و بين طقوس العزاء على الحسين كل عام في اغلب المدن العراقية. إنَ الاحتفالات التي كانت تجري في شارع الموكب في بابل من اجل تموز تلقي، بحسب "ايردمنس"، ضوءاً يساعد على مقارنتها بما كان يجري أيام عاشوراء من بكاء و نواح و تراتيل حزينة و قد أكد "ايردمنس"، أنَ هذه الطقوس هي استمرار لطقوس الربيع التي كانت تقام من اجل الإله تموز، و أنّها استمرت في حران و الموصل حتى القرن الحادي عشر و كذلك الثالث عشر الميلادي في شمال العراق بشكل بسيط و محوّر.[٣]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق، ص ٣٢٢.

٢- ينظر: خالد حنتوش، المؤسسة الدينية ودورها في المجتمع، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الاداب، ٢٠١٠، ص ١٩٣

٣- ينظر: ابراهيم الحيدري ، نفس المصدر السابق، ص ٣٢٢-٣٢٣.

و قد يقترب المعنى بين نواح عشتار على حبيب صباها تموز:-

من اجل تموز

حبيب الصبا

قضيت بالبكاء و النحيب

سنة بعد أخرى.[1]

و بين نواح ليلى زوجة الحسين على حبيبها الحسين:

نذرٌ عليَّ لان عادوا و ان رجعوا لأزرعنَّ طريقَ ألطفِ ريحانا [2]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري ، نفس المصدر السابق، ص٦.

٢- انطوان بارا، الحسين في الفكر المسيحي، مطبعة سرور، قم، ايران، ط٢، ٢٠٠٤، ص ١٩٢.

المبحث الأول: تاريخ العزاء الحسيني ومراحله

كانت الاحتفالات بذكرى معركة كربلاء قد انطلقت منذ قرون طويلة ومرت بمراحل التطور والبلورة حتى بلغت شكلها النهائي، وعلى الرغم من صعوبة التدقيق في معرفة الحقبة التاريخية التي شهدت نشوءها، إلا انه من الممكن اقتفاء آثار بعض الشعائر من خلال الوقوف على الحقبة التاريخية للحدث التأسيسي ـ لاستشهاد الإمام الحسين،في حين يعود نشوء صور العزاء بشكلها الحالي إلى حقب تاريخية مختلفة.

المآتم الحسينية تعد اليوم من اكبر الشعائر الدينية في العالم، منذ تأسيس الأئمة للمآتم الحسيني بوصفه شعيرة دينية، وذلك عبر توفير الأرضية المناسبة لسن المآتم من الإمام زين العابدين وبناء أركان المآتم في عهد الإمامين الباقر والصادق، وإتساع دائرة العزاء في عهد الإمامين الكاظم والرضا، وبناء على التقاليد المتبعة في المجتمعات البشرية تقيم أسرة القتيل المآتم عليه، ولم يكن أهل بيت الإمام الحسين استثناء من ذلك، بل اتسعت دائرة مآتم الإمام الحسين لما له من صلة بالنبي "ص" ومكانة اجتماعية، حتى أقام له الناس ـ ولا سيما الصحابة والتابعون ـ المآتم، وسُمّيَ عام استشهاده عام الحزن.[1]

يروى أنَ أول مآتم للعزاء على الإمام الحسين بعد استشهاده و نخبة من أهل بيته و أصحابه في واقعة كربلاء كان في ساحة القتال عند غروب شمس العاشر من محرم بعدما وجدوا الإمام وأصحابه مضرجين بدمائهم، ثم أقيم المأتم الثاني في الشام، عند وصول الأسرى من أهل بيت الإمام إلى مجلس يزيد إلى بيته.[2]

و بعد عودة السبايا من الشام إلى المدينة برفقة الإمام علي بن الحسين أقامت عائلة الإمام الحسين مأتما آخر، عن بشير بن حذلم، قال: ((لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين فحط رحله و ضرب فسطاطه، و انزل نساءه و قال يا بشر رحم الله أباك، لقد كان شاعراً فهل تقدر على شي منه ـ يعني الشعر ـ ؟

١- ينظر: الخوارزمي، مقتل الحسين، ج ٢، مكتبة المفيد، قم، ايران، ص ٤٠

٢- ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ٥ ص ٤٨٩

قلتُ: بلى يا ابن رسول الله إني شاعر.

قال: ادخل المدينة و أنعى أبا عبد الله الحسين.

قال بشير: فركبت فرسي و ركضت حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي رفعت صوتي بالبكاء و أنشأت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قُتِلَ الحسين فادمعي مدرارُ

الجسم منه بكربلاء مضرج و الرأس منه على القناة يُدارُ [1]

وهكذا بدأت مآتم العزاء تقام حزنا على الإمام الحسين من قبل بني هاشم وام سلمة وام البنين زوجة الإمام علي بن أبي طالب وبكاء آل عبد المطلب وحداد أهل البيت وبكاء التوابين ونواحهم على قبر الحسين في طريقهم إلى قتال أهل الشام، وغير ذلك من مراسم للعزاء .[2]

وكان أول من سنّ البكاء والعزاء شعيرةً دينية هو الإمام علي السجاد الذي سكن المدينة بعد استشهاد أبيه الحسين، وانتهز جميع الفرص لإحياء ذكرى واقعة كربلاء، فكان يبكي كلما أراد شرب الماء، وكان بكاؤه على مرأى الناس ومسمعهم، حتى طلبوا منه الكف عن البكاء خوفا على صحته، كما كان يدعو الآخرين لبكاء الحسين، وعدّ ذلك سبيلا لدخول الجنة ونيل الأمان من الله سبحانه، وحين بدأت إمامة الإمام الباقر كان قد مر على واقعة كربلاء ثلاثة عقود، وظهر في الساحة جيل جديد لم يذكر شيئا عن واقعة كربلاء، كما حدثت ثورات ووقائع أخرى في هذه العقود، مثل ثورة التوابين، وثورة الزبير، وثورة المختار، إلا أنَ تلك الحوادث المؤلمة ومقتل قتلة الحسين على يد المختار، لم تؤدِ إلى تركِ الإمام الباقر واقعة كربلاء يطويها النسيان، بل كأبيه، انتهز كل فرصة لإحياء ذكرى سيد الشهداء وواقعة كربلاء، ويعني ذلك انه سعى لسن المآتم الحسيني شعيرة دينية.[3]

١- محمد رضا الاعرجي الحائري الفحام ، احسن الجزاء في اقامة العزاء على سيد الشهداء، م٢، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ٢٠٠٩، ص ١٧٣

٢- ينظر: د.محمد صالح الجويني، تاريخ المآتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، عدد ٩، السنة الثالثة ٢٠٠٧، قم، ايران، ص ٧٨

٣- ينظر: محمد صالح الجويني، نفس المصدر السابق، ص ٧٨.

ثم توالت مجالس العزاء التي كان يقيمها الأئمة من ولد الحسين على مر العصور، إذ كانوا يعطون الهدايا و يهبون الهبات للشعراء لكي يرثوا جدهم الإمام الحسين، و يوجد كثيرٌ من الأحاديث و الروايات الواردة عنهم باستحباب البكاء على الحسين و أهل بيته مقابل ضمانات بالثواب و الأجر، لامجال لذكرها جميعها هنا، تلافياً لإطالة البحث.

لكن العزاء بوصفه طقساً اخذ شكله و طابعه التراجيدي في الاحتفالات الشعائرية الرمزية في القرن السابع الميلادي بعد قيام "التوابين" بأول حركة مقاومة ضد الحكم الأموي للأخذ "بثارات الحسين" بعد ان شعر أهل الكوفة بالندم المرير لمقتل سبط رسول الله وعلي و فاطمة الزهراء، تلك الحركة التي كوّنت - على اغلب الاحتمالات - أول نواة للاحتفال بذكرى استشهاد الحسين يوم عاشوراء، إذ كان بعض المناصرين لأهل البيت يذهبون إلى كربلاء للتجمع حول قبر الحسين لإظهار الندم و طلب المغفرة لتقاعسهم عن نصرته في واقعة كربلاء .[١]

وهناك مصادر تاريخية تؤكد أنَ المختار بن يوسف الثقفي الذي قاد حركة "التوابين" و رفع شعار "يالثارات الحسين" كان أول من أقام احتفالاً تأبينياً في داره في الكوفة بمناسبة يوم عاشوراء و انه أرسل بعض النادبات إلى شوارع الكوفة للندب على الحسين .[٢]

ولعل الصراعات الدامية التي وقعت بين التنظيمات الشيعية الثورية من جهة، والحكم الأموي والعباسي من جهة اخرى، ساهمت ببلورة ونشأت شعيرة العزاء، إذ أخذ الشيعة بقيادة زمرة التوابين في السنوات الأولى لاستشهاد الحسين مواجهة السلطة وتحديها، كذلك بدأت حملة الزيارة إلى قبر الحسين في كربلاء ردا على حملات الاضطهاد التي شنتها تلك السلطات ، وقد تحولت كربلاء منذ ذلك الحين إلى مزار يأتيه عدد كبير من المسلمين الشيعة .[٣]

وهكذا أخذ العزاء يترسخ في المجتمع الشيعي عاماً بعد آخر ماراً بانعطافات مهمة تراوحت بين المنع و السماح به، إذ سَجّلت العديد من السنوات منعاً لإقامة العزاء

١- ينظر: د. ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٩٠.

٢- ينظر: ابن قتيبة، الامامة و السياسية، دار النهضة، ط٢، القاهرة ١٩٧٢، ج٢، ص١٣٠ .

٣- ينظر: روبير بندكتي، الشعائر بين الدين والسياسة، دار مصر الحروسة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥، ص٩٠

سنأتي على ذكرها في فصل لاحق، و لما كانت الحكومات المتعاقبة متبدلة و متغيرة بحسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية وبحسب المصالح والميول الدينية والسياسية، و كذلك تأثير هذه الفرقة او تلك في هرم السلطة، فان ميزان القوى كان قد تغير لمصلحة الشيعة خلال حكم معز الدولة البويهي (٩٣٦-٩٦٧م) الذي ناصر الشيعة او تشيع لهم كما ذكر بعض المؤرخين، و كان معز الدولة أول من جعل مراسيم العزاء الحسيني عادة تتبع سنوياً في بغداد.[١]

يعد هذا التاريخ البداية الرسمية للعزاء الحسيني في العراق و السماح به طقساً شعائريا، يقول الدكتور إبراهيم الحيدري في كتابه (تراجيديا كربلاء):

"و من استقرائنا لأحداث التاريخ الإسلامي نلاحظ ان فترة حكم البويهيين في العراق كانت من أهم الفترات في تاريخ نشوء و تطور الشعائر و الطقوس الدينية و خاصة التي ترتبط بالعزاء الحسيني.

إنَ الاحتفالات التي جرت على شكل مواكب عزاء لاستحضار مأساة كربلاء بحسب ما نقله لنا ابن الجوزي و غيره كانت قد اتخذت شكلاً متكاملاً تقريباً و لأول مرة أصبح الطريق معبداً أمام الشيعة للإعلان عن شعائرهم و القيام باحتفالاتهم في عاشوراء بدون رقيب" .[٢]

وهكذا اتسع نطاق إقامة المناحات ومجالس العزاء على الحسين في عهد آل بويه، في أواسط الحكم العباسي، وقد أحيا هؤلاء الأمراء ورجال السلطة البويهية ما كان سبق من ذكريات هذه المناحات وشعارات المآتم، وأضافوا عليها كثيرا من الحالات على الرغم من معارضات ومخالفات معظم الخلفاء العباسيين لهم. ولم يقتصر أحياء هذه الذكريات والشعائر المؤلمة من البويهيين على العراق فقط، بل تعداه إلى سائر البلدان الإسلامية، مثل مصر وشمال إفريقيا وبعض البلدان العربية الأخرى، وإيران وغيرها.[٣]

"لقد أصبح المآتم الحسيني تقليدا رسميا عام ٣٢٥ هجرية، حيث أمر الحاكم البويهي، معز الدولة الديلمي، الناس بإقامة المآتم في الطرق، كما أصبحت إقامة المآتم رسمية

١- ينظر: د. ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٥٨ .

٢- ينظر: د. ابراهيم الحيدري، نفس المصدر، ص ٥٩ .

٣- ينظر: السيد صالح الشهرستاني، تاريخ النياحة، ج ١، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ص ١٤٧

في مصر بعد عقد من الزمن أيام الدولة الفاطمية. كذلك كان لدى حكومات أخرى ميول شيعية، لكن لم يصلنا ما يدل على إقامتهم للمآتم، لكن ذكر ابو ريحان البيروني (بعد ٤٠٣ هجرية) وعبد الجبار المعتزلي إقامة المآتم الحسينية في كبرى مدن العالم الإسلامي وذلك في أيام الدول الشيعية في القرن الرابع والخامس" .[١]

ومن الممكن عَدُّ تلك الاحتفالات نماذج أولية للشعائر و الطقوس و مراسيم العزاء الحسيني التي تطورت و نمت و انتشرت في عدد من مدن العراق و لا سيما في الوسط و الجنوب و استمرت حتى اليوم.

و هكذا بقيت مراسيم العزاء متأثرة ارتفاعاً و هبوطاً بالعوامل السياسية المتغيرة التي كانت تترك إسقاطاتها سلباً أو إيجاباً على نمو و تطور هذه الطقوس و الشعائر، فمرة تمنعها السلطة الحاكمة فيمارسها الشيعة سرا، ومرة تسمح بها السلطة فتمارس علنا وجهرا.

لكن عزاء الحسين استمر على الرغم من جميع الظروف قائما كل عام في موسمه في شهر محرم الحرام، وإنما تختلف ظروفه من حيث التقلص والاتساع، والقوة والضعف تبعا لمذهب وسياسة السلطات الحاكمة عمليا في البلاد، لذلك وبحكم مبدأ التقية الذي يتبعه الشيعة فإنَهم يستجيبون للظروف السياسية ويتكيفون معها وفقا لهذا المبدأ، لكن العزاء بشكله التراجيدي نما وترعرع في العراق الذي يعد مهد مجالس العزاء الحسيني والسبايا والحزن والألم و النياحة والمواكب الحزينة على الإمام الحسين، بحكم وجود المراقد والأضرحة لشهداء واقعة كربلاء، وسير المواكب الحسينية من مدن ومحافظات العراق إلى مدينة كربلاء في العشر الأولى من أيام وليالي محرم، وفي سائر أيام شهري محرم وصفر، وقد برز ما يسمى "بعزاء طويريج"، وهو من أشهر وأقدم مواكب العزاء في العراق، وقد جاءت تسمية هذا الموكب باسم عزاء طويريج، نسبة إلى المدينة التي ينطلق منها وهي طويريج في قضاء الهندية إحدى أقضية محافظة كربلاء ويبعد عنها عشرين كيلو مترا.

١- د. محمد صالح الجويني، مصدر سابق، ص ٨٧

وأما تحديد تاريخ معين لهذا العزاء فليس واضحاً ، فهناك من يقول إنَّ العزاء أسُس في عهد الشريف الرضي الذي توجه كعادته إلى كربلاء في أيام عاشوراء ووقف على قبر جده الحسين وشاهد الجماهير المحتشدة عند القبر وهي تهتف فهرع اليها مهرولاً وارتجل مقصورته:

كربلا لا زلتِ كرباً وبلا ما لقي عندك آلُ المصطفى

لكن المعروف والمشهور عن تأسيس هذا العزاء، أنّ ثلة كبيرة من أهالي طويريج، كانوا ينظمون عزاء مواساة لإمامهم الشهيد، و يخرجون من مكانهم في الصباح الباكر للعاشر من محرم الحرام، مشيا على الأقدام، ويصلون كربلاء وقت الظهر، وهم ما بين نادبٍ وصارخ، ومُعولٍ وباكٍ، يلطمون على صدورهم، ورؤوسهم، ويصرخون "يا حسين يا حسين"، حتى تطور هذا العزاء ليصبح على شكل هرولة سريعة الجري، واخذ ينضم لهذا الموكب الحسيني (عزاء طويريج) مئات الآلاف من الناس في الوقت الحاضر، ويعود تاريخ هذا العزاء إلى أكثر من مائتي سنة.[1]

كما توجد آراء أخرى تبعد او تقرب تاريخ هذا العزاء، ويذكر الشهرستاني صاحب كتاب " تاريخ النياحة"، أنَ مبدأ هذا العزاء يعود إلى أكثر من ٣٠٠ عام.

ولم يكن هذا الموكب هو الوحيد في العراق فقد كانت مدن الوسط والجنوب تمارس طقوس الحزن والعزاء بشكل متواصل في شهري محرم وصفر من كل عام، إذ كان لكل مدينة موكب أو أثر يحمل اسمها او اسم احد العشائر الكبيرة في المدينة، ينطلق للعزاء في أربعينية الإمام الحسين وظلت هذه العادة متبعة لحد الآن.

وقد أخذ العزاء الحسيني بالنمو والتطور تدريجيا في العراق تبعا للظروف السياسية للجماعة الشيعية، اذ انتعشت مجالس العزاء في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد ان شهدت انحسارا كبيرا أبان الاحتلال العثماني الذي استأنف سياسة المنع ومحاربة العزاء، وكان ذلك بتأثير الصراع الدائر بين الدولتين الكبريتين: العثمانية التركية التي تبنت الإسلام السني، و الصفوية الإيرانية التي اعتنقت الإسلام الشيعي، واستمر الصراع والتنافس بينهما طيلة قرون طويلة، وكان قد قُدّر العراق أن يقع بين دولتين متنافستين، واحدة تدعو إلى مذهب السنة وأخرى تدعو إلى مذهب الشيعة.

١- ينظر: عبد الامير القريشي، تاريخ عزاء طويريج، منشورات العتبة العباسية المقدسة ٢٠١٠، ص ١٥

وكانت أول مسيرة عزاء بعد هذا الانتعاش هو موكب الشيخ محمد باقر أسد الله (المتوفى عام ١٨٤٠ م) في الكاظمية، أما في كربلاء فقد كان آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي (توفي عام ١٨٤٦ م) أول من أقام المواكب الحسينية يوم عاشوراء وعنه أخذت حتى توسعت ووصلت إلى ما هي عليه اليوم.[١]

اما بعد انهيار الحكم العثماني في العراق عام ١٩١٧ فقد اتبع الحكام الجدد (حقبة الحكم الملكي) سياسة التحبيب والترغيب، إذ أخذوا برعاية المواكب الحسينية بصورة خاصة، إلى الحد الذي ان أغلقت الحكومة الانكليزية ملهى ليلياً يقع بالقرب من مرور المواكب الحسينية احتراماً لحرمة عاشوراء، كما حضر الملك فيصل الأول بنفسه مجلس عزاء أقيم باسمه أكثر من مرة .

لكن سياسة الحكم الملكي لم تستمر طويلا اذ سرعان ما انتبهت إلى خطورة بعض الشعائر الدينية، فأقدمت على اتخاذ إجراءات احتياطية بشأنها، ففي عام ١٩٢٨ منعت الحكومة إقامة المواكب الحسينية، غير انها رفعت المنع في العام الموالي، ورجعت إلى ما أقدمت عليه عام ١٩٣٢، فمنعت مواكب الكاظمية من أداء مراسيمها خلال عشرة محرم. غير ان نهاية الستينيات وبداية السبعينيات مثلت نقطة تحول مهمة في تاريخ مراسيم العزاء الحسيني حيث أخذت الاحتفالات بالتطور والازدهار والانتشار بشكل واسع ولافت للنظر، لا سيما عام ١٩٦٨ إذ أظهرت الحكومة العراقية تسامحا مع مراسيم العزاء الحسيني .

وفي بداية السبعينيات وصلت الاحتفالات في شهري محرم وصفر إلى ذروتها، حتى أخذت طابعا شعبيا تسبب في إثارة حفيظة الحكومة ودفعها لاتخاذ إجراءات عدة حاولت من خلالها الالتفاف حول المواكب الحسينية للضغط على القائمين بها وتقييد حركتها ومراقبتها، بل استغلالها.

ومع بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٠، بدأ تاريخ انحسار العزاء الحسيني، اذ تم منع جميع أنواع مراسيم العزاء وفي جميع أنحاء العراق .[٢]

١- ينظر : على الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٢ ، دار الكتاب الاسلامي ، قم ، ايران ، ٢٠٠٥ ، ص ١١٨

٢- ينظر: روبير بندكتي، مصدر سابق، ص ٩٨

وقد تبدو بعيدة عنا في هذا الفصل فكرة الكتابة عن هذه الحقبة التاريخية التي تستحق دراسة مستقلة ومفصلة لما لها من تداخلات عميقة بين السوسيولوجي والسياسي، لذا أرجأها الباحث إلى دراسة قادمة ان شاء الله.

كما لسنا هنا بصدد سرد تاريخي لنمو و تطور العزاء الحسيني بقدر ما نريد تحديد تاريخ العزاء ووصوله إلى ما هو عليه اليوم لان التوقف عند تفاصيل حركة هذا العزاء سيفضي بالبحث إلى متاهات سردية لا متناهية .

المبحث الثاني: التأصيل الفقهي للعزاء الحسيني:

ترجع شرعية العزاء الحسيني إلى أمرين، الأول منهما هو التأسي بالأئمة من ولد الحسين بعد واقعة ألطف و الأمر الثاني هو موقف الفقهاء الشيعة من الظاهرة و تقديمهم النصوص الفقهية التي تؤصل لهذه الظاهرة شرعياً و اجتماعيا، حتى عدها العوام من الناس من الواجبات الفقهية، و في هذا المبحث سنتطرق إلى الأمرين و كيفية تعاطيهما مع هذه الظاهرة .

أولا: التأصيل الروائي:

لا يخفى أنَ هناك كماً هائلاً من الروايات الواردة عن أئمة الشيعة في ثواب العزاء و النواح و ممارسة بقية الشعائر الحسينية المتعلقة بواقعة كربلاء، وبحسب تلك الروايات فإنَ النبي (ص) قد أوصى في روايات عديدة بإقامة المآتم على الإمام الحسين والبكاء عليه، وعُدَّ هذا الأمر من أهم العبادات، وموجبا للتقرب إلى الله عز وجل.

ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح من خلال مراجعة الروايات المنقولة عن الأئمة وفقهاء الدين مثل الروايات الواردة عن الإمام الصادق، والإمام الرضا، وكلمة الإمام السجاد قبل دخول المدينة، وزيارة الناحية المقدسة لصاحب الزمان.

يقول الإمام جعفر الصادق، في رواية منقولة عنه: "كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين" ويقول الإمام علي الرضا: "ان يوم الحسين أقرح جفوننا وأسبل دموعنا وأذل عزيزنا بأرض كرب وبلاء"[1]

كما رويّ عن الإمام الصادق قال: و انه - يعني الإمام الحسين - لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له و يسأل أباه الاستغفار له و يقول أيها الباكي لو علمت ما اعدّ الله لك لفرحت أكثر مما حزنت و انه ليستغفر له من كل ذنب و خطيئة.[2]

١- ينظر: الشيخ مهدي حسينيان القمي، الشرعية الدينية للمآتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، العدد ٨، السنة الثانية، ٢٠٠٧، قم، ايران، ص ١٦٦.

٢- ينظر: حيدر العزاوي، ومضات حسينية،مؤسسة عاشوراء ، قم ، ايران ، ٢٠٠١ ، ص ١٢٧.

و لم تقتصر هذه الروايات على الدعوة للبكاء فقط كما نلاحظ و إنَما هناك استمالة للبكاء مقابل المغفرة و الثواب و هذا ما يجعل البكاء ثميناً جداً عند الشيعة لأنه يجزي عن كثيرٍ من الأعمال الأخرى لديهم، و هناك حديث آخر عن الإمام الصادق أيضا يقول:"قال الحسين بن علي انا قتيل العبرة قتلت مكروباً، و حقيق على الله ان لا يأتيني مكروب الا ردَه الله او اقلبه إلى أهله مسروراً". [١]

و عن محمد بن أبي عمارة الكوفي قال: سمعت جعفر بن محمد يقول:-

"من دمعت عينه فينا دمعة لدم سفك لنا او حق لنا نقصنا او عرض انتهك لنا او لأحد من شيعتنا، بوأه الله تعالى بها في الجنة حقاً.[٢]

و في هذه الأخبار و غيرها دلالات واضحة و صريحة على استحباب البكاء على الحسين كما أنَ هناك أخباراً أخرى تؤكد أنَ النبي (ص) وسائر الأئمة بكوا على الحسين، فالإمام زين العابدين ما قدم له طعام الا بكى، فقال مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك ان تكون من الهالكين.

قال: إنما أشكو بثي و حزني إلى الله، و أعلم من الله ما لا تعلمون، اني لم اذكر مصيبة بني فاطمة الا خنقتني العبرة .[٣]

وقد جاء في الأدبيات الشيعية أنَ النبي (ص) كان قد بكى الحسين قبل استشهاده بأعوام. فكيف للمسلمين ان لا يحزنوا لاستشهاد ابن بنت نبيهم، فيما الرسول بكاه حيا يوم ولادته ـ اي قبل يوم عاشوراء بسنين عديدة ـ فوفقا للأخبار والأحاديث الواردة في كتب الفريقين، ذكر الرسول حادثة الحسين متوجعا في أكثر من موضع، إذ أخرج ابن سعد عن الشعبي قال: " مر عليٌّ بكربلاء عند مسيره إلى صفين، فبكى حتى بل الأرض من دموعه فقال: دخلت على رسول الله (ص) وهو يبكي فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك ؟ قال: كان عندي جبرائيل أنفا، وأخبرني بان ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له كربلاء".[٤]

١- المصدر السابق نفسه، ص ١٣٠.

٢- المصدر نفسه، ص ١٢٧.

٣- المصدر نفسه، ص ١٣٠.

٤- ينظر: الشيخ رضا بابائي، مجلة نصوص معاصرة، العدد ٨، السنة الثانية، ٢٠٠٦، قم، ايران، ص ٤٤

تأسيسا على ذلك ليس موقف الشيعة في البكاء على الحسين وإقامة مجالسه تجسيدا ومنطلقا من صميم الفكر الديني والآيدولوجيا الشيعية فحسب، بل إنَّ معهم رصيدا وافيا من السيرة النبوية وسنة أهل البيت، يمنحهم الدليل على صحة معتقدهم ورجحان عملهم .

لذلك يتأسى الشيعة بنبيهم وأئمتهم فيكثرون من البكاء على الحسين، كما يعتقدون ان بكاءهم على الحسين هو من أجل ان يعقدوا رابطة روحية و عاطفية و نفسية بينهم و بينه لعلها تدفعهم إلى الطريق الصحيح و السعي الحثيث وراء منهاجه و نهجه في الحياة .[1]

ثانياً: التأصيل الفقهي للعزاء

لم يُشبَع أمرٌ مستحبٌ في الشريعة الإسلامية بفتاوى الفقهاء، كما أُشبِعَ العزاءُ على الإمام الحسين، فقد كُتبت البحوث و الدراسات و الفتاوى من أجل استمرار هذه الشعيرة الإسلامية التي يرى الشيعة أنها من الأمور المهمة التي تودي إلى استمرار الدين و ديمومته و مواجهة الظلم و الباطل.

يقول الشيخ المفيد ـ أحد كبار علماء الشيعة و له دور كبير في تدوين المعتقدات الشيعية ـ عن عاشوراء وضرورة إقامة العزاء فيها: يتجدد في هذا اليوم حزن أهل البيت وشيعتهم، وعلى الشيعة الامتناع عن الملذات فيه، كما أوصى بذلك أئمتهم، وأن يقيموا المآتم، ويأكلوا كما يأكل أهل العزاء.[2]

إنَ هناك جملة من الفتاوى الشرعية التي تؤصل لهذا الطقس آرتأى الباحث اختيار بعض منها شواهدَ لتدعيم فكرة الاشتغال الفقهي لتأصيل العزاء بوصفهِ شعيرة دينية، لتقديم دراسة مختصرة عن دلالاتها و توظيفها لهذه الشعيرة، ومن أهم هذه الفتاوى: هي الفتوى الشهيرة لآية الله العظمى الشيخ ميرزا حسين النائيني إلى أهالي البصرة و هو يحرضهم على العزاء، اذ يعتمد كثيرٌ من فقهاء الشيعة على هذه الفتوى التي سيؤسسون عليها أحكامهم الشرعية في جواز العزاء ويعدونها منطلقا مهما لفتاواهم، نورد بعضا مما جاء فيها من دلالات تؤكد على استحباب العزاء:

١- ينظر: هادي المدرسي، الشهيد و الثورة، مطبعة اهل البيت، قم، ايران، ١٩٩٨، ص ٢٦٥.

٢- ينظر: محمد صالح الجويني، مصدر سابق، ص ٨٨.

"خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء و نحوها إلى الطرق و الشوارع مما لا شبهة في جوازه و رجحانه. و كونه أظهر مصاديق ما يقام به عزاء المظلوم و أيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب و بعيد، لكن اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم كما لا يليق بعبادة مثله من غناء او استعمال آلات اللهو، و التدافع في التقدم و التأخر بين أهل محلتين و لو اتفق شيء من ذلك فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرم و لا تسري حرمته إلى الموكب العزائي و يكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة في عدم بطلانها" [١]

تعد هذه الفتوى مفتاحاً شرعياً من الميرزا النائيني للعزاء بوصفه أظهر المصاديق لتبليغ الدعوة و على الرغم من توقعه بسريان بعض الأخطاء و تسربها إلى ظاهرة العزاء إلا أنَ ذلك لا يمنع الجواز، بل يبرر المفتي الشيعي ذلك، اذ يعد العزاء أكبر و أهم من كل الأخطاء التي ترتكب بظله، و في هذا الكلام دلالة واضحة على أهمية العزاء عند الفقهاء الشيعة.

وينتقل الميرزا النائيني إلى نقطة أخرى من الفتوى إذ يقول:" لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود و الصدور حدّ الإحمرار و الإسوداد بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف و الظهور إلى الحد المذكور، بل و ان أدى كل من اللطم و الضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى ".[٢]

هكذا يأخذ العزاء تفاصيله عند الميرزا النائيني حدّ الإدماء و يقع هذا الرأي الفقهي ضمن الآراء التي يعدها البعض متطرفة و سنأتي على ذكرها في بحث لاحقٍ، و تقابلها آراء أخرى أقلّ اندفاعاً و دعوة إلى الإدماء، وإذ كان الخطاب الفقهي الشيعي بهذا الشكل من الدعوة إلى إقامة العزاء فإنَ استمرار هذه الظاهرة سيكون متواصلاً ينبع من هذه الفتاوى، و يتأكد ذلك المعنى حينما ننتقل إلى فتوى أخرى في السياق نفسه، إذ يَعدُّ علماء الشيعة أنَ فتوى النائيني سنداً فقهياً لهم لذلك توالت توقيعاتهم الفقهية على هذا النص الفتوائي، يقول الميرزا الشيرازي ما نصه "ما ذكره الميرزا النائيني في هذه الورقة ـ أشارة إلى فتواه ـ صحيح إن شاء الله تعالى" .[٣]

١- محمد رضا الاعرجي الفحام،مصدر سابق، ص ٣٦٠ .

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

كما ينضم المرجع السيد محسن الحكيم إلى السياق الفتوائي نفسه إذ يقول: "ما سطره أستاذنا الأعظم في نهاية المتانة، و في غاية الوضوح بل هو أوضح من أن يحتاج إلى أن يعضد لتسجيل فتوى الوفاق فالأمل بل اللازم المواظبة على البكاء و الحزن من جميع من يقوم بهذه الشعائر المقدسة" .[١]

كما يؤيد ذلك المرجع السيد أبو القاسم الخوئي عاداً أنَ ذلك يعظم شعائر الدين إذ يقول في فتواه: "ما أفاده شيخنا الأستاذ هو الصحيح و لا بأس بالعمل على طبقه، و نسال الله تعالى ان يوفق جميع إخواننا المؤمنين لتعظيم شعائر الدين" .[٢]

و يؤكد أكثر من هذا المعنى المرجع السيد محمود الشاهرودي اذ يقول في فتواه: "ما حرره شيخنا العلامة - أي النائيني - في هذه الصحيفة، هو الحق المحقق عندنا" .[٣]

و يمكن سرد أسماء الفقهاء الشيعة الذي أمضوا هذه الفتوى تجنباً للتكرار اذ تشترك فتاواهم جميعها في ما ذهب إليه المحقق النائيني و هم :-

١. الشيخ محمد حسن المظفر .
٢. السيد حسين الموسوي ألحمامي .
٣. الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء .
٤. الشيخ محمد كاظم الشيرازي .
٥. السيد جمال الدين الكلبايكاني .

و غيرهم من فقهاء الشيعة .

إنَ ذكرنا لهذا التسلسل من المراجع الشيعة هو لتأكيد التأصيل الفقهي للعزاء، فهذه الظاهرة ليست فقيرة فقهياً وأنما تستند إلى عشرات الفتاوى الفقهية التي تمنحها الشرعية و تجعلها قابلة للبقاء و التواصل، إذ لم يكن النص الفقهي السابق للشيخ النائيني وما تبعه من آراء فقهية لمراجع الشيعة وحيداً في هذا المجال إذ أنَ هناك العديد من النصوص التي شرعنت العزاء وأصلّت بقاءه، منها ما كتبه المصلح العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه "الآيات البينات" اذ يقول "الجزع و البكاء في المصائب مهما عظمت قبيح مكروه.

١- المصدر نفسه ، ص ٣٦٦ .
٢- المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ .
٣- المصدر نفسه.

شق الجيوب على الفقيد، و خمش الوجوه محرم في الأشهر ولكن صادق أهل البيت (أي الإمام جعفر الصادق) في حديث وثيق يقول "على مثل الحسين فلتشق الجيوب و لتخمش الوجوه و لتلطم الخدود" .[١]

و يستند أغلب هؤلاء الفقهاء إلى سير و أحاديث واردة عن أئمة أهل البيت بتحبيذ هذا النوع من الشعائر و الطقوس، إذ يروي الشيخ كاشف الغطاء و هو من اكبر علماء الشيعة في النجف "أن الإمام الحجة الغائب يقول في زيارة الناحية: فلأندبّنك صباحاً و مساءً و لأبكينّ لك بدل الدموع دماً، و قد سبقه إلى ذلك جده زين العابدين ففي بعض روايات العلامة المجلسي على ما يعلق ببالي من زمن متقادم (والكلام للشيخ كاشف الغطاء)، أنَّ زين العابدين كان أحياناً اذا قدم اليه قدح فيه ماء بكى حتى يملأه دماً و على هذه الوتيرة فاسحب و جر سائر الأعمال التي يؤتى بها بقصد الحزن و التوجع لفاجعة الطف" .[٢]

و تستمر شرعيّة هذه الشعائر و الطقوس في كل العصور المتأخرة للمرجعية الدينية لعلماء الشيعة، إذ لا مجال لذكرها جميعها بل نكتفي ببعض الإشارات ذات الدلالة على موضوع البحث، فالمرجع الشيعي السيد عبد الأعلى السبزواري يشرعن العزاء بهذه الفتوى:" إنَّ من أهم وسائل النجاة و أوثق أسباب التوسل إقامة الشعائر الحسينية و تعظيمها و إدامتها فإنّها من شعائر الله جلّت عظمته ".[٣]

أما المرجع السيد محمد صادق الروحاني فهو يرى أبعد من أسلافه الفقهاء اذ يعتقد بالوجوب الكفائي لهذه الشعائر فيقول في فتواه:

"إقامة الشعائر بشتى أنحائها من أفضل القربات الإلهية و الوسائل المطلوبة إلى الفوز العظيم بل هي من الواجبات الكفائية .. ".[٤]

ولو أجرينا قراءة سريعة لمجمل الخطاب الفقهي الذي إشاعته هذه الفتاوى الدينية و غيرها مما لم نذكره تلافياً للاطالة و الخروج عن جوهر البحث، لوجدنا أنّ العامل المشترك بين كل هذه الخطابات هو الاستحباب القريب إلى الوجوب لإقامة هذه الشعائر و الطقوس.

١- المصدر السابق نفسه، ص ٣٦٦ .
٢- المصدر نفسه.
٣- ينظر: المصدر السابق نفسه، ص ٣٦٨.
٤- المصدر نفسه.

و هذا ما يجعل المسلمين الشيعة في تواصل دائم لإقامة مثل هذه الشعائر التي تسربت إلى عقائدهم عن طريق هذه الفتاوى المتكئة على سير و أقوال و أحاديث الأئمة الإثني عشر، إنّ الحوزة العلمية تشجع على هذه الطقوس لأنها جزء من الثقافة والهوية الشيعية، لذلك يجمع فقهاء الشيعة على مساندة الشعائر الحسينية بسلسلة من الأحاديث والفتاوى التي تحث عامة الناس على القيام بممارستها، كما تعطل الحوزة العلمية دراستها في أيام العزاء وخاصة في شهر محرم لغرض إتاحة الفرصة للطلبة للقيام بدور إقامة العزاء وقراءة المجالس الحسينية والوعظ والإرشاد في الحسينيات والمساجد وأماكن العزاء الأخرى.[١]

إنّ إقامة العزاء والبكاء على الحسين قضية جوهرية نابعة من صميم الإسلام عند فقهاء الشيعة، ومع أن هذه السنة المعنوية الروحية ممّا اشُتهر به الشيعة، الا أن أدلتها لم تقتصر على مذهب خاص، إذ يمكن الإستدلال عليها بجملة من الفتاوى والنصوص المأثورة عن مختلف المذاهب الإسلامية.[٢]

وقد تطرقنا هنا للأحاديث والروايات والفتاوى والأخبار الدالة على صحة إقامة العزاء الحسيني المثبتة في كتب الشيعة فقط .

١- ينظر: خالد حنتوش، مصدر سابق، ص ٩١.

٢- ينظر: الشيخ رضا بابائي، مصدر سابق، ص٣٥.

المبحث الثالث: صور من العزاء الحسيني

لم يتخذ العزاء الحسيني طابعاً جنائزياً جامداً في ممارسة طقوسه و إنما تجاوز ذلك إلى صور و أشكال أخذ منها طابعاً خاصاً به، اذ لم يتسم طقس في الاديان بهذا التنوع والثراء في أشكال وصور الطقس والعزاء. وقد ولدت مراسيم العزاء الحسيني ظاهرة شعبية تدعى "المشّاية"، وهي ظاهرة قائمة بذاتها كانت قد تشكلت تاريخيا وبتساوق مع المعطيات والمؤثرات الدينية والاجتماعية - السياسية، سنأتي على دراستها من داخلها وبشكل مفصل بعد ان نتعرف على أشكال وصور أخرى للعزاء لها علاقة كبيرة في تشكيل ظاهرة البحث "المشّاية" لما لها من تداخل عضوي معها.
و لكي نقف على صور و أشكال العزاء الحسيني لابد من توضيح أهم صور العزاء الحسيني ومصاديقه المتعارفة عند المسلمين الشيعة، وهي:

اولاً: التعزية أو مجالس العزاء:-

تجمع كتب الحديث على أنَّ الشيعة الأوائل كانوا يجتمعون في شهر محرم من كل عام في بيت من بيوت الأئمة من آل البيت او في بيت واحد من أنصارهم فيقيمون النياحة، وذلك طبقا للعادة العربية القديمة، إذ كانت النائحات المحترفات يقمن مراسم البكاء على الموتى. أما التداول الإصطلاحي لهذه المفردة بمعنى نائح الرثاء الحسيني فقد ظهر في القرن الثالث الهجري (القرن ٩ م) .[1]
ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مجالس التعزية الحسينية تقام نتيجة تجمع عدد من الأفراد و الجماعات الشيعية في مكان معين و زمان خاص في العاشر من محرم الحرام، وبالأحرى في العشر الأوائل من هذا الشهر، إذ يتجمع المعزون في ساحة مسجد او حسينية او قاعة عامة او أحد بيوت الناس ليقيموا العزاء على استشهاد الإمام الحسين في كربلاء. و في مثل هذه المجالس يقوم خطيب او قارئ بقراءة قصة من قصص واقعة كربلاء تتوزع بين الأيام العشر الأولى من شهر محرم، اذ تقسم الليالي و الأيام بين شهداء هذه الواقعة حيث يكون اليوم الأول مخصصاً لاستشهاد أنصار الحسين

١- ينظر: روبير بندكتي، مصدر سابق، ١٠٦

وخاصة عن الحر الرياحي و حبيب بن مظاهر الأسدي و غيرهم، حتى اليوم الخامس الذي يُخصّص لقصة استشهاد مسلم بن عقيل، في حين يخصص اليوم السادس لقصة استشهاد علي الأكبر، واليوم السابع لقصة استشهاد العباس بن علي، واليوم الثامن لقصة استشهاد القاسم بن الحسن، والتاسع لقصة مقتل الإمام الحسين و طفله عبد الله الرضيع الذي أصابه حرملة بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، كما في الروايات، أما اليوم العاشر و هو يوم عاشوراء فيخصص لقراءة مقتل الإمام الحسين و أهل بيته و صحبته و حرق خيامه و سبي النساء و الأطفال.[1]

الذي ساهم في تشكل مجالس العزاء في الوعي الجمعي هو الأدبيات الشيعية التي تؤصلها الأحاديث و السير لأئمة أهل البيت، بالإضافة إلى الإمضاءات الفقهية من قبل فقهاء الشيعة على مر العصور التي تمثلت بكم هائل من الفتاوى الدينية التي تؤكد جميعها على استحباب العزاء القريب من الوجوب أحياناً كما ذكرنا سابقاً، و لم تقف هذه الدعوة عند مظاهر العزاء الحقيقي النابعة من القلب و الوجدان بل تعدت ذلك كثيراً، اذ يعد علماء الشيعة استنادا ً إلى روايات عن أهل البيت أنّ المتباكي و المتظاهر بالبكاء يُحسب من المعزين و تشمله الرحمة الإلهية و ثوابها فقد نقل العلامة المجلسي عن ابن طاووس انه روى عن آل الرسول (ص) أنهم قالوا: "من بكى وأبكى فينا مائة فله الجنة ومن بكى و أبكى واحدا ً فله الجنة، ومن تباكى فله الجنة" .[2]

و تعد هذه الدعوة إلى التظاهر بالبكاء دعوة لتشجيع هذه الظاهرة و ديمومتها بقصد إبقاء العزاء ظاهرةً متواصلةً و دائمة و حقيقية، إذ يعتمد عليها خطباء المنبر الحسيني بشكل كبير لتوظيف البعد العاطفي عند الشيعة، وقد تطورت النياحة ومجالس التعزية إلى قراءة مقتل الحسين لابن نما، ثم لابن طاووس، وهي أولى كتب المقاتل التي تتحدث عن المآسي الدامية التي حدثت في معركة الطف في كربلاء، ومن ذلك الحين أُطلق على الذين ينوحون على الحسين بالقرّاء، وما يزال القرّاء حتى اليوم يعرفون بقرّاء المجالس الحسينية، وقد شهدت قراءة المقتل تطوراً واسعاً إذ تحول إلى فرع من فروع الفنون التمثيلية يدرسه القرّاء في الحوزات العلمية.

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٩٧ .

٢- الميرزا حامد حسن النواب، الشعائر الحسينية ... كيف و لماذا؟، دار العلوم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص٧٧.

وقد اعتمد قرّاء المجالس الحسينية على تراث هائل ومتواصل من الأدب والشعر الغزير في رثاء الحسين، شعر من خصائصه أنه مملوء بالعواطف، ملتهب الوجدان، سُمّيَ بأدب المقاتل،ومن أشهر تلك الكتب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني.
وتقام المجالس الحسينية في المساجد في الحسينيات في البيوت الخاصة .[1]

ثانياً: اللطم:-

من المظاهر المهمة للعزاء الحسيني هي ظاهرة اللطم على الصدور و الأبدان، و اللطم نوع من أنواع و أقسام العزاء الذي يلهب النفوس و يزرع فيها الحماس الكبير وهو شائع و متعارف بين الرجال و النساء و تشترك فيه كل الفئات العمرية سواء أكانت كهولاً أم شبابا من الرجال والنساء بل حتى الأطفال، إنَّ هذه الشعيرة تشكل جزءا لا يتجزأ من المسيرة الحسينية، فالمواكب على اختلاف أنماطها تضم فرقا من اللطمية، كذلك يجري أداء شعيرة اللطم قبل مجلس العزاء وبعده، إذ يوجد إسلوبان لشعيرة اللطم، وهما الإسلوب التقليدي، إذ يتمثل بخروج جوقات من اللطامة مشيا على الأقدام بطريقة منتظمة على إيقاع أبيات من الشعر الفصيح/ الشعبي تسمى "الردات الحسينية"، وخلال مسيرتها تقوم كل مجموعة بترديد "ردة" ابتداء من المجموعة الأولى حتى المجموعة الأخيرة من الموكب وهم يلطمون صدورهم بأيديهم اليمنى على الإيقاع نفسه يرددون اللحن نفسه والأداء كذلك الأبيات الشعرية، ثم ينضمون إلى مجلس العزاء، اذ يرحب بهم الخطيب قارئ التعزية فرادى وجماعات، وينطبع هذا الأسلوب بالهدوء واللطف، وتجدر الإشارة إلى أنّ أعضاء فرق اللطمية أنفسهم يمارسون هذا الأسلوب في أثناء المسيرة الحسينية، أما الأسلوب الآخر فيكون وقته بعد انتهاء المجلس، اذ يقوم الرادود الحسيني بآرتقاء المنبر واقفا لينشد لطميته تحت إيقاع ضربات الصدور المنتظمة للمحتشدين اللطامة الذين يشكلون حلقات بيضاوية الشكل ينحنون فيها إلى الإمام، ثم يستقيمون ويضربون صدورهم العارية بكلتا اليدين وبقوة شديدة تصل حدَّ الإدماء وهم يرددون اللطمية "الردة" نفسها، ويتكون موكب اللطامة من مجموعة أو مجموعات عدة من الرجال أو النساء تقوم بلطم صدورها بالأيدي، وهو طقس ديني ـ شعبي مواساة للإمام

١- ينظر: روبير بندكتي، مصدر سابق، ص ١٠٦

الحسين وأهل بيتهِ في مأساتهم الدامية في كربلاء، وتعد مواكب اللطم من أكثر المواكب انتشارا وشعبية في العراق، لأنّ اللطم على الصدور هو أقلُّ إيذاء وضرراً من الضرب بالسلاسل الحديدية أو التطبير بالقامات، ومن المعتاد أن تنطلق مواكب اللطم مساء كل يوم خلال الأيام العشرة الأولى من شهر محرم في مجموعات صغيرة تدعى "جوكات" مكوّنةً مسيرة شعبية منظمة تسير بخطوات ايقاعية.[١]

تكون الأشعار أو "الردّات" مكرّسة لشهداء الطف بحسب تسلسلهم الزمني الذي منحهم إياه المجتمع الشيعي، فكل ليلة مكرسة لشخصية من هذه الشخصيات، حتى يصل الأمر ذروته في ليلةِ العاشر من محرم وهي ليلة الحسين كما يسمونها، تضم فرق اللطامة جميع الأعمار من (٥ سنوات إلى اعلى فئة عمرية من الموجودين) وتتبع فيه الأسر الشيعية مع أطفالها أسلوب التنشئة على اللطم، اذ يتبارى الاباء والامهات في اصطحاب اطفالهم من كلا الجنسين إلى مواكب اللطم لغرض تدريبهم على أداء هذه الشعيرة، يأخذ الشيعة جواز اللطم و استحبابه في مصاب الحسين من الروايات التاريخية عن واقعة كربلاء التي يذكر فيها ان الفاطميات في يوم عاشوراء قد فعلن ذلك حزناً على شهداء الطف، كما في الرواية التي ينقلها الشيخ الطوسي بإسناد عن خالد بن سدير عن الإمام الصادق انه قال: "و لقد شققن الجيوب و لطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي و على مثله تلطم الخدود و تشق الجيوب".[٢]

و من الروايات الأخرى التي يستند اليها علماء الشيعة في حلية اللطم وجوازه، ما رواه الشيخ الصدوق أنَّ دعبلاً الخزاعي الشاعر قرأ قصيدته عند الإمام الرضا فلما انتهى إلى هذا المقطع:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً و قد مات عطشاناً بشط فراتِ

إذن للطمت الخّد فاطم عنده و أجريتِ دمع العين في الوجناتِ

لطمت النساء وجوههن و علا الصراخ من وراء الستر و بكى الإمام الرضا حتى أغُمّي عليه مرتين .[٣]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ١٠٥

٢- ينظر: الشيخ الطوسي، تهذيب الاحكام، ج ٨، ص٣٢٥.

٣- ينظر: الميرزا حامد حسن النواب، مصدر سابق، ص ١٢٨ .

و لا يعتقد الشيعة أنّ بكاء الإمام الرضا و هو من ولد الحسين هو بكاء قرابي أو عاطفي، و إنما يُعدُّ عندهم أنّ فعل المعصوم حجة عليهم، لهم فيه أسوة حسنة.

وقد ذكر بعض علماء الشيعة أنّ هذه الروايات التي تبين لطم الفاطميات و ضربهن خدودهن و شق جيوبهن لا تنسجم مع التعاليم الإسلامية و وصايا أهل البيت في حرمة هذه الأفعال من عامة المسلمين، إذ تذكر الزيارة المسماة بزيارة الناحية ما يأتي: "برزن من الخدور، ناشرات الشعور على الخدود لاطمات و الوجوه سافرات و بالعويل داعيات".[١]

و كلنا يَعلم أنّ هذه الأفعال تعبّر عن الجزع و الاعتراض على حكم الله تعالى، كما تنافى الحشمة والتستر، وكل هذا جاء في وصايا الإمام الحسين لأسرته في واقعة الطف، كما جاء في التعاليم الإسلامية و أدبياتها، حيث إنَ الظاهرة الأولى لقوله ناشرات الشعور كونهن كذلك أمام الرجال و الأجانب في المعسكر المعادي و هو مما لاشك في حرمته في الشريعة الاسلامية، فيكون ذكره من نسبة المحرم إلى نساء الحسين لذلك يجيب عن هذا الاعتراض علماء الشيعة: أما ضعف هذه الرواية سنداً بحيث لا تقوم دليلاً معتبراً على أي شيء فيها فينتفي الأمر من أصله.

و أما الوجه الثاني فلو تنزّلنا و فرضناها معجزة فالدليل يكون معتبراً في حدود ما يمكن تصديقه و الأخذ به من المعاني و الأفكار، و أما ما لا يمكن فيه ذلك فلا يكون الدليل معتبراً أو حجة فيه، وهناك وجه أخر هو تأويل الرواية بأنّ نساء الحسين ناشرات الشعور حداداً على هذا المصاب الجلل و حزناً و إظهاراً لزيادة المصاب، وليس في الأمر ولا في الرواية بالمرة أنهنّ كنّ ناشرات الشعور أمام الرجال الأجانب، بل كن كذلك في مجتمعهن الخاص، أي النساء أمام بعضهن البعض .[٢]

من هذه الأحاديث و غيرها من سير و مشاهد و روايات تأخذ قضية اللطم طابعاً دينياً و اجتماعياً و سياسياً، إذ يُعدُّ اللطم من أهم الطرق الاعتراضية على الحكومات الظالمة و الجائرة، ويتخذه الشيعة على مر العصور رمزاً مهماً من رموز الاعتراض و التحدي.

١- ينظر: محمد محمد صادق الصدر، اضواء على الثورة الحسينية، انتشارات الشريف الرضي ، قم ، ايران ، ص ١٥٢

٢- ينظر: المصدر السابق نفسه، ص ١٥٤.

ثالثاً: التشابيه أو "المسرح الحسيني":-

ولّدت مراسيم العزاء الحسيني ظاهرة مسرحية شعبية تدعى "التشابيه" او "الشبيه"، وهي ظاهرة مسرحية قائمة بذاتها كانت قد تشكلت تاريخيا بتساوق مع المعطيات والمؤثرات الدينية والاجتماعية ـ السياسية ومن دون مؤثرات المسرح الكلاسيكي أوالحديث، وبحسب رأي الباحث الاجتماعي الدكتور إبراهيم الحيدري:- "يعود تاريخ هذا المسرح والطريقة التي نشأ فيها وتطور، إلى قيام أحد الخطباء او الشعراء او إي شخص آخر بأداء دور بسيط يشرح فيه شيئا من إحداث يوم عاشوراء ليكوّن مشهدا يسيراً صامتا يُعبّر فيه عن احزانه بحركات وإيماءات محددة، كأن يحمل سيفا ويلوّح به في الفضاء، وربما حدث تبادل في الأدوار بين المنشد والمستمعين وكذلك ردود فعل ظهرت في أصواتهم وحركاتهم ممّا شجع على تكرار ذلك المشهد مرة أخرى وسنة بعد أخرى لأنه أثار عواطف المشاهدين وحماسهم، لأنه يبرز الآلام العميقة التي حلت بالإمام الحسين وأهل بيته وصحبهِ. [1]

وتمثل التعزية او التشبيه الظاهرة المسرحية الوحيدة في الثقافة الإسلامية، اذ يستلهم الإخراج المسرحي حبكة الأحداث ذات المغزى الديني التي وردت في كتب المقاتل، مع العلم أنّ تصميم السيناريو متروك للمخرج أو لجنة الإشراف على الاحتفالات .[2]

إنّ استعادة هذه المشاهد تهدف إلى إحضار السياق التاريخي للحادثة وإبراز تصميم الحسين على المضي قدما في تحقيق رسالته، اذ يستعرض الممثلون على خشبة مسرح الطف المراحل الرئيسة لمأساة كربلاء، متقمصين أدوارهم عن طريق محاكاتها للوقائع التاريخية واندماجهم فيها روحيا ووجدانيا، معتمدين على الخيال الشعبي لتلك الوقائع وتأثيرها العاطفي في المشاهدين، إذ يهدف هذا المسرح الشعبي الشعائري إلى مساعدة هؤلاء المشاهدين على أن يعيشوا خبرة روحية حقيقية وهم يتفرجون على مشاهد الحدث التأسيسي، و من ثمَّ ان هذا المسرح لا يعرض لنا تسلسلا تاريخيا بقدر ما يعرض لنا أحداثا تاريخية محددة معروفة ومتداولة بين الناس.

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٣٩٧

٢- ينظر: روبير بندكتي، مصدر سابق، ص ١١٧

وقد سمعها الكل أكثر من مرة من كتب التاريخ الإسلامي أو كتب المقاتل أو من قرّاء المجالس الحسينية وعُرفت تفاصيلها وحُفظت بعض مقاطعها عن ظهر قلب لكنّ المهم أنّ هذا المسرح "التشابيه" يعرض تلك الإحداث على شكل مبادئ ورموز وقيم ويجسدها تجسيدا حسيا.

وقد تطور "التشبيه" في الوقت الحاضر في مادته وخصوصياته وآفاقه ليكوّن محاولات جريئة لخلق مسرح شعبي متطور يثير أفكارا وأساليب وصراعا ويضيف إلى المسرح الحديث خبرات وتجارب عملية وعفوية جديدة، ومع تطور "التشبيه" وانتشاره فإنه مازال يحتفظ بكثير من خصائصه الموروثة ونكهته الشعبية وإبعاده التاريخية والفولكلورية، ومن خصائص مسرح عاشوراء ـ بوصفه ظاهرةً مسرحية ذات ملامح عربية ـ إسلامية، أنّه مسرح هواة وليس مسرح محترفين، يعتمد على مهارات شعبية وفطرية، تطرح بشكل عفوي وليس مكتسبا او عن طريق معرفة أكاديمية منظمة، بالإضافة إلى كونه مسرحا شعائريا، دراميا تراجيدياً يُعرض بشكل ملحمي، يستمد محتوياته من كتب المقاتل التي وصفت وشرحت أول تراجيديا دامية عرفها التاريخ الإسلامي، كذلك من خصائصه أنه مسرح حياة أكثر منه مسرح لغة وتخاطب يتعايش فيه الجمهور المشاهد مع الحدث المأساوي، ويشارك مع الممثلين، وينفعل معهم انفعالا شديدا إلى درجة البكاء والنحيب وانهمار الدموع الحارة، بل وأكثر من ذلك، إذ يأخذ البعض بالضرب على صدورهم أو رؤوسهم أو جباههم وهم يصرخون " ياحسين .. يامظلوم" [1]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٤٠٢

رابعاً: التطبير:-

التطبير هو جرح الرؤوس الحليقة بالسكاكين بضربات ليست عميقة، وهو طقس شعبي يعّبر بحسب رأي من يقومون به، عن المشاركة في إيذاء النفس والجسد مواساة للإمام الحسين الذي قتل مثخنا بالجراح في معركة الطف بكربلاء .[١]

تخرج مواكب التطبير في الشوارع صبيحة يوم العاشر من محرم قبل شروق الشمس، على شكل مجموعة او عدة مجموعات من المطبرين بمختلف الفئات العمرية، لأنهم عادة ما يصطحبون أطفالهم معهم لتربيتهم على أداء هذه الشعيرة وهم صغار، حليقو الرؤوس، مرتدون الأكفان التي تتلطخ بالدماء، ويسيرون بشكل بيضوي منظم على إيقاع لحن موسيقي جنائزي، أشبه بالموسيقى العسكرية الحزينة، تعزف إيقاعها آلات هوائية تقليدية والطبول والأبواق الطويلة والصنجات، وهم يهتفون "حيدر ..... حيدر" لتتصاعد الإيقاعات وترتفع ضربات الرؤوس بوتائر سريعة حتى تصل ذروتها، فتسيل الدماء بشكل منهمر.

إنّ طقوس التطبير بالسيوف (القامات) و الضرب بالسلاسل الحديدية (الزناجيل) كانت معروفة في بداية هذا القرن، وإنّ أصولها ليست عربية كما يذكر ذلك الباحث الدكتور إبراهيم الحيدري في كتابه "تراجيديا كربلاء". و ما يؤيد قوله هذا، ما ذكره الشيخ كاظم الدجيلي أنّ العرب لم يكونوا يشاركون في مثل هذه الطقوس حتى بداية هذا القرن، وأنّها كانت تقتصر أساساً على التركمان و الدراويش و كذلك على إيرانيين و أكراد من جبال بشتكوه.[٢]

و هذا ما يؤكده أحد علماء النجف المعاصرين، إذ يقول: "أتذكر عندما كنت في النجف و أنا الآن على أبواب السبعين أنه قبل خمسين او ستين سنة كان هناك موكب الشرك فقط، و كما أتذكر كانوا يذهبون إلى بيت السيد بحر العلوم الكبير و يطلبون من شيبة العلم ان يقرأ أحدهم أبياتاً شعرية مؤثرة في الإمام الحسين و كان بعضهم يجرح نفسه جرحاً خفيفاً مواساة للإمام الحسين ثم تطور و توسع، ولكنه لم يتوسع بالقدر الذي حصل بعد منع حكومة ياسين الهاشمي للتطبير سنة(١٩٣٥) وردة فعل عليه حيث تطورت و أصبحت ثلاثة مواكب".[٣]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، المصدر السابق نفسه، ص ٤٠٢.
٢- ينظر: الحيدري، المصدر السابق نفسه، ص ٤٥٦.
٣- ينظر: حوار مع السيد محمد بحر العلوم، مجلة النور، لندن، ١٩٩٧، العدد ٧٤

فممارسة التطبير بالسيوف قد نشأت منذ نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين في حين نشأت ممارسة الضرب بالسلاسل الحديدية في العراق بعد الحرب العالمية الأولى، ومن الملاحظ أنّ توسع التطبير كان قد حصل بعد عمليات المنع بنوعيه، السياسي والديني، إذ إنّ شعيرة التطبير انتعشت بشكلها الحالي بعد قيام المرشد الايراني السيد علي خامئني بتحريمه والعقاب عليه مؤخراً في المدن الإيرانية، مما جعل بعض المخالفين لهذا الرأي يشجعون التطبير في بلدان أخرى كردة فعلٍ على ما قام به السيد الخامئني كما يجيء في المبحث اللاحق.

كما وجد الباحث رواية ترّجع التطبير إلى جذور تاريخية أبعد من الروايات التي بين أيدينا التي سبق ذكرها وهي رواية صعصعة بن صوحان العبدي، وهو أحد أصحاب الإمام علي بن أبي طالب، مضمونها أنّ - صعصعة - كوّن جيشاً من أبناء البحرين متوجهاً لكربلاء لنصرة الحسين، وعندما وصلوا كربلاء كانت المعركة قد انتهت، فأخرج جنود الجيش سيوفهم وأدموا رؤوسهم، ونص الرواية "عندما عزم الإمام الحسين (عليه السلام) التوجه للكوفة بعد ما أتته كتب أهلها يدعونه أن أقدم...،

أرسل إلى شيعته في اليمن والبحرين وجبل عامل، يطلب منهم الالتحاق به في العراق، وقد تحرك جيش من البحرين بقيادة صعصعة بن صوحان العبدي متوجهاً إلى العراق ومرّ بالبصرة في طريقه إلى الكوفة فالتحقت به جماعة كبيرة، أخبرهم أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) قد توجه إلى كربلاء ولما وصل الجيش البحراني البصراوي كربلاء سمع منادياً من عشيرة بني أسد ينادي قُتل الحسين وصحبه، فسألوا عن قبر الحسين عليه السلام فقيل لهم هذا، فانكبوا على تراب القبر يبكون ويضربون بأيديهم على رؤوسهم وصدورهم حزناً وحسرة على استشهاد الحسين (عليه السلام) ثم رفعوا سيوفهم من أغمادها وضربوا رؤوسهم بالسيوف حتى سالت دماؤهم واختلطت بتراب قبر الحسين عليه السلام، وكانت هذه الحادثة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام بتسعة أيام". [1]

١- ينظر: محب الدين الطبري الشافعي، لم تكن ردة، دار الفارابي، لبنان، ١٩٩٥ص.٢٧٢.

وقد يتزامن تاريخ هذه الرواية مع ما يتناقله الخطباء من دعاة التطبير من أنّ السيدة زينب أخت الإمام الحسين، حينما أخُذت مع السبايا بعد مصرع أهل بيتها في معركة الطف، قد ضربت رأسها في محمل الناقة فُشجَّ من اثر الضربة وسال دمها.

وفي هذا الفعل دلالة على جواز التطبير وإدماء الرأس أسوة ببطلة كربلاء، لكنّ هذه الرواية لا تنسجم مع التصرفات والمواقف البطولية للسيدة زينب في أرض المعركة حينما خرجت تتخطى جثث القتلى لتصل إلى جسد الإمام الحسين وترفعه إلى الأعلى وتقول "اللهم تقبل منا هذا القربان".

فليس من المعقول أنّ يصل الحزن بمثل هذه الشخصية القوية إلى حد الجزع والانكسار، ولا سيما أنّها تسلمت قيادة معسكر الحسين بعد مصرعه.

لكنّ هذه الرواية وسابقتها تعودان بالتطبير إلى تاريخ بعيد يؤسّس بعض العلماء ودعاة التطبير رؤيتهم على أساسه فيجوزون هذا الفعل الذي استهجنه غيرهم.

وقد توسعت مراسيم التطبير في الوقت الحاضر لتشمل العشر الأول من شهر محرم الحرام وليلة الأربعين وغيرها من مناسبات وفيات الائمة بعد أن كانت مقتصرة على صبيحة العاشر من محرم.

المبحث الرابع:العزاء الحسيني ... آراء واتجاهات معاصرة.

على الرغم من الاتفاق الأولي بين العلماء الشيعة على إحياء العزاء الحسيني إلا أنّ التفاصيل سجلت اختلافاً وجدلاً كبيراً بينهم .

ففريق منهم ينظر إلى الثورة الحسينية بعيداً عن الجانب التراجيدي الذي تفتقت عنه أساليب النواح واللطم و التطبير و العزاء بشكله العام و صوره المختلفة، في حين يرى الفريق الآخر انّ هذه الأساليب كفيلة بإبقاء جذوة الثورة متقدة ووهاجة على مر العصور، لذلك يجب إحياء الفاجعة بهذه الأساليب و الطقوس و الشعائر و قد وصل الجدل بين الفريقين إلى حد التكفير و المؤاخذات المذهبية المتطرفة في إحكامها الجاهزة ممّا جعل عامة الناس في تخبط و حيرة شديدين تصل أحياناً إلى الفرقة و الخلافات التي تؤدي إلى القطيعة و التكفير.

ومن المؤكد أنّ كلا الفريقين يتكئان على روايات تشرعن هذين المنطلقين لرؤية إحياء الثورة و الفاجعة الحسينية، فالفريق الأول الذي ينطلق من رؤى حداثوية تنسجم مع متطلبات العصر و التغيرات التي طرأت عليه، لذلك يجد بعض من علماء الشيعة أنّ تحديث الموروث الديني للشعائر والطقوس الحسينية و إضفاء روح الحداثة و المعاصرة عليه من واجبات رجل الدين الذي يؤصل للمجتمع عاداته و تقاليده و طقوسه و شعائره بطريقة تنسجم مع الواقع المعاصر إذ يقول أصحاب الاتجاه الأول:

إنّ العاطفة لابدّ أن تبقى في عاشوراء لأننا اذا فرغنا القضية من العاطفة فإنها تموت و لكن لابد ان نعقل العاطفة أيضا و نجعل فكرنا مع قارئ التعزية، فليس المهم فقط أن يُبكي و يكون صوته حنوناً و لطيفاً فقد ينقل لنا أشياء خيالية لا تصدق و قد ينقل أشياء غير متوازية .[1]

فالعاطفة إذن من النقاط المتفق عليها في إحياء هذه الشعائر و الطقوس لأنها تسهم في ديمومة الواقعة و إضفاء البعد الأسطوري التراجيدي عليها و هذا ما يجعلها مداراً للتفاعل و الرجوع من المجتمع و يعدُّها علماء الشيعة من الخصوصيات الذاتية للذكرى، لأنّ مضمون عاشوراء بطبيعته مأساوي حزين، و العاطفة تتيح للذكرى الاستمرار في الحياة من خلال تأثيرها في الشعور الإنساني ممّا يؤصل علاقة عاطفية للناس بأصحاب الذكرى،

١- ينظر: محمد حسين فضل الله، حديث عاشوراء، دار الملاك،بيروت، لبنان، ص ١٣٣ .

لأنّ تفريغ عاشوراء برأيهم من العاطفة و الاكتفاء بالمضمون الفكري لها يجعل القضية جامدة جافة في الوعي الإنساني ككل القضايا التاريخية المتصلة بالصراع بين الحق و الباطل التي يتجاوزها الزمن .[١]

إذن جانب العاطفة مهم لدى أصحاب الرأيين في إحياء مراسم عاشوراء، لكنهم يختلفون في الآليات التي يتبعها المجتمع في إحياء ذكرى عاشوراء، و لا سيما في قضية التطبير و ما رافقها من جدل و اختلاف شديدين بين علماء الشيعة، فهناك من يحرّم التطبير و يّعده من الأمور الدخيلة على الشعائر و إحيائها من قبل الشعوب و المجتمعات الأخرى. [٢]

إنّ هذا الرأي يؤكد أنّ التطبير دخيل على الشعائر الحسينية من وجهة نظر هؤلاء العلماء و هذا ما دفع الشيخ محمد الخالصي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي إلى نبذ البدع و الخرافات و إعادة الإسلام إلى نهجه الصحيح، و أشار في خطبه إلى أنّ كثيراً من العادات و التقاليد و الطقوس التي يقوم بها البعض هي "بدع" لا ترتبط بأسس العقيدة الإسلامية مثل التشابيه و التطبير بالسيوف و ضرب الزناجيل، وقد أثارت أقواله و خطبه التي كان يلقيها في صلاة الجمعة غضب كثير من رجال الدين وخطباء المجالس الحسينية و رؤساء المواكب و غيرهم، وعدوا دعوته باطلة، وقد نتجت عن تلك الخلافات صراعات حادة و معارك شديدة بين المؤيدين لأرائه والمعارضين لها .[٣]

و هذا ما دعا عالم الاجتماع العراقي المعروف علي الوردي إلى انتقاد هذه الطقوس و المراسيم التي تقام في عاشوراء عاداً إياها وسائل للتعذيب الجسدي بالقامات و السلاسل الحديدية.[٤]

١- ينظر: محمد حسين فضل الله، نظرة اسلامية حول عاشوراء، دار الملاك، بيروت، لبنان، ص ٢٩- ٣١ .
٢- ينظر: محمود الغريفي ، الشعائر الحسينية ، مكتبة الفجر الجديد ، المنامة ، البحرين ، ١٩٩٤ ، ص ٨٤.
٣- ينظر: الحيدري، مصدر سابق، ص ٤٥٧ .
٤- ينظر: علي الوردي، وعاظ السلاطين، بغداد، ١٩٥٤، ص ٣٥٤.

وقد سرت عدوى المعركة إلى حدّ الآن بين الطرفين، ففي مطلع كل عام من السنة الهجرية و في أول أيام عاشوراء تثار هذه الخلافات بين العامة من المجتمع لتصل إلى استفتاءات لعلماء الدين الشيعة و مفكريها تحّدد الإطار الشرعي من الشعائر و الطقوس، و قد وجد الباحث أن من المناسب التطرق لجزءٍ منها في هذا المبحث .

وكما يُذكر عن بعض العلماء والمجتهدين الشيعة المعاصرين أنّهم وقفوا ضد مواكب التطبير بالسيوف و التعذيب الجسدي، إذ ينقل عن السيد محسن الحكيم انه قال مرة "القامات غصة في حلوقنا" في إشارة منه إلى حساسية الموضوع كما ذُكِرَ عن الشهيد محمد باقر الصدر أنه قال "هذا أمر لا يجوز" و يعني به التطبير بالسيوف و القامات.[١]

إذ يواجه الفقيه إحراجات كثيرة في إبداء رأيه عن هذا الموضوع الذي أخذ يتسرب إلى جوهر العقيدة و صلب إحياء الشعائر الحسينية بسبب مواقف العلماء الآخرين الداعمة له و ممارسات العامة من المجتمع المتواصلة له في كل عاشوراء، لكن هناك مجموعة من العلماء و الفقهاء تصدوا لهذه الظاهرة بفتاوى جريئة و مباشرة تحرّم التطبير و تعدّه من البدع الدخيلة على الشعائر و العزاء، إذ انتقد الشيخ محمد جواد مغنية مثل هذه الطقوس مثلما انتقد المغالاة فيها و مما قاله: "وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعاً يمقتها الله و الناس ، من ضرب أنفسهم بالمدى و إسالة الدماء على أثوابهم".[٢]

و قد أثير الموضوع بشكل رسمي و كبير في إيران بعد أن شعرت الثورة الإسلامية بحرج شديد أمام الرأي العام العالمي من موضوع التطبير و المواكب الحاشدة التي تخرج من المدن الإيرانية أيام عاشوراء مما دفع المرشد السيد علي الخامنئي لإصدار فتوى و حكمٍ شرعيٍ يحرّم التطبير لتتوالى الفتاوى المؤيدة له من علماء الدين داخل إيران و خارجها، وعدّ الخامنئي "أنّ التطبير من الإعمال المنكرة و من الأمور الموضوعة و الباطلة و قد لاقى رواجاً مع الأسف في السنين الأخيرة و البعض يروجون له ولكن التطبير لا يرتبط بالدين او الشعائر و هو خلاف الدين قطعاً و بدعة و الله عز وجل غير راضٍ به بدون شك و انا أيضاً غير راضٍ بالتطبير من صميم قلبي" .[٣]

١- ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ٤٥٩.

٢- ينظر: محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار الهلال، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ص ٩٨ .

٣- ينظر: محمود الغريفي، مصدر سابق، ص ٨٤.

و هناك فتاوى كثيرة دعمت و أيدّت فتوى السيد الخامنئي منها فتوى الشيخ ناصر مكارم شيرازي و هو من مراجع الدين في حوزة قم إذ يقول:

"على المؤمنين السعي إلى إقامة مراسم العزاء بإخلاص و الاجتناب عن الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية و كذلك عليهم اجتناب التطبير".[١]

كذلك هناك فتوى مؤيدة لهذا الموقف من التطبير للسيد كاظم الحائري يقول فيها إنّ "تضمين الشعائر الحسينية لبعض الخرافات من أمثال التطبير يوجب وصم الإسلام و التشيع بالذات بوصمة الخرافة".[٢]

و يُضاف إلى هذه الفتاوى رأي المرجع الديني محمد حسين فضل الله في رسالة للسيد الخامنئي حول موقفه من التطبير "إنّ ما جاء في حديث و توجيهات السيد الخامنئي يتناسب بشكل دقيق مع المفاهيم و المعاني السماوية في إقامة مجالس العزاء ان بعض الشعائر التي يقوم بها الناس فيما يتعلق بالشعائر الحسينية خالية من المحتوى و ليس لها ضرورة.[٣]

و اما الدكتور احمد الوائلي خطيب المنبر الحسيني المعروف فيقول في ذلك الصدد:-

"لا تجعلوا الناس يرمون أهداف الثورة الحسينية بالخرافة و التفاهة إنّ مثل هذه الخرافات وراءها أيادٍ أثيمة تلعب دورها". [٤]

و مما تقدم نلاحظ أنّ فتاوى حرمة التطبير تخضع لظروف سياسية و اجتماعية، اذ يرى المتصدون من العلماء للأمور السياسية أنّ التطبير يقدم إساءة للدين و المذهب إذ يواجه هؤلاء العلماء تحديات عالمية تحتم عليهم تقديم الطقوس و الشعائر بشكل عقلاني، و من أبرز هؤلاء العلماء المرجع الديني محمد حسين فضل الله الذي يرى ضرورة تطوير طريقة الاحتفال بعاشوراء من خلال الانفتاح على كل الوسائل التي تدخل عاشوراء إلى وعي العصر من خلال المسرح الحديث و السينما و غير ذلك من وسائل التعبير العصري، و في هذا الجو يؤكد فضل الله "لابد لعاشوراء ان تكون حركة في الوعي لا حركة في الانفعال لإننا إزاء هذا الواقع الذي نراه على المستوى العالمي و على مستوى المنطقة لابد من ان نصنع شيئاً من عاشوراء و قد لا يكون ذلك الشيء بنفس الأسلوب الذي تحرك به الإمام الحسين" .[٥]

١- ينظر: محمود الغريفي، المصدر نفسه.
٢- نفس المصدر .
٣- نفس المصدر.
٤- نفس المصدر السابق، ص ١٤٨.
٥- ينظر: محمد حسين فضل الله، حديث عاشوراء، مصدر سابق، ص ٢٢٩ .

و في مقابل هذه الآراء التي ذكرناها و غيرها ممّا لا مجال لذكرها، فإنّ هناك آراء و فتاوى تختلف في تعاطيها مع إحياء هذه الشعائر و الوسائل التعبيرية لذلك الإحياء، اذ يرى فريق من علماء و فقهاء الشيعة أنّ التطبير من الوسائل الجائزة في إحياء العزاء الحسيني، ففي جواب للمرجع المعاصر السيد علي السيستاني حول حكم التطبير الذي يفعله بعض الناس ايام عاشوراء يقول "يجوز اذ لم يكن معرضاً لضرر لا يحتمل عرفاً، و الله العالم".[1]

لكن ما ينقل عن المرجع السيستاني غير ذلك، اذ يرى أنّ جواز التطبير يعتمد على عدم الضرر بشكل عام سواء أكان بالنفس أم يسبب توهينا للدين والمذهب، وقد تضاربت الآراء حول موقف المرجع السيستاني من التطبير و لا سيما في المواقع الالكترونية، إذ تثار مقولات كثيرة حول رأي السيد السيستاني لكن عدم وجود موقف واضح وصريح منه يؤكد أنه يلتزم السكوت عن إبداء الرأي تلافيا لجرح مشاعر الملايين ممن يعتقدون بالتطبير شعيرةً من شعائر العزاء الحسيني ويدعمهم جمع غفير من فقهاء وعلماء الشيعة، كما لا يريد دعم فكرة التطبير بشكل صريح حفاظا على حرمة المذهب الشيعي في العقلية الجمعية لغير المسلمين، وهو بذلك يختلف عن السيد الخوئي الذي يعبر عن رأيه بصراحة فيقول: "لا اشكال في التطبير مع فرض أمن الضرر"، و في سؤال متعلق بالموضوع نفسه مفاده: هل الأمر مباح او مستحب لو أتى بذلك تعظيما لشعائر و مواساة أهل البيت بمصاب الحسين ، فيجيب المرجع الخوئي: " لم يرد نص بشعاريته فلا طريق إلى الحكم باستحبابه " .[2]

نلاحظ أنّ حرمة التطبير عند هذا الفريق من العلماء متعلقة بالضرر بالنفس و الجسد، كما نلاحظ في فتوى السيد الخوئي، أنه لا يوجد تأصيل فقهي باستحباب التطبير و لا بوصفه من الشعائر و الطقوس، وفي جواب آخر للسيد الخوئي يتجلى هذا المفهوم، إذ قال "ما يعتبر مصداقاً للعزاء والندبة في إظهار المصاب فيهم لهو مندوب ومرغوب ولا مانع عليه والله العالم" إذ عدّ التطبير من مصاديق العزاء على الرغم من عدم وجود دليل مباشر على ذلك، وقد أيّد قوله عدد من مراجع الشيعة

١- ينظر: السيد السيستاني، استفتاءات، ٢٠٠٠، ص ٥٥٥/ كما ينظر: منهاج الصالحين، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان، ط١٠، ٢٠٠٦

٢- ينظر: محمود الغريفي، مصدر سابق، ص ١٤٨ .

مثل حسين وحيد الخراساني، وجواد التبريزي، ولطف الله الصافي الكلبايكاني ومحمد تقي بهجت، وصادق الحسيني الشيرازي ومحمد مفتي الشيعة، وأبو القاسم الكوكبي ومحمد الشاهرودي ومحمد الوحيدي ومحمد علي الأبطحي ومحمد مهدي اللنكرودي، ويوسف المدني التبريزي، ومحمد الكرمي الأهوازي ويحيى الأنصاري الشيرازي. أما مدرسة المرجع السيد محمد الشيرازي في التعاطي مع هذه الطقوس فإنه يعدها من الشعائر الجائزة والمحببة في الشريعة الإسلامية وقد جاء في فتواه: "التطبير شرف للمذهب وفخر"، كما هاجم المعادين للتطبير بقوله "أعداء التطبير هم الظالمون". [١]

وأما المرجع محمد الحسيني الروحاني وهو من أبرز تلامذة الخوئي، فإنه ذهب إلى استحباب التطبير، وقال بعدم استبعاد أنّ التطبير قد يكون واجباً كفائياً. [٢]

ومن الملاحظ في هذا التناقض الشيعي إزاء التطبير أنّ فريق العلماء الذين أفتوا بحرمة التطبير لاحظوا الإسقاطات السلبية على المذهب جراء قيام بعض الشيعة بتطبير رؤوسهم حدَّ الإدماء، إذ عدوا التطبير من العناوين المسيئة للمذهب وللدين الإسلامي، وأغلب هؤلاء الفقهاء هم ممن يشتغلون بالسياسة كما ذكرنا سابقاً، لذلك نصح هؤلاء العلماء مقلديهم بالتبرع بالدم للمرضى بدلا من التطبير لكن نظرية التبرع بالدم لم ترق لعلماء الفريق الآخر. وقد عارضها العديد من المؤيدين للتطبير ولكنهم لا يعدونها حراماً، لكنهم يرفضون كونها من الشعائر الحسينية. وقال المرجع صادق الروحاني: "التبرع بالدم لمن يحتاج إليه من الأعمال الحسنة سيما إذا صار سببا لحياة إنسان وعدم هلاكه، ولكنه ليس من الشعائر الحسينية والإدماء الذي هو من الشعائر الحسينية هو التطبير وهذه الشائعة إنما هي للمنع عن الشعائر الحسينية". [٣]

لأنّ هذا الفريق من علماء الشيعة يرى أنّ التطبير من الشعائر التي تقوّي المذهب لأنها تبدي هذا التفاني والتضحية وتجعل الأذى والألم من اجل قضية ورسالة كان قد ضحى من إجلها الإمام الحسين في عاشوراء .

١- ينظر: صادق الحسيني الشيرازي، أجوبة المسائل الحسينية، ص٩
٢- ينظر: الشبكة المعلوملتية، الموقع الالكتروني: http://ar.wikipedia.org/-
٣- ينظر : نفس المصدر السابق .

الفصل الثالث
المشّـــــــــــــــاية

المبحث الأول
"المشّـــاية" في مراســـم الزيارة الأربعينية

المبحث الثاني
الدوافـــــع والأســـباب

المبحث الثالث
"المشّاية" وظاهرة القديس بيسو..
دراسة مقارنة

المبحث الأول: "المشّابة" في مراسم الزيارة الأربعينية

أولاً: التأصيل الديني لزيارة الأربعين:-

تُعدُّ زيارة قبور أهل البيت وأضرحتهم من المراسم السائدة في الجماعة الشيعية بوجه عام، وقد لقيت قبولا ورواجا واسعا لها بين أوساط الموالين لأهل البيت، لا سيما ان كثيراً منها مروي عن الأئمة الأطهار في كتب الزيارات، وعادة ما تكون الزيارة لإقامة العزاء بوفاة أحد الأئمة، كما في زيارة عاشوراء ذكرى استشهاد الإمام الحسين وزيارة الأربعين لتجديد الحزن والأسى وتخليد الذكرى، وقد تركت هذه الزيارة أثراً رئيساً في بناء المجتمع الشيعي، بوصفها تجمعا حاشدا لملايين المعزين وقد أولاها فقهاء الشيعة اهتماما خاصا في مباحثهم التوجيهية والتربوية لدفع مقلديهم وأتباعهم نحو تأديتها بشكل متواصل ومستمر يتجدد سنويا.

إنّ تقديس العظماء وتمجيد الأبطال بعد موتهم نزعة فطرية وسنة عقلائية سائدة في أنحاء العالم وبين جميع الأمم والمجتمعات والحضارات الإنسانية منذ أقدم العصور.

إنّ زيارة الأربعين في كربلاء وإقامة الشعائر والطقوس الدينية تعود إلى واقعة تاريخية تقول بأنّ الإمام علي بن الحسين (السجاد) حين رجع مع قافلة السبايا من الشام إلى العراق، وقبل توجهه إلى المدينة، ذهب إلى كربلاء لزيارة قبر أبيه الحسين، وكان وصوله إلى كربلاء بعد أربعين يوما من استشهاده.[1]

فالناس ـ على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واتجاهاتهم ـ يشعرون في أعماق نفوسهم وقلوبهم باندفاع قوي نحو الإمام الحسين وشعائره المقدسة، فتراهم يبذلون أموالهم وأملاكهم في سبيل الإمام الحسين بكل جود وسخاء، فتراهم يشدون الرحال ويقطعون ألوف الأميال ويتحملون مشاق السفر وعناء الطريق قاصدين مدينة كربلاء ليتشرفوا بزيارة مرقد الإمام الحسين، رغبة منهم في نيل البركات والآثار الدنيوية التي يتفضل الله تعالى على زائر قبر الحسين سعة الرزق وطول العمر ودعاء الملائكة وغيرها من البركات التي نطقت بها الأحاديث والروايات،"فزيارته خير موضوع فمن شاء استقل ومن شاء استكثر" كما يقول الإمام الصادق.[2]

١- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ١٣١

٢- مهدي تاج الدين، النور المبين في شرح زيارة الاربعين، ١٢، ط١، دار الانصار، ٢٠٠٥

إنّ من أكثر الزيارات استحبابا عند المسلمين الشيعة هي زيارة الأربعين، إذ يعتمد هؤلاء الفقهاء على كلية مسلمة بين جميع المسلمين وهي ان إحياء شعائر الدين من مصاديق التقوى، فان الله تعالى يقول (ومن يعظم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب)[١] اذ يعتقدون ان أداء هذه الزيارة من أهم مصاديق التعظيم لشعائر الله، كما يستندون في الاستحباب الشديد والمباشر لهذه الزيارة إلى روايات مرسلة ومسندة تفيد من مجموعها أنّ لهذه الزيارة فضلاً كبيراً، إذ يعدها أهل البيت من علامات الإيمان، كما في هذه الرواية:

ما نقله الحر العاملي: روي عن أبي محمد الإمام الحسن العسكري انّه قال: "علامات المؤمن خمس: صلاة الواحد والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم". [٢]

وقد حثت الروايات الواردة عن أهل البيت على تجديد هذه الزيارة مشيا على الأقدام تعظيما لتلك الزيارة ، ومن هذه الروايات:

١- ما روي عن الإمام الصادق أنّه قال: "من خرج من منزله يريد زيارة الحسين، ان كان ماشيا كتب الله له بكل خطوة حسنة وحط بها عنه سيئة، حتى إذا صار بالحائر كتبه الله من المفلحين". [٣]

٢- ما روي عن أبي عبد الله قال: "من أتاه ماشيا كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحا عنه سيئة، وترفع له درجة".[٤]

٣- ما روي عن أبي سعيد القاضي، قال: دخلت على أبي عبد الله في غرفته فسمعته يقول: "من أتى قبر الحسين ماشيا كتب الله له بكل خطوة وبكل قدم يرفعها ويضعها عتق رقبة من ولد إسماعيل".[٥]

٤- عن الحسين بن سعيد، عن جعفر بن محمد (ع) انه سئل عن الزائر لقبر الحسين، فقال: من اغتسل في الفرات ثم مشى إلى قبر الحسين، كان له بكل قدم يرفعها ويضعها حجة متقبلة بمناسكها. [٦]

١- القران الكريم، سورة الحج، من الآية ٣٢
٢- الحر العاملي، وسائل شيعية، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٤٨٧
٣- حسين البروجردي، جامع احاديث الشيعة، دار الاعلمي،لبنان، بيروت، ط٢٠٠٣٥٣، ج ١٢، ص ٤٣١
٤- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مصدر سابق ذكره، ج ١٠، ص ٣٤٢
٥- ابن قولويه القمّي، كامل الزيارات، دار المحجة البيضاء، لبنان، بيروت، ط٤، ١٩٨٠، ص ١٣٤
٦- الطوسي، التهذيب، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط٥، ٢٠٠٥، ج٦، ص ٥٣، كما ينظر: المجلسي، بحار الانوار، مؤسسة الوفاء، لبنان، بيروت، ط٤، ١٩٨٣، ج١٠١، ص ١٤٧

ان وجود هذا العدد من الروايات التي تؤصل لاستحباب الزيارة مشيا على الأقدام لا يدلّل على أهمية المشي لمسافات طويلة وشاسعة بقدر ما يؤكد على استحباب الزيارة نفسها وأهمية أدائها، فلا توجد إشارة واحدة من الإمام الصادق، في جميع هذه الروايات، تتناول المشي وحده كشعيرة من شعائر العزاء الحسيني، ويؤكد ذلك السياق التاريخي لزمن هذه الروايات الذي كانت فيه وسائل النقل لا تتعدى ركوب الدواب في أيسر حالات الزائر، إذ كان المشي هو الوسيلة الأكثر إتباعا للوصول إلى ضريح الإمام الحسين لأداء الزيارة، لذلك جاءت دلالات المشي وسيلةً وليست غاية من الإمام الصادق، وقد إكتسب المشي سمة الشعيرة في زمن متأخر عن زمن التشريع عند المسلمين الشيعة، و لا سيما بعد ان اتخذته المواكب الحسينية شعارا معبرا عن معارضتها للسلطة التي منعت مراسيم العزاء في منتصف القرن السابق، منطلقين من منطلقات دينية مفادها " أنّ الأجر على قدر المشقة" ليصبح عادة متبعة وتعبيرا عن هوية مقموعة بعد سقوط النظام السابق الذي بالغ في منع العزاء ومظاهر المواكب قمعا للهوية الشيعية.

إنّ وجود هذه الروايات التي تتشابه جميعها وتشترك في أنّ المشي للزيارة يرفع المؤمن إلى درجات تقترب من ثواب الحج وأجره، وقد جمعها الشيخ محمد حسن الاصطهباناتي في مجلد كبير تحت عنوان "نور العين في المشي إلى زيارة قبر الحسين"

كلُّ هذه الروايات تؤكد على حقيقة واحدة نابعة من رواية واحدة تعدد رواتها والناقلون لها عن الامام الصادق، وهي التشجيع على الزيارة والحث عليها مشيا على الاقدام وذلك تعظيما لشعائر الله التي تعد الزيارة أحد مصاديقها وتحقيقا لغايات ينشدها الزوار الشيعة، منها:

أولا: تجديد الولاء للإمام الحسين وخطه الثوري، ليأخذ هذا الولاء شكلا استثنائيا يتمثل بتأدية الزيارة مشيا على الأقدام ومن مناطق بعيدة جدا .

ثانيا: تدريب النفوس المشتاقة لرؤية الإمام الحسين على الأناة والصبر في التعامل مع الأمور، فالسير لأيام عديدة وفي أماكن نائية خالية من العمران يعد تجربة لا يمكن إلغاء تأثيراتها الروحية بأي حال من الأحوال.

ثالثا: التأسي والاقتداء بمسير سبايا الإمام الحسين حين رجعوا من الشام إلى المدينة، فكأن المحبين يقولون "ان كنتم يا عيال الحسين قاسيتم حر الهجير، ووعثاء السفر، فأن محبيكم مسافرون على مدى التاريخ، ومواسون لكم في كل سنة تمر، حاملين على أكتافهم شدو الخلود ونشيد التضحية.[١]

وهناك كمٌّ من الروايات التي تحث المسلمين على الزيارة بشكل عام مذكورة في كثيرٍ من كتب الشيعة وأخبارهم يمكن لنا المرور بدلالاتها سريعا لأنها تدخل في نطاق الدفع باتجاه الزيارة سواء أكانت في الأربعين أم بسواها من المناسبات، ومن هذه الدلالات نذكر:

١ـ ان أيام زائري الحسين لا تعد من أعمارهم :

إذ روي عن الإمام الرضا عن أبيه انه قال: "ان أيام زائري الحسين لا تحسب من أعمارهم ولا تعد من آجالهم". [٢]

٢ـ ان زائر الحسين يكون في جوار رسول الله وعلي وفاطمة:

عن أبي خالد ذي الشامة، قال: حدثني أبو أسامة قال: سمعت أبا عبد الله يقول: "من أراد ان يكون في جوار نبيه وجوار علي وفاطمة فلا يدع زيارة الحسين" . [٣]

٣ـ ان زائر الحسين يدخل الجنة قبل الناس:

عن عبد الله بن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله يقول: "ان لزوار الحسين بن علي يوم القيامة فضلا على الناس، قلت: وما فضلهم ؟ قال: يدخلون الجنة قبل الناس بأربعين عاما وسائر الناس في الحساب والموقف". [٤]

٤ـ من زار الحسين كمن زار الله في عرشه:

عن زيد الشحام، قال: "قلت لأبي عبد الله: ما لمن زار قبر الحسين ؟ قال: كمن زار الله في عرشه ". [٥]

٥ـ من زار الحسين كتب في أعلى عليين:

عن أبي عبد الله قال: "من أتى الحسين عارفا بحقه كتبه الله في أعلى عليين" .[٦]

١ـ هادي الشيخ طه، خطوات المتقين في ثمار زيارة الاربعين، ص ١٢، منشورات العتبة العباسية المقدسة ، ط ١، ٢٠١٠

٢ـ الطوسي، التهذيب، مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٦

٣ـ ابن قولويه القمي، كامل الزيارات، مصدر سابق، ص ٢٦٠، الحديث ٣٩٢

٤ـ المجلسي، بحار الانوار، مصدر سابق، ج ٩٠، ص ٢٦

٥ـ حسين النوري،مستدرك الوسائل، مصدر سابق، ج ١٠، ص ١١٥

٦ـ الطوسي، ثواب الاعمال، مصدر سابق، ص ١١٠

٦- ان زيارة الامام الحسين تزيد في العمر والرزق:

عن الامام الباقر قال: "مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين، فان اتيانه يزيد في الرزق ويمد في العمر ويدفع مدافع السوء، واتيانه مفترض على كل مؤمن يقر للحسين بالامامة من الله".[١]

٧- ان زيارة الحسين تحط الذنوب:

عن الامام الصادق قال: "من اراد ان يكون في كرامة الله يوم القيامة وفي شفاعة محمد (ص) فليكن للحسين زائرا ينال من الله الفضل وحسن الثواب، ولا يسأله عن ذنب عمله في حياة الدنيا، ولو كانت ذنوبه عدد رمل عالج وجبال تهامة وزبد البحر، ان الحسين قتل مظلوما مضطهدا نفسه عطشانا هو واهل بيته واصحابه". [٢]

٨- ان زيارة الحسين تعدل عمرة وتعدل حجة :

عن احمد بن محمد بن ابي نصر، قال: "سأل بعض اصحابنا ابا الحسن الرضا ، عمن اتى قبر الحسين، قال: تعدل عمره ". [٣]

٩- ان زيارة الحسين تعدل عتق الرقاب:

عن ابي سعيد المدائني، قال: قلت لابي عبد الله "جعلت فداك اتي قبر ابن بنت رسول الله، قال: نعم يا ابا سعيد ائت قبر ابن رسول الله اطيب الطيبين واطهر الاطهرين وابر الابرار، فاذا زرته كتب الله لك عتق خمسة وعشرين رقبة ".[٤]

١٠- ان زوار الحسين مشفعون:

عن الامام الصادق قال: "ان الله تبارك وتعالى يتجلى لزوار قبر الحسين قبل اهل عرفات ويقضي حوائجهم ويغفر ذنوبهم ويشفعهم في مسائلهم، ثم يثني بأهل عرفات فيفعل بهم ذلك ".[٥]

ولم يكتف الرواة بكل هذه المكاسب الاخروية لزوار الحسين بل إنّ هناك روايات تدل على ان فضيلة زيارة الحسين ما بينت تمام البيان للناس، عن محمد بن مسلم

١- المجلسي، مصدر سابق، ج ١٠١، ص ٣
٢- المصدر السابق، ص ٢٧
٣- الطوسي، ثواب الاعمال للصدوق،مصدر سابق، ص ١١٢
٤- ابن قولويه القمي، مصدر سابق، ١٩٨٠، ص ٢٩٤
٥- الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٤٩٧

عن أبي جعفر قال: "لو يعلم الناس ما في زيارة قبر الحسين من الفضل، لماتوا شوقا وتقطعت أنفسهم عليه حسرات". [١]

نكتفي بهذا العدد من الروايات التي جعلت الزيارة أمرا مرغوبا ومحببا لدى الشيعة، فقارئ هذا الكم من الروايات التي تدفع باتجاه الزيارة وتحمل كل هذه الدلالات، لا يتوانى في القيام بأداء هذه الزيارة التي تساوي كل هذه الأعمال التي تصل إلى حد أن يعطل بعض الناس أعمالهم الخيرة ليقوموا بأداء الزيارة بحجة أنّها تعادل كل هذه الأعمال، لذلك نجد هذا التدفق الشيعي المستمر نحو كربلاء لأداء مراسم الزيارة التي تكفل لهم الجنة.

ان زيارة الأربعين عند الشيعة هي بمثابة مؤتمر سنوي ديني ودنيوي يجتمع فيه المسلمون لممارسة طقوسهم بكل أشكالها التعبيرية غير متناسين العناصر التبليغية لتلك الزيارة التي يروم منها هؤلاء تبليغ الدعوة الحسينية لسائر أنحاء العالم وتجديد العهد مع الإمام الحسين. ومما يضمن لهذه الزيارة ديمومتها ونجاحها وجود المواكب الحسينية المنتشرة على طول الطريق والتي تبذل الأكل والشرب وتوفر المنام وكافة الاحتياجات الصحية للزوار، وهذا الأمر لا يخلو من روايات أخرى تحث الناس على الإنفاق لزوار الحسين وثواب البذل في زيارة الحسين، ومن هذه الروايات نذكر: "عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله في حديث طويل، قال: أتاه رجل فقال له: يا بن رسول الله هل يزار والدك ؟ فقال: نعم، قال: فما للمنفق في خروجه إليه والمنفق عنده ؟ قال: الدرهم بألف درهم" . [٢]

وعن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله ـ في حديث طويل ـ قلت: فما لمن جهز إليه ولم يخرج لعلة ؟ قال: يعطيه الله بكل درهم أنفقه جبلا من الحسنات ويخلف عليه أضعاف ما انفق ويصرف عنه من البلاء ما قد نزل ويحفظ في ماله ". [٣]

وإذا كان الإنفاق بكل هذا الأجر والثواب والمشجعات فمن الطبيعي ان تنتشر المواكب الحسينية بهذا الشكل الكبير وتقدم كل هذه الخدمات التي تقدر بملايين الدولارات سنويا.

١- ابن قولويه القمي، كامل الزيارات، مصدر سابق، ص ٨٧

٢- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج ١٠، ص ٣٧٦

٣- ابن قولويه القمي، كامل الزيارات، مصدر سابق، ص ١٢٩

ثانيا: تاريخ "المشّاية" لأداء الزيارة الأربعينية:-

لا يقل يوم الأربعين عن يوم عاشوراء من حيث الأهمية عند المسلمين الشيعة، إذ تقام الاحتفالات بأربعينية الإمام الحسين في كربلاء التي تصادف في العشرين من صفر في التاريخ الهجري من كل عام.

وتأتي خصوصية يوم الأربعين في كربلاء من ذكرى رجوع رأس الحسين من الشام إلى العراق ودفنه مع الجسد في كربلاء، ويسمى هذا اليوم في العراق "مرد الرأس".

وكان رأس الإمام الحسين قد رفع على رمح طويل واخذ مع قافلة السبايا إلى يزيد بن معاوية في الشام، وقد عاد الرأس من الشام إلى العراق.

لا يمكن عد الحقبة الموالية لاستشهاد الإمام الحسين تاريخا لظاهرة أداء الزيارة الأربعينية سيرا على الأقدام، حتى وان كان الزوار يمارسون المشي لأداء هذه الزيارة، فمن المسلم به ان وسائل النقل آنذاك كانت تعتمد على الأقدام وقدرتها على السير في الأعم الأغلب، لان ركوب الدواب لم يكن متيسرا للجميع، وإنما لميسوري الحال والسلطات الحاكمة فقط، لذلك ومن الطبيعي ان أداء زيارة الأربعين وغيرها كان سيرا على الأقدام، وان من رغب بالزيارة كان عليه قطع جميع المسافة مشيا على الأقدام للوصول إلى ضريح الإمام الحسين، كما كان يحصل مع أداء فريضة الحج، لذلك لا يمكن لنا شمول الحقبة التي تلت استشهاد الإمام الحسين بدراسة ظاهرة المشّاية، كما يمكن عدُّ الروايات التي تحث على المشي لزيارة الإمام الحسين ضمن خانة القاعدة التي تقول " إنّ الأجر والثواب على قدر المشقة" وان "خير الأمور احمزها ـ أي أصعبها ـ" .

فمن المؤكد ان الروايات التي حثت على المشي في سياقها الطبيعي لم تكن ملتفتة الى ان ظاهرة "المشّاية" ستكون الأصل في الموضوع والغاية الحقيقية له وان الزيارة عنوان ثانوي، فالمفهوم اليوم ان المشي هو الأصل والغاية والزيارة تأتي في المرتبة الثانية، لان كثيراً من الزوار - وكما لاحظنا في أثناء المشاركة في مراسم هذه الزيارة لعامي (٢٠١١ ـ ٢٠١٢)م ان - يشاركون في المسيرة لا بقصد الزيارة والوصول وإنما بقصد ممارسة الطقس / المشي، لأنهم لا يكملون هذه المسيرة حتى الوصول إلى ضريح الإمام الحسين، بل يعودون إلى بيوتهم بعد أداء السير لمئات أو

عشرات الكيلو مترات، وحين نعود إلى الروايات التي عدت المشي لأداء الزيارة أمرا محبوبا لدى الشارع المقدس وأهل بيت الرسول (ص)، فأننا نلحظ أنها شجعت على أداء الزيارة لا على الوسائل التي تتحقق بها، بل إنّ الأجر بقدر النية لا بعدد الخطوات التي يقطعها الزائر سيراً على الأقدام.

ولو أردنا إرجاع الظاهرة إلى أصولها بشكل عام، فان الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري كان أول السائرين لزيارة الإمام الحسين بعد مقتله بأربعين يوما كما في الرواية التي تقول:

"بعد أن عَلِمَ جابر بن عبد الله الأنصاري بمقتل الإمام الحسين ـ وكان قد كف بصره ـ توجه من المدينة نحو ارض كربلاء، وعندما وصل إلى قرية الغاضرية على شاطئ نهر الفرات اغتسل في شريعتها وتقمص بأطهر ثيابه، وتطيب بسعد كان مع صاحبه عطاء، ثم سعى نحو القبر الشريف حافي القدمين، وعليه علامات الحزن والكآبة، حتى وقف على الرمس الكريم، ووقع مغشيا عليه". [1]

صحيح أنّ هذه الخطوة التي قام بها الصحابي الأنصاري أسست لهذا التاريخ ٢٠ صفر وجعلته نقطة البداية لهذه الزيارة الأربعينية، لكنها لم تؤسس لظاهرة المشّاية التي أخذت هذا الحجم المليوني إذ ان هناك عوامل عديدة أدت إلى تفاقم هذه الظاهرة بهذا الشكل وانفتاقها، سنأتي على تعدادها بشكل مفصل في المبحث الثاني من هذا الفصل.

لذا علينا تحديد حقبة زمنية أخذت فيها هذه الزيارة شكلها وتكونها ظاهرة متميزة وكبيرة، وبالتأكيد سوف لا نعد البداية الأخيرة بعد ٢٠٠٣ نقطة البدء لان هناك محاولات كثيرة للزوار سبقت هذا التاريخ لبلورة الظاهرة، لكنها لم تتمكن ان تصنع منها ظاهرة بهذا الحجم الذي تشكل بعد عام ٢٠٠٣.

كما لا نستطيع ان نعد موكب عزاء طويريج الذي تأسس قبل اكثر من ٣٠٠ عام، كما ينقل بعض المعمرين، الذي كان يعتمد السير على الأقدام لأداء الزيارة، هو بداية التأسيس لظاهرة المشّاية، وان كان كذلك من ناحية شكلية ترتقي إلى مستوى الظاهرة، بسبب كون هذا الموكب كان ينطلق في العاشر من محرم وليس في الأربعين ٢٠ صفر.

١ـ السيد صالح الشهرستاني، تاريخ النياحة، ج ١، دار الزهراء بيروت، ص ٨٧ ـ ٧٩

ظاهرة توافد الشيعة على كربلاء لاداء زيارة الإمام الحسين ليست جديدة، كما ذكرنا سابقا، بل إنها بدأت من تاريخ استشهاد الإمام الحسين ومنذ سنة إحدى وستين هجرية ولحد الآن، وقد حافظ الشيعة على هذه الزيارة وبذلوا مختلف إمكاناتهم وجهودهم في سبيل ذلك، وواجهوا مختلف التحديات المناوئة وقدموا التضحيات الجسيمة من أموالهم وأنفسهم ولاسيما في العهد الأموي والعباسي وما تلاهما من العهود حتى عصرنا الحاضر وعهد نظام صدام حسين الذي منع الطقوس الحسينية بشكل عام وهذه الزيارة بشكل خاص.

ان ظاهرة "المشّاية" لاداء الزيارة الأربعينية قبل سقوط نظام صدام حسين في عام ٢٠٠٣، كانت مقتصرة على أهالي النجف ومواكبهم ومن استطاع اللحاق بها والمشاركة في مراسمها، ويذكر أهالي النجف كيف كانت المواكب تسير بشكل جماعات وفرادى قبل ليلة الأربعين ٢٠ صفر لاداء الزيارة الأربعينية مشيا على الأقدام في مسيرة منتظمة وهتافات موحدة، إذ كانوا يقيمون للاستراحة في منتصف الطريق في مكان معروف أُطلِقَ عليه لاحقا اسم "خان النص" ويقصدون به المكان الذي يقع في منتصف الطريق بين النجف وكربلاء ـ وهو موجود لحد الآن ـ ثم يواصلون سيرهم ليأخذوا استراحة أخيرة في "خان الربع" ليصلوا بعدها إلى مدينة كربلاء ليلة أو فجر الأربعين، وهذه المسيرة هي من التقاليد الطقسية التي درجت عليها المواكب النجفية لسنوات عديدة قبل ان يقوم النظام العراقي بمنعها سنة ١٩٧٦م، إذ منعت السلطات مواكب العزاء المنطلقة من الصحن الحيدري في النجف الأشرف من مواصلة مسيرهم نحو مدينة كربلاء لاداء مراسم الزيارة الأربعينية، في العشرين من صفر عام ١٣٩٦ / كانون الثاني ١٩٧٦، إذ قامت الحكومة بمنع مسيرة شعبية على الأرجل من النجف إلى كربلاء، ليلة الأربعين، وهذه المسيرة هي من التقاليد الشعبية التي درج عليها موكب نجفي منذ سنوات، وعلى الرغم من ذلك المنع فقد خرج آلاف في مسيرة طويلة متجهة إلى كربلاء لتحدي السلطة التي منعت قيام المسيرة. [1]

وفي العام التالي قامت السلطة المحلية بمنع المسيرة في ليلة الأربعين مما ولد مواجهات دامية بين السلطة والزوار أدت إلى مقتل العديد منهم في انتفاضة شعبية

١- إبراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٧٧.

سميت بانتفاضة صفر ١٩٧٧، جاءت هذه الانتفاضة الإسلامية لتعبر عن الرفض الإسلامي والرد الثوري على تسلط النظام البعثي العشائري، إذ انطلقت الجماهير تحث الخطى نحو كربلاء وكلها عزم وتصميم، صارخة بوجه الظلم، متحدية البعث.

ان ما حصل من مواجهات عنيفة بين الزوار والسلطة البعثية عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧، يؤكد ان هذه الظاهرة كانت موجودة قبل هذا التاريخ الذي حصل فيه المنع، كما يؤكد ان النظام السابق كان يخشى من تفاقم هذه الظاهرة وامتدادها، لأنها ستشكل زحفا مليونيا يهدد تماسك السلطة التي ربما ستفقد قدرتها في الحد من اتساع الظاهرة وانفتاقها، لذلك بادر وبشكل مبكر إلى منعها والعقاب عليها، و على الرغم من نجاحه في سياسة احتوائها لكن ذلك لم يمنع تسرب إعداد قليلة عبر الطرق المخفية وفي البساتين لاداء هذه الزيارة بشكلها الطقسي ـ سيرا على الأقدام ـ ومنهم أصحاب المواكب النجفية و بعض طلبة الحوزة العلمية وعلمائها في النجف، الذين يعرفون الطريق بشكل جيد يؤمن لهم السلامة، وكان يمرون بتواطؤ مع أصحاب البساتين الذين كانوا يؤمنون لهم الطعام والشراب والمبيت وسط حذر وقلق من عيون السلطة، وقد نقل لي احد الزوار الذين كانوا يمارسون ظاهرة "المشّاية" في ذلك الوقت، كيف كان أهالي القرى حريصين على سلامة الزوار، إذ كانوا يجبرون أطفالهم على لعب الكرة في الطرق لمراقبة تحركات رجال الأمن وأخبار الزوار بوجودهم ليتمكنوا من الاختفاء.[١]

لم يدون الشيعة تاريخا محددا لهذه الظاهرة لأسباب كثيرة، منها مراقبة ومنع السلطة السابقة لكل عمل من هذا النوع ربما يؤدي لتشجيع هذه الظاهرة، بالإضافة إلى غياب الوعي بأهميتها وتأثيرها في الوضع السياسي والاجتماعي، كذلك عدم وجود وسائل التوثيق المتوفرة الان كأجهزة التصوير الحديثة وكاميرات الموبايلات التي بدأت تلتقط كل لحظة من الزمن قبل انفلاتها لتوثقها وتؤرشفها.

لذلك يصعب تحديد تاريخ بدء ظاهرة "المشّاية" على الرغم من ثبوت ممارستها كطقساً لاداء الزيارة منذ حقب كثيرة، وسيكون سقوط نظام صدام عام ٢٠٠٣ تاريخا لبدايتها بوصفها ظاهرة لأكبر سلوك جمعي في تاريخ العراق.

١- ينظر: رعد الخرسان ، انتفاضة صفر الاسلامية عام ١٩٧٧ ،مطبعة امير المؤمنين، قم ، ايران ، ص ٦١

ثالثا: "المشّاية" بوصفها ظاهرة سياسية قبل ٢٠٠٣:-

لا توجد ظاهرة طقسية في العالم تحمل دلالات سياسية وثورية مثل الطقوس الحسينية في العراق، وذلك لاختزال الذكرى الحسينية لفاجعة كربلاء كلَّ المبادئ والقيم الثورية التي كرسها صاحب الذكرى وضحى من اجلها، لذلك جاء احياء المراسم الحسينية مكتنزا بدلالات سياسية كثيرة لم ترق لمزاج السلطات على مر العصور، لان شعار الثورة واسبابها التي لخصها قائدها الامام الحسين بقوله المحفوظ: "لم اخرج اشرا ولا بطرا وانما خرجت لطلب الاصلاح .."، هذا الشعار ظل ساريا في عقول المسلمين الشيعة الذين ظلوا في معارضة الحكومات طوال عقود عديدة من الزمن، كما بقيت مراسم العزاء الحسيني تعبر عن تظلمات الشيعة وتذمرهم من الاوضاع السيئة، من خلال المنبر الحسيني الذي اخذت تنمو فيه اساليب الاحتجاج والنقد والتحريض السياسي ضد السلطات الديكتاتورية، ومع توسع اهمية هذه الاحتفالات بذكرى عاشوراء وتحولها الى حركة شعبية يمكن ان تسبب مخاطر لا تحمد عواقبها، اخذت الحكومات المتعاقبة على حكم العراق بمنع الشعائر والطقوس الحسينية.

ولعل ما حدث في اربعينية الامام الحسين سنة ١٣٩٧ هجرية الموافق سنة ١٩٧٧م يؤكد إشكال العلاقة بين الطقوس الحسينية من جهة والسلطة السياسية من جهة اخرى، إذ قامت السلطات المحلية بمنع المسيرة مشيا على الاقدام في ليلة الاربعين، خشية ان تتحول هذه المسيرة الى عادة سنوية يصعب احتواؤها، لكن الجماهير امتنعت عن الامتثال لهذا المنع معلنة خروجها على هذا القرار، وقد انطلقت مجموعة صغيرة من الشباب والفتيان من احد احياء النجف وهي تهتف "يا حسين .. يا حسين" وسرعان ما توسعت المجموعة بانضمام العشرات من الناس اليها، وتحولت الى مسيرة شعبية.[١]

وعندما وصلت الى شارع الامام علي، وهو احد الشوارع الرئيسة في النجف، تحولت هذه المسيرة الى تظاهرة جماهيرية عارمة، قدر عدد المشاركين فيها الى اكثر من الف شخص، كما تحولت شعاراتها، في الوقت نفسه، الى شعارات سياسية

١- ينظر: رعد الخرسان، مصدر سابق، ص ٦١.

وهتافات ثورية موجهة ضد السلطة الحاكمة انذاك. وقد رفع المتظاهرون اعلاما عديدة، وصورا للسيد محمد باقر الصدر المجتهد الديني المعروف الذي اعدمه نظام صدام سنة ١٩٨٠م، كما حملوا لافتات كتبت عليها شعارات مثل "نصر من الله وفتح قريب" . وكان من بين الهتافات التي اندلعت في التظاهرة بيت من الشعر:

لو قطعوا ارجلنا واليدين نأتيك زحفا سيدي يا حسين. [١]

كما انضم الى التظاهرة عدد اخر من الجماهير، لتنطلق هذه الجموع الهادرة التي بدأت تطوف شوارع المدينة وأسواقها مارة امام مبنى محافظة النجف فاقتحمته مجموعة منها وهي تهتف "ابد والله ما ننسى حسينا"، ليتجهوا بعد ذلك صوب مدينة كربلاء، وعلى الرغم من العدد الكبير من اعوان النظام الذي انتشروا بين المتظاهرين، وعند اطراف مدينة النجف التحمت بالمسيرة مجموعة اخرى اتت من احياء المدينة، بعدها حطت الجماهير رحالها في "خان الربع" الذي يبعد (١٠ كم) عن مدينة النجف كعادتها الجارية كل سنة في اثناء هذه المسيرة، وكان المشاركون يرددون شعارات معادية للنظام منها:

"هله هله حسين وينه ... منعوا العادة علينه". [٢]

وعند اقامة المسيرة في هذا المكان قامت السلطات باحاطتهم بالجنود والدبابات وافراد من الجيش الشعبي ورجال المخابرات، لمحاصرتهم ومنع اي تحرك مشبوه، لكن الجماهير الغاضبة واصلت مسيرها نحو كربلاء في فجر يوم ١٦ صفر من تلك السنة بعد ان نامت ليلتها وهي تلعب مع رجال الامن لعبة القط والفأر، وعندما وصلت التظاهرة الى منطقة "خان النص" التي تبعد عن النجف حوالي خمسة عشر كيلو مترا، اصطدمت بمجموعة من الجنود حالت دون مواصلتها مسيرتها نحو زيارة الحسين في كربلاء. وقد استعملت قوات من الجيش القنابل المسيلة للدموع والضرب بالهروات اولا لتفريق المتظاهرين، ثم استعمل الجيش البنادق والرشاشات، وقد ذكر بعض المتظاهرين، بان طائرات هليكوبتر أغارت على المتظاهرين وامطرتهم بوابل من الرصاص. وكان المتظاهرون يهتفون: **"ماكو ولي الا علي .. وانريد قائد جعفري".** [٣]

١- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٧٧
٢- رعد الخرسان، مصدر سابق، ص ٧٦
٣- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٧٨

وقد سقط على اثر هذه المواجهات عدد من القتلى والجرحى من الجانبين. كما قامت السلطات باعتقال مئات الأشخاص وزج كثيرٌ منهم في المعتقلات والسجون. وقد صدرت بحق عدد كبير منهم أحكام بالإعدام وعلى عدد آخر بالسجن المؤبد.

لكن المؤكد وبحسب المصادر الرسمية ان السلطة أحالت إلى المحكمة العسكرية مئة وعشرة أشخاص وأصدرت بحقهم أحكاما مختلفة منها إعدام عدد من قادة الانتفاضة وبعض المشاركين في التظاهرات والسجن المؤبد لعدد آخر منهم. [١]

وعلى الرغم من مما حدث من مواجهات شرسة ودامية إلا ان المواكب الحسينية وصلت إلى مدينة كربلاء وأقامت مراسيمها في مرقد الإمام الحسين بشكل طبيعي هذا العام.

وقد ارجع "حنا بطاطو" في كتابه الثالث "العراق" سبب هذه الاضطرابات التي حدثت في الطريق بين النجف وكربلاء إلى نقص المياه في نهر الفرات والقيود التي فرضت على المسيرات الشعبية التي قامت ليلة الأربعين في النجف الأشرف. [٢]

١- نفس المصدر، ص ٧٨

٢- حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثالث، دار الامة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٠، ص ٤٠٥

المبحث الثاني: "المشّاية" الدوافع والأسباب

أولاً: الدوافع الدينية و الروحية "حب الحسين":-

من أهم الدوافع و الأسباب الأساسية لتطور مراسيم العزاء الحسيني و إنتشارها في العراق و خصوصاً ظاهرة "المشّاية" سيراً على الأقدام لأداء مراسم الزيارة الأربعينية هو العلاقة الروحية القائمة بين الإمام الحسين الشهيد و شيعته الذين يؤدون الزيارة التي أصلت لها الروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة من ولد الحسين باستحباب حب الحسين و رجحان زيارته لانها تقرب من الله و تمحو الذنوب، بالإضافة إلى حالة الوجدان الروحي التي تشد و تقرب المحبة بين الامام الحسين و زواره، فتراجيديا الألم و فكرة الامل التي ارتبطت بشخصية الامام الحسين من جهة و استشهاده في كربلاء من جهة اخرى وعده منقذاً للشيعة كل ذلك جعل العلاقة بين الامام الحسين و زواره تقفز الى اعلى مستويات الحب و التفاني من اجل ترسيخ ظاهرة العشق بينهما.

تاريخياً كان الشيعة اول من ادخل فكرة الانقاذ الالهي في الاسلام و اول من ربطها جدلياً بتراجيديا كربلاء و ان حاملي "الشفاعة" عند الله هم النبي الكريم و الائمة من ال البيت من بعده الذين يحملون "اللطف الالهي" و ان الله كان قد اصطفاهم من الخلق من اجل انقاذ البشرية يوم القيامة عن طريق الولاء لهم و الشفاعة بواسطتهم.[1] لذلك يجد الشيعة ان تحمل مشاق المشي على الاقدام وقطع المسافات الطويلة بين مدنهم النائية و مدينة كربلاء حيث مرقد الحسين و اله الشهداء بالاضافة الى تحمل اخطار الموت المفاجئ في الطريق نتيجة الاستهداف المتكرر للزوار الشيعة كل ذلك يمنح هؤلاء الزوار جواز العبور الى شفاعة الحسين الشهيد يوم القيامة.

اصبح استشهاد الحسين طريقاً للشفاعة و الخلاص واصبح الامام الحسين نفسه "سفينة النجاة" لانه ضحى بنفسه لاجلهم فعاش الشهادة بصبره و ارادته و تضحيته باهله و اصحابه من اجل انقاذ المسلمين و نجاتهم.

١- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٣٠٨.

ان الاعتقاد باستشهاد الامام الحسين في سبيل الحق و العدالة و تحمله الام التضحية و الفداء لا ينفصل في الوقت نفسه عن مكانة الامام الحسين في الشفاعة لشيعته و محبيه يوم القيامة التي تظهر بوضوح و باشكال مختلفة و متنوعة في العزاء الحسيني و بحسب الاحاديث النبوية التي يؤكد عليها الشيعة فان النبي الكريم قال لام سلمة ، احدى زوجاته الكريمات بان للحسين منزلة عالية عند الله لا يصل اليها أي مخلوق حيث يشفع لشيعته يوم القيامة .

و بهذا فقد اكتسب الحسين صفة الشفيع يوم القيامة عن طريق الشهادة.[1]

كل هذا الاعتقاد كون شعوراً حقيقياً لدى الشيعة بان ممارسة طقوس المشي على الاقدام لاداء الزيارة الاربعينية بشكل خاص سيجعل من العلاقة الروحية بينهم و بين الامام الحسين في اوج عروجها نحو هذا النوع من الشفاعة .

إن التصوير الدرامي لواقعة كربلاء من الشعراء وخطباء المنبر الحسيني من خلال الشعر الغزير ومجالس العزاء وتأكيد دور الامام الحسين في الشفاعة لشيعته ومحبيه يوم القيامة ، كما نجد ذلك الاعتقاد ايضا في كثير من الاحاديث والروايات والاخبار التي غذت فكرة العزاء واصبحت دافعا ومحركا لنمو وانتشار عقيدة المنقذ الالهي التي تشكل محورا مهما في المعتقد الشيعي، جعل العلاقة بين الحسين ومحبيه تختلف عن علاقتهم بالائمة الاخرين من ولد الحسين، حتى اصبحت هذه العلاقة مفتاحا لدخول الجنة كما في المعتقد الشعبي .

هناك احاديث كثيرة تؤكد بان الرسول الكريم كان قد تنبأ مرات عدّة بان الحسين سوف يضحي بنفسه ليكون شفيعاً لشيعته يوم القيامة، لذلك نجد ان البكاء على الحسين و تحمل المشاق من اجل ممارسة هذه الطقوس و الشعائر هي احد الشروط المهمة لنيل الشفاعة فهذه الامور تعبير حقيقي عند الشيعة عن حب الحسين و الفوز بشفاعته يوم القيامة، و هي في الوقت نفسه دوافع لتحمل مشاق كل ذلك.

١- ينظر: ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٣٠٨ .

ثانياً: المنبر الحسيني و استمالاته الدائمة:-

يعد المنبر الحسيني من اهم الروافد الاساسية لاستمرار العزاء الحسيني و تمثلاته من طقوس و شعائر .

و المنبر هو المكان المرتفع في قبلة المسجد او الحسينية او الموكب و غيرها من الاماكن التي يقام بها العزاء، ويعد هذا المنبر ليخطب عليه الامام او الخطيب الحسيني "الروزه خون" و يمكن القول ان تعريف المنبر الحسيني هو : عبارة عن نوع من انواع الخطابة الدينية عند اغلب المسلمين الشيعة يعرج الخطيب في نهايتها باسلوب فني خاص على ذكر فاجعة مؤلمة من فواجع الامام الحسين او اهل بيته او اصحابه يوم عاشوراء، و المنبر الحسيني كناية عن احياء ذكرى استشهاد الامام الحسين، و يُشار إلى ان اول منبر حسيني اسس على يد الامام زين العابدين بن الحسين لما اخذوه مع السبايا لمجلس يزيد بعد مصرع ابيه الحسين واهل بيته في معركة الطف إذ قال ليزيد: "اتأذن لي ان ارقى هذه الاعواد (المنبر) فاتكلم كلاماً فيه لله تعالى رضا و لهؤلاء الناس اجر و ثواب" [١]

و في الواقع فان الموضوع المركزي لمجالس العزاء مهما حدث من اختلاف بين خطيب و اخر هو المأساة الدامية التي وقعت في كربلاء و ما يرتبط بها من تضحيات في سبيل الله و كذلك ما حل باهل البيت من قتل و سبي و تشريد وما لاقوه من مصائب و محن .[٢]

و يعد المنبر الحسيني واحداً من ابرز المؤسسات الدينية و الاجتماعية و التربوية و التثقيفية التي اسهمت في رفد المجتمع بمبادئ الثورة الحسينية و احيائها، فالمنبر الحسيني يترك، أثراً توجيهياً واسعاً في اوساط الجمهور بما يمتلكه من قدرة على استقطاب الجماهير المليونية .[٣]

١- كريم عبد الله كريم، الاستمالات في برامج المنبر الحسيني، رسالة ماجستير جامعة بغداد ، كلية الاعلام، ٢٠١٠ ، ص ٨٥-٨٦ .

٢- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٩٧

٣- محمد مهدي الاصفي ، الخطاب السياسي الموجه الى انصار الحسين ، النجف الاشرف ، ١٤٢٦هـ ، ص ٦٢.

و يعد المنبر الحسيني المحرك الاساس لهذه الشعائر و الطقوس من خلال استمالاته المتواصلة لخلق مساحات واسعة من التلقي الشعبي لاستعادة فاجعة الحسين و اهل بيته في كربلاء و التأثير العاطفي عن طريق الاشعار الحسينية التي تثير الحاجات النفسية و الاجتماعية في نفوس المجتمع، اذ يعتمد استمرار احياء مأساة كربلاء عند المسلمين الشيعة على المنبر الحسيني الذي يتواصل به خطباء وقراء مجالس العزاء على مدى السنة جميعها ابتداء من اليوم الاول للسنة الهجرية الذي يوافق في الاول من شهر محرم "عاشوراء" وإلى آخر يوم من ايام السنة، وبالمناسبة ومن دونها اصبحت قراءة المجالس الحسينية عادة متبعة عند الجماعة الشيعية، اذ يرتقي خطباء المنبر في كل ليلة جمعة مثلا للتبرك بذكر مصيبة الحسين، كما يحصل ذلك في المناسبات الاجتماعية مثل الوفيات، بل إنَّ الافراح لا تخلو من منبر للخطابة والتذكير بما حل باهل بيت الحسين من فواجع ومصائب، فالحزن اصبح لصيقا بالمجتمع الشيعي بشكل خاص وهذا كله بفعل المنابر الحسينية التي اعتمدت اسلوب الابكاء لاستمالة عواطف الناس انطلاقا من تراجيديا الوجع الحسيني.

و الاستمالة عملية تؤثر في الاخرين عقلياً باستخدام الادلة و الشواهد او عاطفياً باثارة حاجات المتلقي النفسية و الاجتماعية عن طريق مخاطبة حواسه او تخويفياً عن طريق التوصية و التحذير على وفق مبدأ الثواب و العقاب كي يتقبلوا افكارا واراء جديدة او يقوموا بعمل معين او تكوين اتجاهات محددة او دعم مواقف و اراء قائمة وترسيخها.[1]

و تعتمد الخطب الحسينية عادة على الاستشهاد بالايات القرانية الكريمة مع افتتاح المحاضرة و في اثنائها الى جانب سرد المعلومات و طرح الاراء، و تطعيم المحاضرة او المجلس الحسيني بالاحاديث و الروايات التي تحث على البكاء و الزيارة سيراً على الاقدام ناهيك عن الاشعار و الاهازيج الحماسية التي تدعم هذه الفكرة و تدعو لاستمراريتها و تواصلها لانها الطريقة الوحيدة لاستمرار الدين على وفق الخط الذي رسمه الامام الحسين في ثورته ضد الظلم و الاستبداد.

١- كريم عبد الله كريم ، مصدر سابق ، ص ٨٧ .

و قد ساهمت الفضائيات الشيعية في تكريس هذه الشعائر و الطقوس عن طريق نقلها للمحاضرات الحسينية التي تقام على مدار السنة وبثّها مباشرةً، وقد اظهرت دراسة بهذا الخصوص ان برامج الفضائيات استعملت الاستمالات بانواعها العاطفية و العقلية و التخويفية في برامج المنبر الحسيني و اختلف توظيفها بين الخطباء، و هذا الامر يثّبت حقيقة مهمة مفادها ان اساليب الاستمالة و حجمها و مساحتها الزمنية في برامج المنبر الحسيني يمكن ان تتغير بشكل كبير بتغير الخطيب الذي يقدمها. [1]

ان الانفتاح الاعلامي الذي حصل بعد سنة ٢٠٠٣ وما رافقه من تطورات تكنولوجية مثل الكاميرات الحديثة واجهزة الهاتف النقال التي اصبحت تدون وتؤرشف الحدث بشكل مباشر، بالاضافة الى النقل الحي لمراسم الشعائر والطقوس الحسينية من الفضائيات الشيعية، كل هذه التطورات نقلت هذه الشعائر والطقوس من عملية الممارسة الذاتية الى شاشات الإعلام التي يشاهدها الملايين من الناس بشكل حي، مما فتح باب المشاركة الواسعة من قبل المسلمين الشيعة في كثيرٌ من مراسم العزاء الحسيني اسوة بأقرانهم في العراق.

وبناء على ملاحظات قام بها الباحث في اثناء مشاركته في مراسم " المشّاية " لاداء الزيارة الأربعينية لعامي (٢٠١٠ ـ ٢٠١١)، فان عدد المشاركين في اداء الزيارة في تزايد مستمر و لاسيما بالنسبة المشاركون الاجانب الذين قدرت اعدادهم بـ (٥٠٠) الف وفقا للتقارير الإعلامية للفضائيات العراقية اثناء تغطيتها لمراسم الزيارة.[2]

وكل ذلك حصل بفعل الاستمالات العاطفية نتيجة النقل الحي لخطباء المنبر الحسيني وحث الناس على المشاركة.

اذ يقوم خطباء المنبر الحسيني إبتداء من اليوم الاول من شهر محرم وحتى بداية صفر بتشجيع الحاضرين على اداء مراسم الزيارة الاربعينية سيرا على الاقدام من خلال نقل الروايات والاحاديث والقصص التي تنطوي على اثارة المشاعر الشعبية للمشاركة في هذا الطقس الكبير الذي ينطوي على دلالات عقائدية وسياسية كبيرة.

١- المصدر نفسه، ص ١٨٣.

٢- راجع الارشيف الاخباري لقناة العراقية وقناة الحرة عراق والفرات ، ٢٠ صفر ٢٠١١

ثالثاً: استيفاء الديون التاريخية:-

المراجعة التاريخية لظاهرة العزاء بشكل عام و ما رافقها من اشكالات بين الشيعة و السلطة في كل المراحل و الحقب التاريخية التي اعقبت استشهاد الحسين، تؤكد ان هناك ديونا ً تاريخية للشيعة في عنق السلطات التي كانت تمارس اساليب القمع و المنع بحق كل من يحاول ممارسة طقوس العزاء، ولعل الصراعات الدامية التي وقعت بين التنظيمات الشيعية الثورية والحكم الاموي والعباسي، ساهمت ببلورة ونشأة شعيرة العزاء، اذ اخذ الشيعة بقيادة زمرة التوابين في السنوات الاولى لاستشهاد الحسين بمواجهة السلطة وتحديها، كذلك بدأت حملة الزيارة الى قبر الحسين في كربلاء رداً على حملات الاضطهاد التي شنتها تلك السلطات، وقد تحولت كربلاء منذ ذلك الحين الى مزار يأتيه عدد كبير من المسلمين الشيعة.[١]

وبعد ان اصبحت قراءة المقتل عادة متبعة يوم عاشوراء بحسب مصادر تاريخية موثقة، فان المختار بن يوسف الثقفي الذي قاد حركة "التوابين" و رفع شعار "يا لثارات الحسين" كان اول من اقام احتفالا ً تأبينيا ً في داره في الكوفة بمناسبة يوم عاشوراء.[٢]

و خلال القرن السابع للهجرة اصبحت قراءة المقتل عادة متبعة يوم عاشوراء الى ان جاء الخليفة المستنصر بالله و امر المحتسب جمال الدين بن الجوزي عام ٦٤٠ هـ / ١٢٢٣ بمنع الناس من قراءة المقتل في يوم عاشوراء و الإنشاد في سائر المحال بجانبي بغداد سوى موسى بن جعفر.[٣]

و قد سبق هذا المنع محاولات الاضطهاد و التنكيل التي قام بها الامويون و من بعدهم العباسيون لمنع الناس من زيارة قبر الامام الحسين و تقديم العزاء لاهل البيت،

١- روبير بندكتي ، مصدر سابق ، ص ٩٠ .

٢- ابن قتيبة ، الامامة و السياسية، دار النهضة، القاهرة، ط٢،١٩٧٢، ج ٢، ص ١٣٠

٣- حسين محفوظ، الكاظمية في المراجع العربية، موسوعة العتبات المقدسة، قسم الكاظمية رقم ٩، ص ١٠٨.

بذل الامويون ولا سيما ملوكهم وامراؤهم بعد خلافة يزيد بن معاوية جهدهم لعزل ذكر الحسين عن ذهنية المسلمين، وذلك بفصل الناس عن زيارة قبره ومنعهم من اقامة العزاء والنواح عليه، اذ كانوا قد احاطوا البقعة التي ضمت جثمان الشهيد في كربلاء بحراسة شديدة ومراقبة تمنع وفود الزوار عليها واقامة المناحات حولها، حتى ان كثيرا من الزوار لقوا حتفهم فور وقوعهم في شباك تلك الحراسة.[١]

اما في عهد العباسيين، فقد جر الحكم العباسي على مرقد الامام الحسين في كربلاء وزائريه والوافدين عليه ومقيمي المناحات و المآتم، ما لم يجره الامويون ايام سلطانهم، فأمعنوا في القبر تخريبا واهانة، وحالوا ما بوسعهم دون اعادة ذكريات مقتله واقامة المآتم والمناحات عليه، وكان اول من امر بهدم قبر الحسين هو ابو جعفر المنصور الدوانيقي ، وهارون الرشيد.[٢]

كما عمل المتوكل العباسي (٨٤٧ – ٨٦١م) على هدم قبر الحسين في كربلاء و تسويته مع الارض ثم حرث ارضه و زرعها و اصدر امرا بمنع ومعاقبة كل من يزور قبره و نادى الناس في تلك الناحية "من وجدنا عند قبره – بعد الثلاثة – سجناه المطبق فهرب الناس و تركوا زيارته و خرب و زرع".[٣]

و قد ارتبط وضع العزاء الحسيني و ممارسة الطقوس بالتغيرات السياسية و تأثير هذه الفرقة او تلك في هرم السلطة و قد ساء وضع الشيعة بعد ظهور السلاجقة و سيطرة الاتراك على السلطة الذين تبنوا المذهب السني في سياقه الاكثر جمودا ً فاعلنوا الحرب على الشيعة و المعتزلة و المتصوفة و الاشاعرة، و صار الشيعة لا يجرأون على اقامة العزاء الحسيني، فخلال حكمهم حدث مرارا و تكرارا ً ان اصدر الولاة مراسيم بمنع او تحريم القيام بالاحتفالات بيوم عاشوراء مما اجبر البعض من الشيعة على ان يقيموا مجالس التعزية في بيوتهم ولكن بصورة سرية خوفا من السلطات الحاكمة و لا سيما في بغداد و الكاظمية .[٤]

١- السيد صالح الشهرستاني، مصدر سابق، ص ١٠٧

٢- المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٧

٣- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار المؤرخ العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨، ج٧ ص ٥٥، كما ينظر: ابراهيم الحيدري، مصدر سابق ص ٥٤ .

٤- الحيدري ابراهيم، المصدر السابق نفسه، ص ٦١ .

و طبيعة هذا الكبت الذي يعانيه الشيعة ولّد لديهم شعوراً هائلاً بالحرمان من ممارسة طقوسهم و عاداتهم ، مما خلّف تراكمات في وجدانهم الشعبي اخذوا ينفسون عنها كلما سنحت لهم الفرصة و الظروف او يمارسونها بشكل سري، وقد ترك هجوم الواهبيين على كربلاء سنة ١٨٠٢ اثاراً كبيرة على الشيعة في العراق و على تطور العزاء الحسيني إذ الهبت هذه الحوادث الاليمة حماس الخطباء و الشعراء و الهمتهم خطباً و قصائد لا تحصى و لا تعد من قصائد العزاء و المراثي، التي عبرت مضامينها عمّا جرى و يجري للشيعة من الام و مآسٍ، فقد هجم الوهابيون فجأة على مدينة كربلاء و استباحوها قتلاً و نهباً و تهديماً و سقط على اثر ذلك عدد كبير من القتلى و الجرحى و كان م بينهم النساء و الاطفال و الشيوخ الذين كانوا انذاك في الشوارع و الاسواق، ثم هجموا على ضريح الامام الحسين و قتلوا كل من وجدوا امامهم ثم اضرموا النار في الضريح المقدس فتهدم قبر الحسين بعد ان نهبوا كل ما وجدوا في الضريح من كنوز و نفائس ثمينة، و قد قدر المؤرخون عدد القتلى الذين سقطوا داخل ضريح الامام الحسين بحوالي خمسين شخصاً و أما الذين سقطوا داخل الصحن الحسيني فيقدرون بحوالي خمسمئة شخص في حين قدر بعض من المؤرخين عدد القتلى بخمسة الاف قتيل.[١]

و مهما كان عدد القتلى يرى الشيعة في هذا الهجوم تجاوزاً على حقهم الديني في ممارسة طقوسهم و شعائرهم، و لم ينته هجوم الوهابيين على مدينة كربلاء عند هذا الحد، بل تعددت الهجمات الوهابية على المراقد الدينية لائمة الشيعة حيث هجم الوهابيون ثانية على مدينة النجف و مرقد الامام علي بن ابي طالب بعد سنتين من هجومهم على كربلاء غير ان مقاومة اهل المدينة كانت قد انقذت مدينتهم و كذلك قبر الامام علي من التهديم .[٢]

و من الطبيعي ان تترك هذه الهجمات اثاراً لا تمحى في صدور الشيعة اذ يرى بعض المؤرخين بأنه لم تمض سنتان حتى قام الشيعة بالانتقام من الوهابيين لغزوهم كربلاء بقيامهم باغتيال الملك عبد العزيز .[٣]

١- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ط١، ١٩٥٠، ج٦ ص ١٤٤.
٢- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٦٢ .
٣- المصدر السابق نفسه ، ص ٦٣ .

و لم يتوقف المنع و التضييق على الشيعة في ممارسة طقوس العزاء في الحقب المتوالية ، ففي عام (١٨١٧-١٨٣١) حاول الوالي العثماني في العراق داود باشا اكثر من غيره من الولاة التضييق على الشيعة و منعهم من اقامة العزاء الحسيني، مما اضطر شيعة العراق حينذاك الى اقامة مجالس التعزية في السراديب بعيدا عن العيون و الاسماع .

و في عهد الوالي العثماني المعروف مدحت باشا الذي حكم العراق بين (١٨٦٨-١٨٧١) مُنِعَت مسيرة مواكب العزاء في شهر محرم و اصدر مرسوماً في محرم عام ١٨٦٩ يمنع اقامة مسيرات المواكب و هدد بمعاقبة كل من يقيم مجلس عزاء.[١]

كانت الحكومات المتعاقبة تسعى الى السيطرة على مواكب العزاء للضغط عليها او تحديد مساراتها و منعها في اكثر الاحيان و اتخاذ اجراءات حازمة ضد بعض خطباء المجالس الحسينية الذين اخذوا يرفعون اصواتهم للتنديد بسياسة الحكومة و التحريض ضدها بسبب مواقفها المانعة للعزاء الحسيني تارة، و الانفعالات التي تزداد حدة مع اشتداد مراسيم العزاء التي اخذت تسلط الاضواء على تظلمات الشيعة و تحول هذه المناسبة الدينية الى تظاهرة اجتماعية ضد السلطة تارة اخرى . ففي عام ١٩٢٨ حاولت الحكومة العراقية منع اقامة المواكب الحسينية و التضييق عليها بعد ان حصلت في السنة التي قبلها صدامات عنيفة بين مواكب العزاء و جنود الحكومة في صحن الكاظمية سقط على اثرها أربعة قتلى.[٢]

وفي عام ١٩٣٢ قامت الحكومة بالتضييق والتشديد على طقوس العزاء ومنعت مواكب الكاظمية من اداء مراسيمها خلال الأيام العشرة الأولى من محرم.

وفي عام ١٩٣٥ حاول ياسين الهاشمي منع مواكب العزاء والغاءها اساساً، إذ منعت السلطات المحلية مشاركة مواكب الكاظمية في زيارة الاربعين بكربلاء كما منعت جمع التبرعات منعاً باتاً وفرضت قيوداً مشددة على مواكب العزاء في البصرة المتجهة الى كربلاء للمشاركة في احتفالات يوم الاربعين. [٣]

١- علي الوردي، لمحات اجتماعية، مصدر سابق، ج ٢، ص ١١٠ .

٢- ابراهيم الحيدري، مصدر سابق ، ص ٧١ – ٧٢ .

٣- المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢- ٧٣ .

و خلال الخمسينيات من القرن الماضي فرضت الحكومة العراقية مجددا قيوداً مشددة على مواكب العزاء الحسيني ولاسيما مواكب التطبير في البصرة و نتيجة لتلك الاجراءات اخذت مواكب التطبير بالانحسار جزئياً و اقتصرت على مجموعات صغيرة و محدودة، و من الملاحظ انه مع انتهاء الحكم الملكي في العراق كانت مراسيم العزاء الحسيني قد فقدت شيئاً من فاعليتها بوصفها اداة سياسية مع انحسار جزئي لمواكب التطبير الذي بدأ منذ الثلاثينيات .[١]

وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ اصدر عبد الكريم قاسم مرسوماً يمنع فيه اقامة مواكب التطبير بالسيوف فقط تزامناً مع دعوة بعض العلماء الشيعة المتنورين الى ضرورة تهذيب ما دخل مراسم العزاء الحسيني من ممارسات شائنة و تحويلها الى تظاهرات حضارية مفيدة، كما حاول عبد السلام عارف ايضا منع مواكب التطبير بالقامات و التضييق على مواكب العزاء الاخرى، و عندما توفي عبد السلام عارف في حادث سقوط طائرة هليكوبتر بطريقة غامضة شاع بين الناس بأنّ الحدث ما هو الا عقاب من الله لمنعه اقامة مراسيم العزاء الحسيني .[٢]

و مع توسع اهمية الاحتفالات بذكرى عاشوراء وتحولها الى حركة شعبية ذات طابع سياسي يمكن ان تسبب مخاطر كبيرة لا تحمد عقباها، حاولت الحكومة الالتفاف على المواكب الحسينية للضغط على القائمين بها و تقييد حركتها و مراقبتها و من ثمّ استغلالها سياسياً و دعائياً ففي عام ١٩٧٤ اتخذت الحكومة اجراءات لتحديد مراسم الاحتفال العاشورائي من خلال تقنين حركة المواكب و التدخل بآليات الاحتفال إذ حدد وقت قيام مواكب اللطم التي تقام سنوياً في صحن الكاظمين بساعة واحدة في اليوم كما قامت الحكومة بتعيين شاعر شعبي محدد لتقديم القصائد و المراثي الى النائحين لانشادها في مواكب اللطم، و هكذا اخذت السلطات المحلية شيئاً فشيئاً بتشديد الخناق على الشعراء و الخطباء و الرواديد و اجبارهم على ادخال بعض مبادئ حزب البعث الحاكم في الخطب و القصائد و تقديم الولاء للسلطة.

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه ، ص ٧٤ – ٧٥ .

و قد قام رئيس الجمهورية انذاك احمد حسن البكر بتوزيع "اكراميات" الى كل موكب من مواكب العزاء في الكاظمية، اما في النجف فقد منعت السلطات المحلية هناك في ليلة العاشر من محرم عام ١٩٧٥ جميع المواكب الحسينية من القيام بشعائرها و اداء طقوسها مما تسبب بمواجهات بين المواكب و الشرطة اعتقل على اثرها عدد من المشاركين في تلك المواكب بعد تحديهم وضربهم قرار المنع.

و في ليلة الاربعين في العشرين من صفر عام ١٩٧٦ قامت الحكومة بمنع مسيرة شعبية على الارجل من النجف الى كربلاء و هذه المسيرة هي من الطقوس و التقاليد الشعبية المتعارفة التي درج عليها اصحاب المواكب و العزيات منذ سنوات وعلى الرغم من قرار المنع فقد خرج الالاف في مسيرة طويلة متجهة الى كربلاء لتحدي السلطة التي منعت المسيرة .

و لم يواجه اصحاب المواكب اشرس من هذه القرارات التي حصلت في نهاية السبعينيات اذ تعتقد السلطة ان مثل هذه المظاهرات الشعبية تشكل نوعا من الخطورة عليها و انها تحصل في ظروف تحرك سياسي و شعبي قوي في تلك الحقبة.[١]

و توالت الاجراءات القمعية بحق مواكب العزاء في السنوات اللاحقة لمنعها من ممارسة طقوسها و شعائرها حتى منعت جميع انواع الاحتفالات التي كانت تقام عادة في شهري محرم و صفر من كل عام، و لا سيما يوما عاشوراء و الاربعين .

و في اثناء الحرب العراقية الايرانية اخذت الاعتقالات تتزايد و اصبحت الطقوس الحسينية تهمة سياسية لا تغفرها السلطة، و قد منعت جميع المراسيم الاحتفالية و العزاء الحسيني في جميع انحاء العراق.

ومن هذه التراكمات التاريخية بدأت ردة الفعل الشيعية على كل اجراءات المنع المتعاقبة على مدى الحقب التي اعقبت مقتل الحسين، إذ تحملت الجماعة الشيعية كل اساليب القهر والمنع والتنكيل جرّاء احياء طقوس العزاء الحسيني مما جعلها تتحين الفرصة المواتية لاستيفاء جميع ديونها التاريخية وتسوية خلافاتها مع دعاة منع الحزن والعزاء على امامهم الشهيد

١- ابراهيم الحيدري ، المصدر السابق نفسه ، ص ٧٨ .

وكما يقول المؤرخ د. إبراهيم بيضون في كتابه ثورة الحسين حدثاً وإشكاليات: "بدأ يتركب النص الحسيني على تراث الحزن، وأخذت مجالس العزاء التي انتشرت في بقاع الأرض تردد المأساة، وتضيف إليها ما يشحن النفوس ويعمّق الحقد على الظالمين الذين أراقوا دم البطل".

وعد "بيضون" أن "الكبت، الظلم النفسي، الفقر، الجبروت، الاحتلال، الاستكبار... جميعها مفردات عاشت بين ضلوع الشيعة على مدى الدهور، وما انفكت تواجه بعضهم في هذا العصر. وكلها أدت، بصورة أو بأخرى، إلى رفع وتيرة العزاء الحسيني وشحن خطابه." [1]

ومن هنا ارتبطت مراسيم العزاء الحسيني ارتباطاً وثيقاً باشكال السلطة و الشيعة و قد ذكرنا الشواهد التاريخية التي مرت بها هذه الطقوس و المراسيم و على مر العصور لنؤكد ان عملية المنع جعلت الشيعة يعتقدون ان هناك ديوناً تاريخية لهم بذمة السلطة نتيجة المنع و التضييق عليها و قد حان الوقت لاستيفائها بعد ان زالت اسباب المنع والتضييق على حرياتهم في ممارسة طقوسهم و لا سيما سقوط نظام صدام حسين الذي شهد الشيعة اقسى مراحل منع العزاء في عهده مما جعلهم ينفسون عن احتقانهم بمسيرات مليونية مشيا على الاقدام لاداء طقوسهم ومراسمهم الحسينية تعبيرا عن فرحهم بهذه الحرية التي انتظروها كثيرا .

وقد اعادت مظاهر سقوط بغداد صورا ظلت مختبئة في الذاكرة الشيعية شكلت العودة الى الماضي التراثي بعد ان تحركت الرغبة لدى الجماعة الشيعية في استقصاء جذور المنع والتهميش والاقصاء ، لان تجاوز ما حصل لن يكون سهلاً.

١- نفس المصدر السابق ، ص ٧٤ – ٧٥ .

رابعا: التظهير الشيعي للحكم بعد ٢٠٠٣:-

ان من اهم العناصر الاساسية والحاسمة في تشكل الظاهرة الشيعية بعد ٢٠٠٣ هو التغيير السياسي الذي حصل في العراق الذي افضى الى سيطرة النخبة السياسية الشيعية على غالبية مقاعد البرلمان مما اهلهم لتشكيل الحكومة أكثر من مرة ، وقد اعطى هذا التدفق الشيعي لحكم العراق دفعة قوية لانتشاء الشعور الشيعي في ممارسة طقوسه الحسينية بحرية كبيرة بعد عقود طويلة من المنع والاقصاء ابان حكم النظام السابق .

إن حصول الشيعة على قدرة سياسية دستورية و انتخابية وفقاً لنسبتهم العددية، يعني اتساع الطقوس و الشعائر و الممارسات التي كانت ممنوعة عليهم و استعمالها تعبيراً اساسياً عن الهوية الشيعية و تكريس الذات بالإضافة إلى المكاسب السياسية التي يمكنهم الحصول عليها من خلال السلطة.

مثل هذه المكاسب يمكن ان تجتمع تحت مظلتها جميع القوى الشيعية على حد سواء مستعرضين هذا الموكب المليوني الطويل الذي جاء نتيجة هذه القدرة و السلطة للتعبير عن امتدادهم ووجودهم فهناك نوع من التخادم الديني و السياسي و المصالح المشتركة التي تصب في مصلحة الطرفين، السلطة الشيعية التي تريد ان تحافظ على مكاسبها و امتيازاتها، و المجتمع الشيعي الذي يريد ان يمارس طقوسه و شعائره ليعبر عن هويته المستلبة طوال قرون.

فالسلطة الشيعية او القوى الشيعية التي اسهمت في حكم العراق بعد ٢٠٠٣ تدرك ان هذا الاستعراض الشعبي للشيعة يعد احد اهم مصادر قوتها و مسوغات بقائها، و في الوقت نفسه فان المجتمع الشيعي يدرك ايضاً ان وصول هذه القوى للسلطة يمنح هذه الممارسات و الطقوس بقائها و ديمومتها.

ان الفعل الاساسي للقوى السياسية في المراحل الاولى لانتشار الطقس فتح افاق جديدة واستيعاب الطقس والتشريع الدينيين بما يتوافق مع المصالح السياسية، وفي مراحل استقرار الطقس يبدو السعي حثيثا لتطويعه بما يتلاءم مع تلك المصالح، وهذا ما دفع القوى السياسية الشيعية الى مرافقة هذه الظاهرة الطقسية و الشعائرية

لمحاولة استثمارها و الإيحاء بالمشاركة فيها، مستغلين بذلك هيمنة المقدس على الثقافة الشيعية التي تستمد قوتها وتواصلها من تلك الشعائر والطقوس الحسينية .

ومن خلال المشاهدات الميدانية للباحث وفي أثناء مشاركته في مراسم الزيارة الأربعينية سيراً على الأقدام لعامي (٢٠١٠ ـ ٢٠١١) لم تخل المواكب و الطرقات من التوظيف السياسي للظاهرة فهناك عدد من المواكب التابعة للأحزاب الدينية العاملة في الساحة السياسية العراقية (موثق بالصور الفوتوغرافية) بالإضافة إلى الشعارت والصور التي تحاول توظيف هذه الظاهرة والإيحاء بتوجيهها نحو غايات سياسية، في حين لاحظ الباحث ان الحشد المشارك في هذه الطقوس لم يعر أي اهتمام لأجندات سياسية على الرغم من إفادته استفادته القصوى من الخدمات الأمنية والصحية والخدمية التي تقدمها الحكومة لملايين الزوار.

خامساً: الانبعاث الشيعي واثبات الهوية:-

تعددت التعريفات في ضوء المنظور الاجتماعي الثقافي لمفهوم الهوية، إذ تعرف بأنها "عبارة عن مركب من العناصر المرجعية والمادية والذاتية التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي" ، وهناك تعريف اخر يظهر العامل الديني كعاملاً اساسياً تبنى عليه الهوية، فيعرفها بأنها "جوهر وحقيقة وثوابت الامة العربية التي اصطبغت بالاسلام منذ ان دانت به غالبية الامة": وبناء على ذلك فان العادات والتقاليد والاعراف والآداب والفنون وسائر العلوم الانسانية والاجتماعية والنظرة للكون والحياة وللذات والآخرة، والتصورات الانطولوجية والسسيولوجية والسيكولوجية، ومعايير القبول والرفض هي جميعها عناصر الهوية المبنية على الدين. [1]

يرى المهتمون بالشأن الشيعي ان سقوط نظام صدام حسين سنة ٢٠٠٣، قد أتاح الشيعة الفرصة المناسبة والتاريخية لإثبات هويتهم الشيعية التي تعرضت للألغاء والتهميش والاضطهاد من الحكومات المتعاقبة على مر العصور بعد سقوط الخلافة الشيعية في الكوفة، فيحاولون الانبعاث من جديد و استغلال هذه الفرصة التاريخية كما يجدون ان افضل وسائل هذا الانبعاث ممارسة الطقوس و الشعائر الحسينية بشكل جماعي استعراضي.

في كل عام و في اليوم العاشر من شهر محرم المقدس عند الشيعة و هو اول شهر في التقويم الاسلامي الهجري يظهر المسلمون الشيعة وجهاً اخر متميزاً للاسلام. اسلام تتجلى فيه روحية العاطفة الطقوس اكثر من تجليها في الشرائع و الممارسات المألوفة التي تميز او ترسم حياة المسلمين فالساحات المفتوحة و الشوارع و الازقة الضيقة في المدن الصغيرة و الكبيرة و في القرى تمتلئ بالناس المنهمرين على المساجد، فتكتسح المعاهد الدينية والجوامع و دور العبادة، و سبب ذلك ان الشيعة في هذا اليوم يخرجون جماعات و فرادى وزرافاتٍ ووحداناً لاظهار تدينهم و معتقدهم و هويتهم الدينية.

١- الدكتور اشرف حافظ ، الهوية العربية والصراع مع الذات ، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الاردن ، ٢٠١٢ ، ط ١ ، ١٩

فلا يبقى مراقب او مشاهد في هذا اليوم، أي مناسبة عاشوراء، الا و يتأثر بهذا العرض او الاستعراض الشيعي المفعم بالولاء و الاخلاص للمعتقد و المذهب. [1]

و يبالغ الشيعة في الجانب الاستعراضي مستغلين هذه الفرصة لاستيفاء ديونهم التاريخية من الحكومات السابقة و لا سيما نظام صدام و انفتاح العراق على العالم من خلال فوضى الاعلام و انفلاته الذي فتح شهية الشاشات الفضائية على ما يجري من تحولات داخل العراق، يقول الباحث ولي نصر في مقدمة كتابه "الانبعاث الشيعي" حول هذا الموضوع: كان جهاز التلفزيون مثبتاً على فضائية CNN إذ كان معظم الناس يتابعون الاحداث في بغداد و كانت تلك التغطية الاخبارية تمر على صور و مشاهد عدد من الشبان الشيعة و هم يزدحمون بكثافة ملحوظة في ظل القبة الذهبية لمرقد الامام الحسين في كربلاء.

وقد كانوا جميعاً يرتدون القمصان السود و على جبهاتهم عصابات خضر، كان الجميع ينشدون قصيدة جنائزية رثائية حزينة على محبوبهم او معشوقهم المقدس (أي الامام الحسين) في حين كانوا يرفعون اكفهم الخالية كأنهم في صلواتٍ و دعاء نحو السماء و في نغمات متساوقة حزينة تطيح بهم احياناً إلى الارض و في ذلك دلالات تشير الى التفجع و الحداد و كذلك التضامن و جلد الذات كانت تلك الصور و المشاهد الساحرة تعبر تعبيراً كبيراً عن الابتهاج و التحدي في الوقت نفسه، فالشيعة كانوا في الشوارع و كأنهم يحملون عقيدتهم و ايمانهم و هويتهم و يرفعونها الى الاعلى ليراها الجميع، لم يشهد العراق مثل هذه المشاهد لجيل او اكثر في حين إنّ العالم اليوم يحمل شهوداً و مشاهدات تشير الى يقظة الشيعة و انبعاثهم.[2]

الشيعة في هذه اللحظة التاريخية يريدون ان يعلنوا تميزهم و انفرادهم من خلال هذه المشاهد الاستعراضية التي تراكمت في نفوسهم فان يوم عاشوراء و يوم الاربعين يجليان التميز او التفرد الشيعي، يريدون ان يعلنوا عن انفسهم و يقولوا من هم و غالبا ً ما يبالغون في ذلك بتطرفٍ كبير، من خلال اصوات و مشاهد و ايقاعات العزاء الحسيني التي

١- ولي نصر ، الانبعاث الشيعي ، دار الكتب العراقية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١١ ، ص ٤١.

٢- نفس المصدر السابق ، ص ٢٢ .

تشد المشاهد شداً كبيراً، و تعد هذه المشاهد من اهم المظاهر و الطقوس الدينية المليئة بالرمزية و المشاعر التي تكون عميقة و فاعلة و مفعمة بالروحية و المعاني المذهبية المعبرة انها تقدم تعريفاً واضحاً للشيعة و تجدد عقدهم او عهدهم مع معتقدهم و مجتمعهم. اذ تظهر اشكال الطقوس، او التمسك بها، تأكيدا للهوية خاصة في زمن الصراع الحاد والسعي لاثبات الهوية من خلال هذه الطقوس.

و يتفق المسلمون الشيعة على استحباب زيارة الاربعين في ٢٠ صفر مشياً على الاقدام معتمدين على احاديث و رويات و سير ذكرت في الفصل الثاني، اذ يتقاطر ملايين الشيعة بشكل استعراضي لاداء مراسم الزيارة الاربعينية معلنين انبعاثهم الجماعي فرقةً لها طقوسها و شعائرها، فالهوية الشيعية تعبر عن نفسها عبر هذه الممارسات الطقوسية و الشعائرية. ان الذي يضع الشيعة بعيداً عن السنة و بشكل اكثراً تأكيداً هو المناسبة العظيمة للندب و النواح حيث الاستذكار و التكفير عن الذنوب في يوم عاشوراء و الاربعين على امتداد قرون كانت الهوية الشيعية و البناء الروحي للشيعة يترعرعان و يتكاملان في ظل واقعة كربلاء.

ان ديناميكية الانبعاث الشيعي كشفت عن نفسها على المستوى الثقافي و على المستويات الدينية النقية، حين فتح سقوط صدام حسين ابواب المدن الشيعية العراقية المقدسة بدرجة لم تعهدها سنين طويلة بل عقود طويلة من السنين، ان مئات الالاف من الزوار و الحجيج صاروا يزورون النجف و الكربلاء و هم ينشئون علاقات مالية و تجارية و يدعمون الروابط الشيعية الثقافية و الدينية المتبادلة بدءاً من لبنان و حتى باكستان.

اما ماذا تعني الهوية الشيعية فسؤال يبقى مفتوحاً، فقد يعني للبعض ترك المجال مفتوحاً امام المذهب الشيعي وممارسة طقوسه تعبر عن نفسها في المجتمع و الثقافة [١].

ان الانبعاث الشيعي على المستوى الاقليمي يعني بناء هوية مشتركة لملايين الشيعة العراقيين من خلال ممارسة طقوسهم التي يعلنون بها هويتهم

١- ولي نصر ، المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٧- ٢٦٨ .

و هم يتوافدون بطريقة استعراضية مليونية لاداء مراسم الزيارة الاربعينة سيراً على الاقدام ينشدون هدفاً جمعياً مشتركاً و هو زيارة الامام الحسين التي حرموا منها طيلة عقود، فبهذه الطريقة يبرز الشيعة هوية واحدة لا يختلف عليها اثنان من اجل ان يحصدوا محصولهم في رأسمال سياسي يمكن لمثل هذه الهوية المشتركة ان تحققه لهم او تكون لازمة من لوازمه.

الشيعة الذين استجابوا لنظرية المرجع السيستاني في صياغة الرؤية الشيعية العامة و منع الشيعة من التصرف بردود الافعال على الاعمال الوحشية و الفظيعة التي ارتكبها ضدهم المتطرفون السنة، فالحرب الطائفية شرك و مصيدة كما يرى السيستاني و على الشيعة اجتنابها، لتكون ردة فعلهم تجاه هذه الاستفزازات هي الاعلان عن هويتهم بهذه الطريقة الشعائرية الجمعية، ولكن بطريقة هادئة و عقائدية لان عدوهم ليس جيرانهم و اخوانهم السنة ، و بل إنّ الذين كانوا يقتلونهم هم الاجانب من الوهابيين و التكفيريين و الصداميين [1]

وربما هذا الانبعاث الشيعي هو الذي دفع الدول العربية الى التخوف من هذه الظاهرة، إذ يرى الباحث الدكتور حيدر سعيد : ان الدول العربية الحديثة لم تواجه ظاهرة التشيع بوصفها تحديا استراتيجيا كبيرا مثلما حدث بعد سنة ٢٠٠٣ ، اذ بدأ البحث عن هوية الشيعة امرا شعبيا وكأنهم يريدون ان يتعرفوا على الشيعة لاول مرة ، وفي العموم كانت المواقف السياسية تعبر عن عدم معرفة بالشيعة ولكنها ـ قبل ذلك ـ كانت تعبر عن خوف عميق من الظاهرة الشيعية الصاعدة بعد ٢٠٠٣ . [2]

بهذا الانبعاث يظهر الولاء للمذهب من خلال ممارسة رموز واشارات تحتوي على معان طائفية وسياسية في ان واحد، وبهذا المعنى يمكن عد ظاهرة "المشّاية" احتفالا دينيا في مستواها الظاهر وسياسيا في مستوى المضمون الفكري. ففي الواقع إنّ زوار الاربعينية وهم يسيرون على الاقدام لاسابيع يستعينون بالشعائر والطقوس الحسينية لاذاعة رسالة سياسية تظهر هذا الانبعاث لاثبات الهوية، وهكذا أدّت الموضوعات الدينية وظيفة تحمل مدلولات اجتماعية وسياسية.

١ـ المصدر السابق نفسه

٢ـ حيدر سعيد،الظاهرة الشيعية، الشبكة المعلوماتية، الموقع الالكتروني: www.alrafidayn.com

سادساً: الشيعة و انتاج المعنى الديني:-

ربما يطرح تساؤل عن علاقة التقاليد و العادات بصياغة الفكر الديني داخل المجتمع،

إذ يرى بعض الباحثين في مفهوم "الدين المجتمعي" ان من الضرورة رؤية الدين ظاهرة اجتماعية، لازمت مراحل التطور البشري. وهذا الموضوع انطلق اساسا في صراع الفلسفة مع الدين ضمن مسيرة الحضارة الانسانية فأساطير الشرق القديم شكلت المحاولات الاولى لتلمس المفاهيم الاولى للوجود والمعرفة والالوهية. فنحن لا نستطيع ان نميز في تلك الحضارات اي انفصال حقيقي بين التصورات الدينية والدنيوية، وكان الدين في تلك المرحلة اوضح تجلّ لانعكاسه بوصفه ظاهرة اجتماعية، لانه اقام بنيته على تأثير الحياة الزراعية في الشرق القديم، وتداخلت طقوسه مع اشكال النشاط البشري لتنتج الهة متوافقة مع احتياجات المجتمع. كانت الالهة والمعابد رمزا مهماً لشخصية الجماعة. وقد ظهر الدين في تلك المرحلة من خلال الاسطورة التي رسمت التفكير الاجتماعي داخل الالهة، كذلك ان تعريف الاسطورة بأنها "حكاية مقدسة" ذات مضمون عميق يكشف عن معان ذات صلة بالكون والوجود وحياة الانسان، وهذا التعريف ينطبق مع تلك الفكرة. [١]

ان هناك قدرة كبيرة للتقاليد و العادات و الاعراف على تطويع الدين بشكل ينسجم مع الثقافة الاجتماعية، و لا سيما ان الدين الاسلامي جاء الى شرق المتوسط مسلحاً بثقافة كاملة. لذلك كان لابد للتقاليد الاجتماعية من ان تؤدي وظيفتها في رسم مجاله و تكييفه مع الثقافة السائدة.[٢]

ان طبيعة الدين ووظيفته من وجهة نظر مفكرين شيعة هي انتاج المعنى، فكما ان نمط انتاج الالات و وسائل الانتاج المادية مادي، فان نمط انتاج الدين يرتبط بالمعنى، أي انه يخلع معنى على ما لا يمكن ان تمنحه الوسائل الاخرى معنى. [٣]

١- ينظر: نضال الخضري، الدين المجتمعي، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى ٢٠٠٣، ص ١٥ ـ ١٦

٢- المصدر السابق نفسه ، ص ١٠.

٣- ينظر: الرفاعي، عبد الجبار، جريدة الصباح، حوار، ٢٧، jahuary، ٢٠١٠.

و يتنوع هذا المعنى بحسب تنوع الظروف و الاحوال و استعداد الاشخاص الروحي و مستوى اطلاعهم على الفكر الديني، و يركز دوركهايم على أثر الدين الاجتماعي في حفظ علائق الافراد و تعزيز اواصر التضامن الجمعي، فالدين هو نتاج العقل الجمعي و هو المجتمع، بل هو نتاج المجتمع و على الرغم من ان الدين يعد نظاماً سيميائياً كبيراً و معقداً الا ان المعاني التي ينتجها هذا النظام تشتغل على المستوى الرمزي باعلى طاقاتها ثم تتحول الى مستوى الفعل في العالم الخارجي الموضوعي.

كذلك يرى مارتن هايدغر ان الانسان هو الكائن المسكون بمشكلة منح معنى للوجود و زيادةً على مهمة الدين في انتاج المعنى، فإنّه يقدم جهازي تفسير و تأويل وهو على ما يبدو النظام العلاماتي الوحيد الذي يولد المعنى ويقوم على تفسيرة و تأويله، الدين الذي يخترق مجال الخيال فيشكله و يصوغه و يعيد تكوينه.[١]

اذن الدين هو الذي يمعنن اشياء لا حصر لها في العالم لتغدوا الالغاز والرموز من منظور الانسان المتدين ذات مضمون، فالمهمة المحورية للدين هي معننة الحياة، اما كيفية انتاج المعنى في ذلك فتحقق عبر مجموعة من الوسائل و الروافد و الميكانزمات، التي من اهمها الرموز فالانسان بطبيعته كائن رمزي و الدين متى اتسع مجال الرموز فيه كان اثرى و اعمق بمعنى ان الشخص المتدين بذلك الدين المشبع بالرمزية يستقي منها سيلاً لا ينضب من المعاني. [٢]

ان رمزية الطقس الديني تتحول داخل الدين المجتمعي الى قوة الحكم الشرعي التي تستخدم لتقويم الافراد ومدى انسجامه مع العرف الاجتماعي السائد [٣]

و اهم ما نريد ان نخلص اليه هو ان الدين منتج للمعنى وان واحدة من اهم الوسائل التي يعتمد عليها في هذا النوع من الانتاج هي الرموز، كذلك يوظف الدين الطقوس لانتاج المعنى كما يوظف التقاليد و العادات و الاعراف لانتاج معنى ديني مقدسٍ من خلال اضفائها على الرمز لذلك يلجأ الشيعة في سيرهم على الاقدام لزيارة الامام الحسين لاضفاء معانٍ عدةٍ على هذه الحركة الاجتماعية التي تكرست عبر الزمن وارتدت معاني كثيرة نتيجة الدين و رموزه.

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- ينظر: نضال الخضري، مصدر سابق ، ص ٥٣ ـ ٥٤

و ممّا يجعل الشيعة قادرين اكثر من غيرهم على انتاج المعنى هو المدرسة الاجتهادية التي ينتمون اليها، التي تأسست عبر تراكمات فقهية كثيرة اشتغل عليها علماء الشيعة و مفكروهم بالاضافة الى اشتغال المنهج الهرمنيوطيقي (التأويلي) في المدرسة الشيعية نتيجة المشتركات الكثيرة بين التصوف و التشيع .

"ان الصوفية و التشيع يشتركان كثيراً في المزاجية و الذوق فالمتصوفة شأنهم شأن الشيعة، اذ انهم يعتقدون بان هناك معاني باطنية و معاني خارجية او ظاهرية للقرآن و الاحاديث النبوية و انهم يقدسون تلك التي يعتقدون انها تمس المعنى الباطني و تمسك به او تندك فيه و مثل ائمة الشيعة كذلك فان الاولياء و القديسين الصوفيين يستمتعون او يأنسون بالموقف الخاص او التجربة الشخصية التي تأتي من معرفتهم الباطنية و قربهم من الله". [١]

كما يعد فقهاء الشيعة ورثة المعتزلة في نزعة التفلسف وحرية التفكير، ولهذا وصلوا في تطوير فقههم الى درجة كبيرة من الدقة والتشعب . ومما ساعدهم على ذلك انهم لم يسدوا باب الاجتهاد في الفقه . ومن يشهد حلقات الدراسة عندهم قد يعجب بما يجد فيها من مجادلات فقهية عميقة تصل الى مدى بعيد من حرية التفكير وسعة الاجتهاد. [٢]

وانطلاقا من هذه المدرسة الاجتهادية لفقهاء الشيعة فانهم يخلعون معاني عديدة على كثير من الحركات و الرموز التي يؤدونها في اثناء سيرهم الى كربلاء لتأخذ هذه الحركات و الرموز معاني روحية و دينية تتسم بالقداسة فيما بعد. وقد يحيا الحدث التاريخي ويتحول الى حادثة معيشة وخبرة فكرية ـ روحية حية ، ان احياء الذكرى يستدعي خبرة ذهنية تستحضر الحدث الماضي بقوة الرموز الطقسية فتضفي عليه معاني جديدة في سياق الحاضر، اذ تنبثق قوة الاحتفالات التذكارية من المعنى النمطي الذي يضفيه عليها المسلمون الشيعة .[٣]

١- ولي نصر ،مصدر سابق ، ص ٨٩ .

٢- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ،مصدر سابق ، ص ٢٣١

٣- روبير بندكتي ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ .

وقد يلعب التأويل هنا لعبته عند المفكرين الشيعة الذين يمعننون الذكرى لتلبس لباس الواقع المعاصر، وقد صاغ المرجع الشيعي محمد حسين فضل الله، المضمون الفكري لهذه الخبرة الذهنية في العبارات الآتية: "اننا نحب الحسين ونعيش حضوره فهو ليس بعيدا عنا في مدى القرون، لكننا نشعر بأنه معنا" [١]

كما يُعدّ المرجع الشيعي موسى الصدر، معركة كربلاء بمثابة "النمط العريض لتاريخ التشيع، إذ يشكل عاشوراء صفحة من هذا التاريخ، ذلك الخط الشاق المأساوي الذي جعله رغم قلة اصحابه مذهب الرفض او المخالفة او المعارضة في اطار الالتزام الاسلامي بالنصوص والمتجدد بالاجتهاد" ويستطرد الصدر قائلا: "ان كل تاريخ المسلمين الشيعة كان ولا يزال كناية عن معركة وتمرد وثورة منذ حركة التوابين وحتى العصر الراهن، فالمعركة رسالية مرتبطة بالماضي واصلة المستقبل الى الماضي، ان استمرار عاشوراء في التاريخ يجعل الحدث يتجدد مع كل سنة".

يتلاقى المرجعان الشيعيان في ابراز الفكرة القائلة، ان الرموز الشعائرية العاشورائية تمتاز بالقدرة على استحضار الحدث الماضي وتأويله بأضفاء معنى راهن عليه.[٢]

في حين يرى الدكتور علي الوردي ان العامة من الناس بوجه عام ميالون للخرافة في شؤونهم الدينية. وكثيرا ما يبتدعون طقوسا وعقائد جديدة، بحسب مقتضيات ظروفهم وحاجاتهم النفسية والاجتماعية. والملاحظ ان فقهاء الشيعة يدركون ذلك في اكثر الاحيان، ولكنهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا ازاءه. ويخلص الدكتور الوردي الى القول "حين نرى العامة يميلون الى ابتداع عقائد وطقوس دينية جديدة لا يجوز ان نلومهم في ذلك، فهم مضطرون اليه لكي يواجهوا به الاخطار والمشاكل التي يعانونها في حياتهم . [٣]

١- جريدة النهار اللبنانية ،عدد يوم ١٥ اذار، ٢٠٠٣، ص ٦ .

٢- روبير بندكتي، مصدر سابق ، ص ٨٤ .

٣- علي الوردي ، مصدر سابق ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

سابعاً: الكرم في طبيعة المجتمع العراقي:-

ربما تعود ظاهرة انتعاش ظاهرة المشّاية في العراق الى طبيعة المجتمع العراقي المعروف عنه اسرافه في قيم الكرم وحسن الضيافة، مثلها مثل الطقوس والعادات الأخرى .

ومنذ ان اخذت مجالس التعزية تنمو وتنتشر في العراق في عهد الوالي علي رضا باشا ـ عام ١٨٣٢، كان من اسباب انتشارها انها اصبحت رمزا للوجاهة في المجتمع فصار كل رجل يمتلك شيئا من الثروة ميالا إلى ان يقيم مجلسا في داره يقدم به الطعام والشراب لكي يرفع به منزلته الاجتماعية، والرجل الذي يترأس موكبا او يمشي امامه او ينوح فيه يشعر بشيء من الشموخ والأبهة من جراء ما يحيط به من جماهير تنظر اليه [١]

وخلال اقامة مواكب العزاء يقيم وجهاء البلد والاغنياء ولائم غذاء وعشاء عامة، الى جانب الولائم التي تقيمها المواكب، التي تقوم بتقديم الرز والمرق، وتسمى وجبة الاكل التقليدية في العراق "تمن وقيمه".[٢]

وفي الواقع يحدث احيانا تبذير واسراف في تقديم الطعام، والهدف من ذلك ليس الحصول على الاجر والثواب فحسب، بل الامل في جلب الرزق والبركة والعافية وكذلك رفع مكانة الشخص الاجتماعية وسمعته بين الناس، ذلك أن ظاهرة "المشّاية" لاداء مراسم الزيارة الاربعينية بحد ذاتها لا يمكن أن تحدث في مجتمعات أخرى لا تستوعب بعض الأعراف السائدة في المجتمع العراقي، إذ أن توافد أعداد هائلة من الزائرين من كل حدب وصوب للسير أياما وربما شهرا كاملا عبر مختلف الطرقات المؤدية إلى كربلاء، يستدعي تزويدهم عبر هذه المدة في مختلف محطاتهم بالطعام وأماكن الراحة والنوم، التي يعتمد توفيرها على كرم الناس في المناطق التي يعبر بها هؤلاء الزائرون، وعلى إيمانهم بواجب إكرام "الزائر" ودعوته إلى مشاركتهم البيت والمائدة، عادين هذه المشاركة نوعا من البركة التي تحل عليهم.

١- علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج ٢ ، دار الكتاب الاسلامي ، ٢٠٠٥ ، ص١١٩

٢- ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ١٣٣

ولعل لهذا الإيمان جذوراً متأصلة في المجتمع العراقي عبر التاريخ و أن هذا الكرم يدخل ضمن نطاق الطبيعة الإجتماعية للشخصية العراقية، إذ يرى الدكتور علي الوردي أن الضيافة والكرم لدى أهل الريف و أهل البداوة تؤدي وظيفة اجتماعية مهمة، إذ لا يزال كثيراً من وجهاء المدن الكبيرة يستمدون مكانتهم العالية من كثرة ولائمهم وكثرة المدعووين إليها، وهذا تراث بدوي قديم، إن مضيف البدوي في العراق مفتوح دائما، والطعام يقدم فيه لكل ضيف او قاصد، إذ يلاقي الترحاب والبشاشة ، فصاحب المضيف يحاول ان يدس اللقمة بعد اللقمة بفم الضيف. [1]

ان هذه الطريقة في الكرم تثبت في الواقع نزعة التفاخر البدوية التي ما تزال كامنة في نفوس المجتمع العراقي، و تعبر عن القيم والدوافع الدينية التي تجعل هذه الصفات اكثر رسوخا، لذلك نرى نجاح ظاهرة المشي لمسافات طويلة عبر هذه المناطق التي يمتزج في عاداتها السسيولوجي بالديني، فأهل المدن العراقية ووفقا لعاداتهم الاجتماعية وموروثهم البدوي يجدون ان اكرام هؤلاء الضيوف ـ الزوار ـ واجب عليهم ، اذ يوجد سبب اخر بالاضافة الى طبيعتهم البدوية يحتم عليهم المبالغة في هذا الكرم والسخاء وهو الدافع الديني المشترك ـ الثواب في بذل الطعام والشراب وخدمة زوار الحسين ـ لذلك فإنّ وجود اكثر من دافع للكرم يعود لطبيعة المجتمع العراقي، ولو افترضنا ان طريق هؤلاء الزوار الذين يسيرون لاداء الزيارة الاربعينية ، يمر في مدن ايرانية ، هل سيقوم المجتمع الايراني بمنح الزائر الحافي والمتعرق غطاءه الذي ينام عليه ويستضيفه في غرفة نومه ويتوسع في بناء بيته خدمة للزوار ؟

ان العقائد والطقوس الدينية تختلف من شعب الى اخر لكنها موجودة في جميع الشعوب على اي حال، إن مظاهر التدين لا يمكن ان تكون متماثلة في جميع البشر فهي تتنوع بحسب تنوع الثقافات والعادات الاجتماعية فيها، فاذا ظهر دين في قوم من الأقوام وجدناهم لا يستطيعون ان يحافظوا على تعاليمه الاولى مدة طويلة من الزمن، انهم مضطرون ان يغيروا فيها او يطوروها لكي تلائم ظروفهم المستجدة، وهذا من وجهة النظر الاجتماعية امر طبيعي لا يمكن تجنبه.

١- علي الوردي، مصدر سابق ،ص ٢٧٠ .

إن التدين في البادية منسجم متكيف مع الثقافة الاجتماعية السائدة هناك، فما دامت الثقافة البدوية ذات طابع قائم على التفاخر والكرم وحسن الضيافة، فلابد ان يكون التدين البدوي متأثرا بهذا الطابع، وعندما تنتقل القبائل البدوية إلى الريف العراقي، نجد تدينها يأخذ في التغير تدريجيا بحسب الظروف الجديدة التي لم يكن للقبائل البدوية بها عهد من قبل. [١]

الدين ظاهرة اجتماعية لازمت مراحل التطور البشري، تتداخل طقوسه مع اشكال النشاط البشري لتنتج آلهة متوافقة مع احتياجات المجتمع، فالبشر دائما يحاولون انسنة الاله، منذ القدم، فعشتار هي آلهة الخصب، وتموز هو للفداء، وهكذا، فقد كانت الالهة والمعابد رمزا مهماً لشخصية الجماعة، وحتى التكوين الاسطوري لم يحاول تقديم دين مجرد، او البحث في طقس مستقل عن صورة الحياة كما يقدمها للانسان. وتتمثل لدى اي حركة اجتماعية طقوسها الخاصة التي تخلق حالة العصبية بين المجتمعين، وتنتقل هذه الطقوس الى الدين المجتمعي، لتعبر عن انتقال بين زمنين، لتكون ثقافة جديدة بالمقارنة مع الثقافة القديمة لتأخذ هذه الطقوس رمزية مقدسة تتشت مع انتصار الحركة الاجتماعية، وسعيها الى ايجاد آليات لتكريس انتصارها، فالطقس يعيد تشكيله المجتمع على وفق آليات داخلية تكون اطار "الدين المجتمعي" واحتياجات الحياة التي تقوم بتأطير الطقس بما يتناسب مع الاوضاع الثقافية للمجتمعات .[٢]

واذا اردنا تطبيق رؤية الدين المجتمعي على الطقس عند الجماعة الشيعية ،فأننا نجد ان احدى الوضعيات الاساسية للطقس تأتي مع انتصار الحركة الاجتماعية او الدينية، إذ يفقد الطقس وضعيته التغيرية ، ليشكل الثقافة الخاصة بانتصار الحركة ، فهو يوجِد في هذه الحالة مرجعية معرفية تسعى الى استثمار انتصار الحالة في المجتمع .

وإننا نجد ان الحسين الشهيد هو رمز الكرم والتضحية عند الجماعة الشيعية، وظاهرة المشّابة عندهم جاءت كممارسة اجتماعياً وتعبيراً عن حالة الكرم والسخاء من خلال البذل والمشاركة.

١- علي الوردي ، مصدر سابق ، ص ٢٢٢ .

٢- نضال الخضري، مصدر سابق ، ص١٠ .

المبحث الثالث: "المشّاية" وظاهرة القديس بيسو.. مقارنة دلالية. (*)

قد لا تكون الطقوس والشعائر الدينية في أي مجتمع تعبيرا دينيا مجردا من الخلفيات، إذ أنها في كثير من الحالات تتحول إلى هوية اجتماعية تندرج ضمن الممارسة الجماعية وتتغذى على نظرية السلوك الجمعي الذي ينتقل من جيل إلى جيل ويترسخ في الذاكرة الشعبية عبر الزمن.

ورغم اختلاف الديانات، فإنه من الملاحظ أن كثيرا من الطقوس والشعائر تكرر نفسها في كل منها بشكل يكاد يكون متطابقا، بحيث يمكن بسهولة مقارنة هذه الظواهر ببعضها، بغية إيجاد أسباب تشابهها وتطابقها ومن أجل تحليل مفاهيمها ودلالاتها المرتبطة عادة بالسلوك الجمعي لأفراد الطائفة الدينية المعنية بها في كل أنواع الأداء الجمعي الديني مثل: الصلاة، والصوم و الاحتفالات والأعياد والزيارات الدينية، ولعل هذه الأخيرة تشكل أحدى أهم الظواهر التي تمكّن الباحث من دراسة السلوك الجمعي لمختلف الطوائف والديانات نظريا وتطبيقيا.

اولاً: دلالة "الزيارة" الدينية:-

إن ظاهرة "الزيارات الدينية" تكاد تكون من أكثر الظواهر الشعائرية الملاحظة في التطبيق الديني الجماعي المنظم في مختلف الديانات: الإسلام - المسيحية - اليهودية، وحتى لدى البوذيين والهندوس، فالزيارة ليست أداءً روحيا جماعيا معزولا مثل العيد أو الصلاة، إنما هي أيضا أداء جسدي له نطاق جغرافي ونطاق زمني غالبا، حيث ترتبط بمكان وزمان واحد، يقصده الزوّار لهدف روحي مقدس يتمثل في إحياء ذكرى لها علاقة بمتغير زمني ثابت وبمتغير مكاني معين في آن معا، وقد كان من الطبيعي أن تثير هذه الطقوس والمراسم الدينية اهتمام علماء الاجتماع الذين حاولوا دراستها والتوصل إلى الاحاطة بدلالاتها الاجتماعية، إذ قام روبرت هرتز (١٨٨١- ١٩١٥) عالم الاجتماع الفرنسي وتلميذ دوركهايم بإصدار أول دراسة في علم الاجتماع لطقوس "الزيارة الدينية" وقد درس فيها ظاهرة زيارة ضريح مقدس في جبال الألب من طرف السكان المحليين المسيحيين، وذلك عام ١٩١٣، وكانت هذه الدراسة تحت عنوان: "القديس بيسو: دراسة دينية ألبية"

st besse : étude d'un culte alpestre

(*) راجع ملحق الصور – صورة رقم (١-٥)

وكان الهدف من هذه الدراسة بحسب ما يشير إليه هرتز في بحثه هو تفسير هذا "التنظيم الاجتماعي" الخاص الذي يجعل الناس من مختلف المناطق يجتمعون في كنيسة القديس بيسو كل سنة، ولماذا في هذا المكان بالذات؟ ومن اين يأتي الاعتقاد بوجود قوة غامضة في هذه الطقوس .[١]

وإن هذا التساؤل الذي يطرحه أحد تلاميذ دوركاييم المقربين في بحثه الطليعي الذي رسخّ فيه مفهوم "الأداء الجماعي لزيارة دينية"، الذي جعله يقوم عام ١٩١٢ بدراسة ميدانية للكنيسة التي تحتوي على ضريح القديس بيسو لمشاهدة الطقس الكاثوليكي المقام كل سنة، شكل بداية لمحاولة فهم علاقة المعتقدات الدينية بالخلفيات الإجتماعية والنفسية والسياسية والتاريخية، وقد قام بالاستناد الى ست نقاط أساسية في مهمته هذه، وهي التي أوردها الباحث نيقولا ماريوت في ملفه المعنون "أرشيف القديس بيسو : شروط قبول البحث المباشر في الوسط الدوركايمي"

إذ يرى ماريوت أن هذه النقاط تتمثل في

١- دراسة الوسط السوسيوجغرافي للطقس: milieu sociogéographique
٢- شرح فكرة " الولاء" للطقس الذي يحيط بالأداء الجمعي للزيارة.
٣- دراسة المجتمع العقائدي المرتبط بالطقس الديني.
٤- دراسة الوجود التاريخي للقديس بيسو في المنطقة.
٥- تحليل الأسطورة المنسوجة حول الطقس الديني.
٦- استخلاص طريقة تكوّن الطقس الاجتماعي الديني.[٢]

إن هذه النقط التي تطرق إليها هرتز في دراسته التي طرحها ماريوت في تحليله لهذه الدراسة تتضمن العناصر الثلاثة التي يمكن المقارنة في سياقها بين طقوس زيارة القديس بيسو لدى المجتمع المسيحي الكاثوليكي ودراسة مراسيم الزيارة الأربعينية لدى المجتمع المسلم الشيعي خلال هذا البحث. والتي تتمثل في:

- تشابه الوسط السوسيوجغرافي والولاء للهوية الاجتماعية بين زوّار الامام الحسين وزوار القديس بيسو.

١- روبرت هرتز "القديس بيسو: دراسة دينية ألبية"، مكتبة السوسيولوجيا المعاصرة، فرنسا، باريس ١٩٢٨، ص ١٩٥

٢- نيكولا ماريوت "أرشيف القديس بيسو: شروط قبول البحث المباشر في الوسط الدوركايمي"، مجلة جناز للعلوم الاجتماعية والتاريخ، عدد ٦٣، فرنسا، باريس، ٢٠٠٦، ص٨٠

- تحليل الأسطورة المنسوجة عن الطقس الديني.
- استخلاص طريقة تكوّن الطقس الديني.

ولكن قبل البدء في المقارنة الدلالية بين الظاهرتين، من الضروري أن نحدد من هو القديس بيسو أولا، وما طقوس زيارته ثانيا، لتقريب صورة هذه الشخصية المغمورة التي استطاعت أن تشكل ظاهرة دينية مثيرة للاهتمام وللبحث الاجتماعي التي تتشابه في نقط كثيرة مع ظاهرة دينية كبيرة تتمركز حول شخصية الإمام الحسين عند المسلمين الشيعة.

ثانياً: القديس بيسو وطقوس زيارته:-

يعد القديس بيسو من الشخصيات التاريخية والأسطورية المقدسة عند الطائفة الكاثوليكية، إذ تتعدد الروايات عنه وتتضارب أحيانا، غير أن أغلبية المصادر تجزم أنه "شهيد شرّف المنطقة بدمه الثمين"[1]

بعد أن تعرض لامتحانات قاسية وعجيبة، فقد كان جنديا ضمن جنود "فيلق طيبة" Légion thébéenne، الذين صدر قرار بإعدامهم من الامبراطور ماكسيميان عام ٢٨٦ ، وقد استطاع القديس بيسو الهرب والتجأ الى جبال وادي صوانا val soana و يرى البعض أن القديس بيسو كان ناسكا متعبدا يستجاب دعاؤه في الشفاء من الأمراض وقضاء الحوائج،كما تقول الروايات أن القديس بيسو نذر نفسه لنشر الدين المسيحي وتعاليمه، حتى قتل بطريقة بشعة من طرف جنود الامبراطور ودفن تحت صخرة في جبال الألب. وبهذا أصبح يجسد لدى الطائفة الكاثوليكية فكرة "البطل الشهيد" الذي حمل قضية الدين وحارب من أجله قضيته وإعلاء رايته.[2]

وهكذا بنيت كنيسة على ضريحه تحتضنها تلك الصخرة فيما بعد، وتحولت إلى مزار.

١- روبرت هرتز، السوسيولوجيا الدينية والفلكلور، سلسلة كلاسيكيات علم الاجتماع، جامعة الكيبيك، كندا، الكيبيك، ٢٠٠٣، الطبعة الثالثة، ص ١٢٢

٢- ينظر المصدر السابق، ص ١٢٢

طقوس زيارة القديس بيسو:-

في العاشر من أغسطس من كل سنة يحج آلاف من المريدين إلى كنيسة القديس بيسو الواقعة في جبال الألب للإحتفاء بذكرى استشهاده وذلك أعلى قمة "فونتينو" fautenio التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ متر، والواقعة في وادي "صوانا" Soana val وهو واد ينتمي إلى سلسلة جبال "الفردوس الكبير" في منطقة الألب بين فرنسا وإيطاليا. ويعتقد تاريخيا أن احتفالية القديس بيسو الأصلية يفترض أن تقام في الأول من شهر ديسمبر، لكن بسبب الثلوج وصعوبة الوصول إلى مزاره شتاءً تم غيِّرَ التاريخ إلى العاشر من شهر أغسطس. ويقصد الزوار الكنيسة في كل سنة مشيا على الأقدام لساعات طويلة، يشقون طريقا جبليا صعبا برفقة نسائهم وأطفالهم، قادمين من خمسمناطق مختلفة تتموقع حول مكانها الجبلي. ويقول هرتز في دراسته أن "الحج إلى كنيسة القديس بيسو يعد في حد ذاته تضحية من طرف الزوار.. فللوصول إلى الكنيسة يجب المشي لثماني أو تسع ساعات قبل بلوغ القديس بيسو، في طريق غير مريح" [١] وتبدأ طقوس الاحتفال عند وصول الزوار مباشرة، حيث تكون الكنيسة مزينة بالأضواء والأعلام والألوان، ويبدأ القسيس بإلقاء موعظته الدينية مذكرا بقصص ومآثر القديس بيسو، أما الطقس الرئيس فهو "الموكب" procession والمتمثل في خروج الزوار وتجمهرهم أمام باب الكنيسة في شكل مجموعات مقسمة بحسب السن والجنس و الرتبة الدينية، ويقوم الجميع بشكل منظم بالدوران من اليسار إلى اليمين مرددين الأدعية والصلوات حول الصخرة التي تحوي الكنيسة قبل العودة إلى داخلها. ويحمل الموكب هيكلا خشبيا مزينا بالأقمشة والشرائط الملونة بألوان زاهية، وترتدي الفتيات هذه الشرائط بوصفها دلالات على جوائز وانتصارات القديس" ويحمل "الفوياس" FOUÏACES أو الخبز المقدس الذي يعتقد أنه يجلب للفتاة التي تحمله وتوزعه الزواج السعيد. وعند انتهاء الموكب يوزع هذا الخبز المصنوع من القمح والزعفران على كل الزوار المشاركين في الاحتفالية.[٢]

كما أنَّ من مظاهر وطقوس الإحتفال أن تقوم أبرشية كامبيجليا campiglia التابعة للمنطقة

١- ينظر: نفس المصدر السابق، ص ١٠٨
٢- ينظر: نفس المصدر السابق، ص ١٠٩

بإعارة الرسومات التي تمثل شخصيات مقدسة والرايات التي تحمل شعارات مسيحية لتستعمل في أثناء الإحتفال.

ويجسد القديس بيسو أثناء طقوس الإحتفال بكامل زي الجندي الروماني وهو يمسك في يده "سعفة الشهيد"، في حين يحمل هذا التمثال أربعة أو ثمانية شبان. وحين ادخاله إلى الكنيسة فإن الزوار يتدافعون لتقبيل أقدامه وأخذ بركاته. كما كانوا يأخذون قديما بعضا من فتات الصليب الخشبي الذي كان موضوعا أعلى الكنيسة، قبل أن يتم تغييره بآخر من الحديد، أما البعض فيفضل أخذ شذرات من "حجارة القديس بيسو" أي من حجارة صخرة الكنيسة، ويعتقد أن هذه الصخور تملك قدرات عجيبة، إذ يتم الاحتفاظ بها في البيت أو تُحملُ في الحروب أو توضع في ماء ليشرب منه المريض، بل يمكن أن يوضع القليل من غبارها في طعام هذا الأخير لتعجيل الشفاء. إذ يقول هرتز أن هذه الحجارة تعد "دواءً إلهيا" يجب أن يرتبط حسب الأقوال المحلية "بعدم السخرية وامتلاك الإيمان والثقة". [1]

كما يقدم الزوار هدايا من ممتلكاتهم للكنيسة في الأحد الذي يسبق العاشر من شهر أوت كل سنة، وتكون عبارة عن غنم أو ثياب أو غيرها، وتجمع تلك الهدايا لتباع في مزاد علني يذهب ريعه إلى خزينة الأعمال الخيرية. كما تباع الرايات والصور التي ترتبط بالمناسبة، بل يقوم بعض الزوار بحك ظهورهم بالصخرة التي تضم الكنيسة طلبا للشفاء من آلامهم وأمراضهم أو للإنجاب.

ومن كل ما سبق نلاحظ أن ظاهرة القديس بيسو هي ظاهرة دينية احتفالية نشأت في مجتمع ذي جماهير متجانسة طائفيا، تقوم بأداء ديني روحي من خلال زيارة مقدسة. ويقول عنها هرتز: "إذا كان هؤلاء الزوار بالرغم من كل الصعاب يصرون على المجيء إلى الجبل، فإن ذلك يحصل لأن أجدادهم القدامى حوّلوا هذه الصخرة إلى نقطة ارتكاز حياتهم الجماعية ".[2]

ويضيف هرتز واصفا الحالة الروحية للسلوك الجمعي الديني لزوار القديس بيسو لقرون من الزمن: "قام القديس بيسو بتعليم مريديه كيف يرتفعون ولو للحظات أعلى من الأفق الضيق لحياتهم اليومية".[3]

١- ينظر: المصدر السابق نفسه ، ص ١١١
٢- ينظر: المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٨
٣- ينظر: المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٩

ثالثاً: المقارنة الدلالية بين المشّاية وزوار القديس بيسو:-

إن المقارنة بين أي ظاهرتين تعتمد على استخلاص النقاط الأساسية في تكوينهما الظاهر والباطن، وهنا يمكن تحليل هذا التشابه في شكل نقاط معينة تتقاطع مفاهيمها بين مجتمعين متجانسين كلاهما ينتمي إلى المرحلة الأولى من مراحل تشكل الجماهير المتجانسة وهي "الطائفة" والتي يعرفها غوستاف لوبون في كتابه سايكولوجيا بأنها: "تحتوي على أفراد من ثقافات ومهن وأوساط مختلفة جدا أحيانا، وليس بينها من رابطة وحيدة إلا العقيدة والإيمان".[1]

غير أن هذه النظرية تؤدي إلى عرض السؤال من خلال ملاحظة المجتمعين المشمولين في عينة البحث، وهذا السؤال هو: لماذا هناك تأثير أكبر للظاهرتين في مناطق معينة تتمركز جغرافيا حول المزارات لهذين المجتمعين بخلاف مناطق أخرى على الرغم من وحدة البنية الطائفية الموجودة بينها ؟

هذا السؤال هو ما يستعرض أهم نقطة في المقارنة الدلالية:

اولاً: دراسة الوسط السوسيوجغرافي للطقس:-

يعتقد هرتز أن هناك علاقة وطيدة بين الموقع الجغرافي والطقس الديني، إذ أن المناطق التي تشكل تقاطعات للطرق تكون مراكز للتيارات الإجتماعية ومن ثم تنتج بؤرا مهمة لتطور الحياة الدينية.

وقد لاحظ أن ظاهرة الاحتفال بالقديس بيسو تشمل خمسة مجتمعات مختلفة :

١- كامبيجليا CAMPIGLIA
٢- رونكو RONCO
٣- فالبراتو VALPRATO
٤- انجريا INGRIA
٥- كون COGNE

جميع هذه المناطق تقع ضمن الحدود الإيطالية من جبال الألب عدا "كون" التي تقع داخل الحدود الفرنسية.

١- غوستاف لوبون، سايكولوجيا الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي بيروت لبنان، ١٩٩١،ص١٦٠

وتتقاسم هذه المناطق بشكل دوري تنظيم الاحتفال كل سنة، وعلى الرغم من ما يبدو من هدوء عليها وعلى امتدادها الجغرافي إلا أنها في الحقيقة تاريخيا كانت منطقة توتر شديد وشهدت حروبا كثيرة ونزاعات متعددة.[١]

ويقول هرتز في بحثه الميداني أن هذه المجتمعات الخمسة تشكلت من "مجموعة قبائل متفرقة رعوية ونهّابة كانت تحتل المنطقة بين "دوار" doire وأوركو orco وألقى عليها اسم السالسيين les salasses.[٢]

وهذا التعريف الذي يقدمه هرتز هنا يحيل إلى تعريف الدكتور علي الوردي لطبيعة المجتمع العراقي حين يصف البدوي بأنه "وهّاب نهّاب".[٣]

ومع أن هناك اختلافا كبيرا بين مجتمع بحث هرتز "السالسيين" والمجتمع العراقي من الناحية الطبيعية والإنسانية، إلا أنه يمكن أن نلاحظ أن كلا المجتمعين على الرغم من التباعد الجغرافي والديني والزمني متشكلين من بنية قبلية رعوية و مرّا بظروف تاريخية وسياسية أدت إلى وجود نزاعات على أرضها ومحاولات لطمس هويتها الخاصة من طرف التدخلات الأجنبية، إذ يقول هرتز إن "السالسيين" ابدوا مقاومة عنيدة ضد توغلات الغزو المدمرة في منطقتهم طوال ١٥٠ عاما من الكفاح " [٤]

ولما كان الطقس الديني هو جزء من الهوية المحلية لأي فئة مجتمعية، فإنه يمكن أن نستنتج أن الحفاظ عليه هو جزءاً من المقاومة العنيدة التي أبداها السكان المحليون ضد الغزو الخارجي لحماية وجودهم، وهو الهدف نفسه الذي يتمسك به الزوار الشيعة في مراسم الزيارة الأربعينية، التي تتحول إلى طريقة لإثبات الهوية الشيعية التي عانت من محاولات الطمس ومن تبعات الاضطهاد الطائفي لحقب طويلة تاريخيا، إن فكرة التطرق لدراسة "السوسيوجغرافيا" التي تشكل أول نقطة في بحث هرتز، تشكل أهم نقطة "اجتماعية" على الإطلاق في المقارنة بين الطقوس الدينية التي تعتمد على "الزيارة" بوصفها أداء ذا تعبير ديني، فهي تتضمن علاقة علم الاجتماع بالارتباط الجغرافي والتاريخي بين أفراد المجتمع الواحد.

١- روبرت هرتز، مصدر سابق، ص ١٢١

٢- ينظر المصدر السابق، ص ١٠٤

٣- د.علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مصدر سابق، ص٣٩

٤- روبرت هرتز، مصدر سابق، ص ١٠٤

ويمكن تفسير هذا الارتباط بين الطقس الجماعي الديني ومحاولة الحفاظ على الهوية لدى كل من المجتمع المسلم الشيعي والمجتمع السالسي من خلال نظرية السلوك الجمعي. إذ أنه يندرج ضمن أنواعها: سلوك ما يسمى بـ "الذعر الجماعي" والمعرف لدى علماء الإجتماع بكونه شكلاً من أشكال السلوك الجمعي الذي يواجه فيه الناس خطرا محققا، فيتصرفون من وحي ذلك الخطر المحدق بهم ... ويحصل هذا الذعر الجماعي عندما يضطرب العرف الإجتماعي المألوف بسبب حدوث حالة استثنائية مثل الزلزال أو الفيضان أو الحريق الواسع أو الاحتلال العسكري ".[١]

إذن: حالة الذعر الجماعي من الاحتلال العسكري وضياع الهوية المحلية هي ما يفسر السلوك الجمعي الديني المتقاطع بين مجتمع مسلم شيعي وبين مجتمع مسيحي كاثوليكي، كون الأداء الديني جزءاً من الهوية العامة، فكما يقول روبير بندكتي: "يظهر الولاء للمجتمع المحلي من خلال ممارسة رموز وإشارات تحتوي على معان طائفية ومدنية مقدسة ودهرين في آن واحد، إن تداخل هذين المجالين السيميائيين في عملية اجتماعية نفسية مركبة يبين إندماجهما في تكوين المجتمع المحلي".[٢]

ثانياً: تحليل و مقارنة الأسطورة في الطقس الديني:

في كل أداء جماعي هناك ذاكرة جمعية تستحضر لتكون نقطة ارتكاز للفعل المرسخ تاريخيا في أي مجتمع، هذه الذاكرة تركت أثراً كبيرا على مر العصور في صناعة المادة الثقافية التراثية المرتبطة بالهوية المحلية للشعوب، فالحكايات الشعبية والأساطير أسهمت في الحفاظ على الموروث القديم الذي أصبح يملك بعدا دلاليا أكبر من سرد مجرد شفوي متناقل، فهي تحولت عبر مرور الزمن إلى أداة اثبات لوجود المجتمعات واستمرارية حفاظها على بنيتها.

و الميثولوجيا بوصفها مادة من مواد الموروث المحلي، لعبت أثرت عبر التاريخ في تحديد الهويات الإنسانية وفي تغذية الذاكرة الجماعية تضمن حماية المادة الميثولوجية وبشكل خاص الأساطير والحكايات، من الاندثار والنسيان

١- شبكة النبأ المعلوماتية: مصدرالكتروني: http://www.annabaa.org/nbanews/٦٤/٣٠٣.htm

٢- روبير بندكتي، مصدر سابق، ص ٧٦

من خلال تناقلها وترسيخها في الضمير الجمعي، ويعرّف عالم الإجتماع الأمريكي تالكوت بارسنز TALCOTT PARSONS الأسطورة بأنها "نمط اعتقاد مقدس يقبله المجتمع بشكل عام وغير شعوري لأنه يرتبط بدينه أو تاريخه" [١]

إن هذا التعريف يشرح ترسخ معنى "الأسطورة " في العينتين المدروستين لكونهما تتضمنان العاملين الأساسيين الضروريين لتقبل العقل الجمعي لا شعوريا للأسطورة وهما: الدين والتاريخ.

فالقديس بيسو تاريخيا لا يمكن إيجاد حقائق وتفاصيل دقيقة عنه إلا من خلال الأساطير والحكايات التي تروى في المنطقة التي تحتفل باستشهاده كل سنة، وهو يتخذ الشكل الكلاسيكي للبطل الأسطوري: المحارب ضد الشر الذي يخلص الناس من قبضة الظلم ويساعدهم في حياتهم ويستشهد في النهاية، إنه يحمل نفسها صفات الإمام الحسين في الذاكرة الشعبية الشيعية مع اختلاف تفصيلي، كون الإمام شخصية واقعية أكثر ثراءً من ناحية التفاصيل التاريخية وذات وجود مؤكد ومثبت في جميع المراجع، غير أنهما من حيث المبدأ قد ينطبق عليهما تعريف علم الاجتماع لشخصية البطل التي تصفة بأنه:

"فرد أسطوري أو حقيقي، حي أو ميت، يرمز إلى جانب مهم من جوانب القيم السائدة في ثقافة أو ثقافة فرعية معينة، وجدير بالذكر أن الفرد الذي أصبح بطلا يمكن أن يكون حقق المزايا التي ارتبطت به أو لم يحققها، ولكن الأشخاص الذين يقدسونه في كلتا الحالتين ينظرون إليه بوصفه كائنا ساميا أو مخلوقا متفوقا، أو روحا خارقة للعادة، ولذلك يرتبط دائما في أذهان أعضاء الجماعة البشرية بالمثال والقدوة " [٢]

بالإضافة إلى ذلك نجد أن تعريف البطل في الأسطورة ينطبق أيضا على الشخصيتين معا، فكلاهما: "البطل القادر على تحقيق طموحات المجتمعات البدائية والذود عنها ... إن البطل يقوم بدور تحتاجه الجماعة لتحقيق العدل و طموحات الأمة" [٣]

١- تالكوت بارسنز، النظام الاجتماعي، مطبعة جلينكو، نيويورك الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٥٧، THE SOCIAL SYSTEM GLENCOE NEW YORK ، ص ٨٣.

٢- للدكتور حسين علي محمد، "البطل في المسرح الشعري المُعاصر"، الشبكة المعلوماتية، الموقع الالكتروني: http://www.anhaar.com/vb/showthread.php?t=٢١٦٦٩&page=٢

٣- ينظر المصدر السابق نفسه ، مصدر الكتروني

إن هذين التعريفين يقودان إلى تحقيق تطابق الصورة الاسطورية للفارس المخلص بين المجتمعين المدروسين، فصورة القديس بيسو و صورة الإمام الحسين في الذاكرة الشعبية التي تغذي الظاهرتين تتمثل في:

الإمام الحسين: قائد محارب مقدام يقاوم الشر من أجل إرساء أسس الدين الأسلامي وقد دفع حياته في سبيل ذلك ومات شهيدا، ويصوّر على هيئة الفارس في الصوّر و"التشابيه"، الذي يستمد منه المجتمع الشيعي البركة والموعظة والنهج الإصلاحي.

القديس بيسو: الجندي الشجاع صاحب المبدأ الذي يصوّر بزيه العسكري أيضا محارباً مؤمناً بالدين المسيحي، جاء الى منطقة وادي ساونا من أجل نشر تعاليمه ودفع حياته ثمنا لإيمانه بهذا الدين ومات شهيدا. و يستمد منه أهل المنطقة المسيحيون الكاثوليك الموعظة والبركة.

وقد وصف هرتز صورة القديس بيسو في دراسته قائلا: " تظهر الرسومات القديس بيسو بمظهر المحارب، وبشكل خاص مظهر القائد العسكري".[1]

وقد كان من الطبيعي ألا تقف الذاكرة الجمعية عند هذا الحد في عملية تضخيم الأسطورة التي تناقلتها أجيال من المريدين، و قد أُضيفت اعتقادات شعبية كثيرة أصبحت مع مرّ الزمن جزءاً من الطقوس والشعائر وتداخلت مع العقيدة الأساسية لها.

وأهم هذه المعتقدات هي الإيمان بالمعجزات المرتبطة بالشخصيات المقدسة، حيث يؤمن "المشّاية" بقدرات الإمام الحسين على شفاء المرضى وعلى قضاء حاجاتهم وإيفاء نذورهم و مساعدتهم على تحمّل مصاعب الحياة وتجاوز عقباتها، وهذا ما يجعلهم يقصدونه متحملين صعوبات الطريق ومشقاته ناذرين العودة أحيانا في حالة تحقق أمانيهم، وهو ما يؤمن به زوار القديس بيسو، فهم يقصدون الكنيسة طلبا للشفاء ولقضاء حوائجهم وأمانيهم وتزويج بناتهم وإيفاء النذور والديون، و على من ينذر نذرا أن يعود في السنة الموالية لمدة تسعة أعوام أحيانا لتقديم الشكر والعرفان للقديس المخلّص، ويشير هرتز في دراسته إلى هذا قائلا "في هذا المكان يأتي زوار القديس بيسو كل سنة لطلب البركة والتنمية التي تساعدهم على هزيمة آلام الحياة ...

١- روبيرت هرتز، مصدر سابق، ص ١٠٧

إن الزوار المسيحيين يأتون لدفع الديون التي جمعوها السنة الماضية ولطلب مخزون جديد من الرحمة للسنة الجديدة" [1]

كما يعتقد المشّاية وأفراد الطائفة الشيعية أن تربة كربلاء مقدسة بسبب امتزاجها بدم الإمام الحسين وهذا ما يجعلهم يتخذون منها أشكال دائرية عادة ترتبط بالصلاة والعبادة، وتوضع في الماء لمنحه القدرة على شفاء المرضى، كما يحملونها معهم ويحتفظون بها في بيوتهم، هذه الطقوس السابقة في التعامل مع الحجارة والتراب هي الطقوس نفسها التي نجدها لدى زوار القديس بيسو، إذ أنهم يقدسون حجارة صخرة المدفن ويضعونها في بيوتهم ويتبركون بها في حياتهم. ويضعون بعضا من ترابها في طعامهم معتقدين أنه يشفي من الأمراض.

واستنادا الى ما سبق فإنه يمكن الوصول إلى نتيجة كون أسطورة "البطل" المخلص قد تبلورت عبر الزمن في الذاكرة الجمعية للمجتمع الشيعي وللمجتمع الكاثوليكي على حد سواء على الرغم من الاختلاف العقائدي والزمني، فالتقديس المبالغ فيه للشخصية الدينية والإيمان الشديد بمعجزاتها وقدراتها الخارقة هو ما يميز كلا من مراسم الزيارة الأربعينية و طقوس زيارة القديس بيسو، وهو ما يثبت أن السلوك الجمعي الذي غذى التشكل الأسطوري في المجتمعين قد مر المراحل نفسها.

١- ينظر المصدر السابق، ص ١٠٨

رابعاً: مقارنة الاداء الديني للطقس بين المشّاية وزوار القديس بيسو.

يمكن إيجاد نقاط تشابه كثيرة بين طريقة أداء طقس القديس بيسو وطريقة أداء الشعيرة الأربعينية، وتجدر الإشارة إلى كون ظاهرة القديس بيسو أول ظاهرة سلوك جمعي ديني مرتبط بالزيارات المسيحية دُرست في علم الاجتماع بباريس، في حين تعد هذه الدراسة التي يقدمها الباحث الأولى من نوعها في دراسة سلوك جمعي لشعيرة الزيارة الأربعينية التي تحوّلت إلى ظاهرة كبيرة وواسعة خلال السنوات الأخيرة تستقطب ملايين الزوار .

الزيارة :

١ـ المشي على الأقدام:

إن أهم نقطة في التشابه بين المشّاية وزوار القديس بيسو تتمثل في طريقة أداء الزيارة، فالمسلمون الشيعة يؤدون مراسم الزيارة الأربعينية مشيا على الأقدام قادمين من مدنهم نحو مدينة كربلاء ـ إلى المزار الذي دفن فيه الإمام الحسين، متكبدين مشقة الطريق الطويل والمتعب طلبا للبركة وقضاء الحاجة ومحبة للإمام الحسين، و يؤدي المسيحيون الكاثوليك من سكان المنطقة زيارتهم لمدفن القديس بيسو مشيا على الأقدام أيضا، صاعدين الجبل عبر مسالك وعرة.ومتكبدين عناء الطريق الخطر، طلبا للبركة وقضاء الحاجة ومحبة للقديس بيسو.

وقد يقطع بعض زوار الإمام الحسين الطريق حفاةً طلبا للأجر، وهو ما يحدث أيضا خلال صعود زوار القديس بيسو للجبل إذ إنّه " يضيف البعض بركة بصعودهم حفاة".(١)

٢ـ الأداء العائلي:

من النادر رؤية مشاركة عائلية متشابهة إلى هذا الحد في ظاهرة دينية، فالحج مثلا لا يكون عادة مشاركة "عائلية" بل إنّه أداء فردي غالبا، وهوعكس ما هو سائد في مراسم الزيارة الأربعينية التي نجد فيها عائلات كاملة ضمن "المشّاية" بكل أجيالها: شيوخا وأطفالا، نساءً ورجالا.

١ـ روبرت هرتز، مصدر سابق، ص ١٠٩

هذه الملاحظة تنطبق على مؤدي طقوس زيارة القديس بيسو، إذ تكون المشاركة عائلية أيضا ويمشي كل أفراد الأسرة صاعدين الجبل نحو الضريح المقدس. و يتساءل هرتز: "رغم الصعود الشاق والسفر الطويل، فإن جماهير الرجال والأطفال والنساء تأتي من المناطق المجاورة والسفوح الجبلية".[١]

٣- الإطعام:

تعد خدمة الإطعام و توزيع الأكل في شكل صدقات من أهم مظاهر مراسيم الزيارة الأربعينية، إذ يؤمن المسلمون الشيعة بأنه طعام مبارك وفيه "ثواب" كبير، مما يدفع المواكب إلى تقديمه ضمن أساسيات خدماتها .

واستنادا الى هذا الإعتقاد يعد خبز "الافوياس" المقدس مظهرا رئيساً من مظاهر الاحتفاء بزيارة القديس بيسو لدى زواره المسيحيين الكاثوليك. إذ يوزع أيضا على المشاركين في الزيارة، ويعتقد أن تقديمه يمنح البركة إذ يوزع على المواكب مغلفا بالشرائط الملونة، كما يعتقد أن الفتيات اللواتي يقمن بخدمة الزوار وتقديم الخبز يحصلن بشكل مضمون على زواج سعيد .[٢]

نقاط اخرى:

هناك نقاط اخرى ضمن اداء الزيارة تشكل تقاطعات بين المجتمعين المدروسين في المقارنة، غير انها قد لاتكون ذات دلالات غنية بسبب كونها مرتبطة بغالبية الطقوس والشعائر الاخرى.

١- الموعظة الدينية:

ترتبط الزيارة الأربعينية برواية قصة الإمام الحسين، وذلك لاستخلاص المواعظ وللتذكير بالمآثر والحفاظ على السيرة المقدسة من خطباء وائمة المساجد والحسينيات، وهو ما نجده كذلك في مراسم زيارة القديس بيسو إذ تسرد قصته وتردد مآثره وترسّخ فكرة الحرب بين الخير والشر ومعركة الإيمان مع الكفر، إذ يقوم القساوسة بذلك مثلما فعل أئمة وخطباء المنبر الحسيني.

١- روبرت هرتز، مصدر سابق، ص ١٠٣

٢- ينظر: المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٩

٢- الرايات والرسومات:

يحمل "المشّاية" عادة رايات كتبت عليها عبارات دينية وشعارات مناصرة للإمام الحسين في أثناء أدائهم للزيارة الأربعينية، وهو ما يستعمل في مراسم القديس بيسو.

٣- تاريخ "العاشر":

هناك وجه تشابه مرتبط بالصدفة، إذ نجد ارتباط ظاهرة المشّاية بتاريخ العاشر من محرم بسبب استشهاد الإمام الحسين في مثل ذلك اليوم على الرغم من كون الزيارة تؤدى أربعين يوما بعد هذا التاريخ، غير أن العاشر يعد يوما مقدسا لإحياء الذكرى، وهو ما نلاحظه لدى زوار القديس بيسو يوم العاشر من شهر أغسطس، الذي يمثل يوم إحياء ذكرى استشهاد قديسهم.

خامساً: أوجه الإختلاف بين الظاهرة الكاثوليكية والظاهرة الشيعية:

إن الظاهرتين المدروستين على الرغم من التشابه الكبير الملاحظ بينهما سابقا، إلا أنهما تملكان عددا من نقط الاختلاف المتمثلة في:

١- طريقة إحياء الذكرى المقدسة:

تختلف طريقة احياء الذكرى المقدسة بين المسلمين الشيعة والمسيحيين الكاثوليك ضمن الظاهرتين، فلدى الشيعة نجد أنه يوم حزن كبير، يعلنون فيه الحداد ويطغى اللون الأسود على ما حولهم من الرايات والثياب، ينشدون اللطميات ولا نجد لديهم أي مظهر من مظاهر الفرح طيلة شهر محرم. إنه "عزاء" في حين إنّ إحياء ذكرى القديس بيسو هو احتفالية سعيدة، يشارك فيها الجميع ويلبسون الثياب الملونة وتعزف الأغاني وتتزين المدينة والكنيسة بألوان ورايات وأضواء، إنه " احتفال"

٢- حجم الظاهرة المدروسة:

تعد ظاهرة "المشّاية" حاليا ظاهرة مليونية، يشارك فيها كل سنة ملايين الزوار من داخل وخارج العراق، إنها ظاهرة عالمية تأخذ كل سنة حجما أكبر، في حين تُعدُّ زيارة القديس بيسو ظاهرة محلية تكاد تنقرض، لا تتعدى تداعياتها منطقة الألب والطائفة المحلية.

٣- المقدس بين اليقين والشك:

يُعدُّ الإمام الحسين شخصية إسلامية مثبتة الوجود في المصادر التاريخية ومقدسة لدى العالم الإسلامي أجمع، في حين لا توجد دلائل تاريخية حقيقية تثبت وجود القديس بيسو، ولا احد من الطائفة الكاثوليكية خارج منطقة الكنيسة يؤمن به. ذلك أن اسم القديس بيسو ليس معروفا بشكل واسع خارج منطقة قمة فوتينيو .

و يرى هرتز أن احتفال العاشر من أغسطس مخصص لرفع اسم القديس بيسو، وللحفاظ على اسمه من الاندثار، فمن دون هذا الاحتفال لا وجود لاسمه وسيختفي من الوجود، أما ما يخص للزوار فإنه يمنحهم "القداسة المقوية" التي تساعدهم على تحمل قسوة الحياة.[١]

سادساً: الخلاصة:

يذهب هرتز هنا إلى أن "الأسطورة" التي نسجت حول القديس بيسو كان لها هدف آخر غير تقديس "البطل" نفسه، بل هي محاولة "لإدخال قداسة روح بشرية في قلب الصخرة الصماء" [٢]

فالسالسيون يريدون ربط أرضهم بالقداسة ومن ثمَّ تأكيد هويتهم بهذه الطريقة، وقد كتب هرتز في خلاصة دراسته أن هذه الطقوس الشعبية تُرسّخ الهوية و تصنع التاريخ وتوثق الوجود، فهي ليست ممارسات دينية أو جماهيرية محضة، بل هي "صدى صوت شعب"[٣]

وهذا ما نجده لدى الشيعة الذين يحاولون من خلال طقس المشّاية تأكيد وجودهم وصدى اصواتهم وارتباطهم التاريخي الوثيق بكربلاء وبقضيتهم التي يرمزون لها بشخصية مقدسة هي شخصية الامام الحسين.

١- ينظر: نفس المصدر السابق، ص ١١١.
٢- ينظر: نفس المصدر السابق، ص ١٣٣.
٣- ينظر: نفس المصدر السابق، ص ١٤٠.

الباب الثاني
الجـــــانب الميدانـــي

الفصل الرابع
الإطار المنهجي للدراسة

الفصل الخامس
عرض نتائج الدراسة الميدانية وتوصيفها

الفصل الرابع
الإطار المنهجي للدراسة

توطئة

المبحث الأول
منهجيّة الدراسة

المبحث الثاني
مجالات الدراسة وتصميم العينة الإحصائية

المبحث الثالث
أدوات جمع البيانات المستخدمة في الدراسة وتوصيفها

توطئة:

يراد بالمنهجية العلمية Scientific Methodology نظام من القواعد الصريحة الواضحة والإجراءات التي يُبنى عليها البحث، وتقوّم إدعاءات المعرفة بناءً عليها. كما يُعرّف الإطار المنهجي للدراسة بأنه طريقة من طرائق البحث تتألف من مراحل عدة، يسير البحث العلمي المنتظم بحسبها عند دراسة مشكلة أو مسألة أو فرضية ما.

تضمّن الفصل الرابع ثلاثة مباحث أساسية. ضم المبحث الأول مناهجَ الدراسة، في حين أختص المبحث الثاني في مجالات الدراسة وتصميم العينة الإحصائية. أما المبحث الثالث فقد احتوى على أدوات جمع البيانات المستخدمة في الدراسة و وسائلها.

المبحث الأول: منهجية الدراسة

النهج والمنهج والمنهاج هو الطريق الواضح، والواقع أنّ هذا المعنى يتسم بالدقة، فالباحث باختياره منهجا معينا يعني أنّه اختط لنفسه طريقا للوصول إلى الحقيقة.[١]

ويُعدُّ عالم الاجتماع العربي ابن خلدون أول من دعا إلى ضرورة استعمال المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية في موضوعه الذي اسماه "علم العمران" إذ حدد القواعد المنهجية الواجب أتباعها في دراسة المجتمعات.[٢]

كما أكد عالم الاجتماع الفرنسي "اوكست كومت" على أهمية المنهج في دراسة المجتمع وما ينبعث عنه من ظواهر من أجل الوصول إلى قوانين عامة تحكم الظاهرة الاجتماعية، وهذا ما يتم من خلال الملاحظة العلمية المنظمة والتجربة وإجراء المقارنة بين الظاهرة و نظرياتها الأخرى.[٣]

---

[١]- د. ناهدة عبد الكريم حافظ، مصدر سابق، ص ٢.

[٢]- د. ناصيف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة بيروت، ١٩٨١، ص ٢٥.

[٣]- د. قباري محمد اسماعيل، اصول علم الاجتماع، دار الكتب الجامعية، اسكندرية، ١٩٧٤، ص ٧.

ويعرف المنهج العلمي بأنه: مجموعة من القواعد العامة التي تحدد الإجراءات الصحيحة والعمليات العقلية التي تتبع من أجل الوصول الى الحقيقة في حين يتعلق بالظواهر المختلفة سواءا أكانت طبيعية أم انسانية .

وفي ضوء المنهج يمكن البدء في جمع المعلومات والبيانات وتصنيفها ثم تحليلها وصولا الى صيغة النتائج التي يسعى إليها الباحث.[١]

يُعّد واحداً من الأهداف الرئيسة للبحث والتنظير الاجتماعيين، الابتعاد عن الأسلوب التخميني الذي ينظر من خلاله الناس التقليديون إلى قضاياهم، ويحاولون وضع الإجابات على تساؤلاتهم. أن العمل السوسيولوجي العلمي يحاول أن يعرض السؤال بأقصى ما يمكن من الدقة والتحديد، ثم يجمع البيانات والوقائع، ويحللها قبل الخلوص إلى أية نتائج.[٢]

إنّ من مميزات المنهج العلمي، المرونة والقابلية على التعدد والتنوع بتعدد العلوم والمشكلات. وفي هذا الصدد يشير الدكتور عبد الرحمن بدوي:"إنّ عدد المناهج لا يكاد يحصر، ففي داخل كل علم مناهج عدة، بل إنّه لمن المستحسن أحياناً أن تستعمل مناهج خاصة لمسائل جزئية في داخل العلم الواحد".[٣]

ومن هذه الآراء وغيرها أصبح استخدام المنهج العلمي من ضروريات البحث والدراسة لأنّه يوفر القواعد العامة التي تمكن الباحث من الوصول الى نتائج علمية، وقد اعتمد الباحث أكثر من منهج لموضوع بحثه .

---

[١]- محمد عبد الحميد، البحث العلمي في الدراسات الاعلامية، عالم الكتب، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ١٧٩.

[٢]- أنتوني غدنز، علم الاجتماع (مع مدُخلات عربية)، ط٤، ترجمة الدكتور فايز الصايغ، (بيروت - المنظمة العربية للترجمة،٢٠٠٥)، ص٦٦٧.

[٣]- د.عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي،(القاهرة- دار النهضة العربية،١٩٦٨)،ص١٨- ١٩.

أولاً: المنهج التاريخي: *Historical Method*

إنّ دراسة أيّ ظاهرة اجتماعية تستدعي مراجعة تاريخها لتحديد عوامل تطورها أو تغيّرها لا بطريقة حكائية / سردية، وإنما بطريقة تحليلية، فالباحث الاجتماعي لا يسرد ولا يروي الأحداث التاريخية بل هو محلل لها، بحكم قدرته الفكرية وخياله السوسيولوجي على فهم الصورة التاريخية الكلية للإنسان والمجتمع في ضوء ما تنطوي عليه من دلالات تاريخية.

إنّ المنهج التاريخي هو أول طرق البحث التي يلجأ إليها الباحث الذي عليه أن يرجع الظواهر الاجتماعية إلى سياقاتها التاريخية لأنّ فهمها يعتمد على تلك السياقات، إنّ حقائق الاجتماع ترسب في خضم التاريخ وعلى الباحث أن يستخلصها ويختار من الحقائق التاريخية ما يخدم أغراضه.[١]

يعتمد المنهج التأريخي على تتبع الحوادث التأريخية وسير تسلسلها ودراستها. أي جمع المعلومات والحقائق من خلال الوثائق والسجلات والمصادر التأريخية المتاحة، لتتبع الدراسة موضوع البحث.

يُعرّف المنهج التأريخي بأنه الطريقة التي تساعد على تفسير الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى خلفياتها التأريخية لتتبع نشأتها وتطورها التأريخي.[٢]

فالتاريخ هو التجربة المدونة للجنس البشري، وللباحث أن ينهل من معين تلك التجربة ولذلك كان الإعتماد على المنهج التاريخي سببا مهما بحكم ارتباط الظاهرة الاجتماعية بواقع المجتمع في الماضي، لذا يتوجب على الباحث الرجوع الى ذلك الماضي.[٣]

---

[١] ـ د. ناهدة عبد الكريم حافظ ، مصدر سابق ، ص ٢ ، ص ١٠٧.

[٢] ـ د. حميد جاعد محسن، أساسيات البحث المنهجي، ج١، (بغداد ـ شركة الحضارة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤)، ص٧٦.

[٣] ـ عبد الرحمن بدوي ، المصدر السابق، ص ١٨٤ .

إنّ المنهج التاريخي يقوم بدراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي تنتمي إليه الظاهرة بشكل عام.
إستعمل الباحث المنهج التأريخي في الفصل الثاني من الدراسة الحالية مستقصياً "طقوس العزاء الحسيني في العراق ... مدخل تاريخي" وفي مباحث أخرى من الفصل الثالث، للوقوف على العوامل المؤثرة في موضوعة البحث إدراكا منه لأهمية البعد التاريخي "لطقوس العزاء الحسيني" مبتعدا عن شباك السرد والمتابعة اليسيرة للأحداث على الرغم من وجود إغراءات سردية تعود لطبيعة الظاهرة وما كتب عنها من أدبيات كثيرة.

ثانياً: المنهج المقارن: ***Comparative Method***

يقصد بمنهج المقارنة بعبارة موجزة:"أنّه طريقة للمقارنة بين مجتمعات مختلفة أو جماعات داخل المجتمع الواحد أو بين نظم اجتماعية للكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر الاجتماعية وأبرز أسبابها".[1]

يرى دوركهايم أنّ المنهج المقارن يتيح لنا إثبات أنّ ظاهرة معينة هي السبب في حدوث ظاهرة أخرى، كما عدّ فريمان أنّ تأسيس المنهج المقارن في البحث يُعدُّ أعظم انجاز فكري في عصرنا.[2]

يركز المنهج المقارن على مقاربة جوانب التشابه والاختلاف بين الظواهر الاجتماعية لغرض اكتشاف أي العوامل أو الظروف التي تصاحب حدوث ظاهرة اجتماعية أو ممارسة معينة.

---

[1] ـ د. احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨، ص ٧٥.
[2] ـ د. ناهدة عبد الكريم حافظ، مصدر سابق، ص ١١٢.

يشير المنهج المقارن إلى إستراتيجية للبحث، ترمي الحصول على استنتاجات قائمة على المقارنة بين الظواهر والعمليات الاجتماعية من حيث الزمن ومن حيث المناطق.[١] إذ يُعرّف بأنّه عملية دراسة الظواهر الاجتماعية والمقارنة بينها في مجتمع واحد أو مجتمعات متماثلة أو مجتمعات مختلفة لمعرفة توزيع هذه الظواهر والنظم وعناصرها ومظاهر تغيّرها.[٢]

كما يراد به أيضاً، طريقة المقارنة بين مجتمعات مختلفة أو بين جماعات متباينة داخل المجتمع الواحد أو بين نظم اجتماعية متعددة للكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر الاجتماعية الحاصلة فيها وإبراز أسباب هذا الاختلاف.[٣]

استعمل الباحث المنهج المقارن لمقاربة الظاهرة موضوع البحث مع ظواهر أخرى مشابهه لموضوعة الدراسة، ففي الفصل (الرابع) من البحث يقوم الباحث بإجراء دراسة مقارنة بين ظاهرة "المشّاية" عند المسلمين الشيعة وبين ظاهرة طقوس زيارة "القديس بيسو" عند المسيحيين .

ثالثاً: المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقيا):

إنّ المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقيا) من المناهج التي تحتاج إلى إضاءة أكثر من الباحث وذلك بسبب قلة تبنّيه من باحثي الدراسات العليا، وقد استعمله الباحث في بعض مباحثه لوجود مسوغات معرفية لذلك، إذ أصبحت الهرمنيوطيقياأ التأويل -مؤخرا- تحتل مكان الصدارة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية. وقد أضحت مجال اهتمام لنظم علمية متعددة من بينها النقد الأدبي وعلم الاجتماع والتاريخ والأنثروبولوجيا. وأدى الاهتمام المعاصر بالهرمنيوطيقيا إلى ضروب من التطور في مناهج ونظريات هذه العلوم. وقد

---

[١] - د. حميد جاعد محسن، مصدر سابق، ص١٣٢.

[٢] - د. فادية عمر الجولاني، مبادئ علم الاجتماع، (الإسكندرية - مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣)، ص٢٩٠.

[٣] - احمد زكي بدوي، مصدر سابق، ص٧٥.

ظهرت نظريات جديدة حول السلوك الإنساني طرقت أبعادا وآفاقا جديدة لم تكن تصل إليها من قبل، خاصة فيما يتصل بمكونات الأبنية الداخلية غير المنظورة التي تكمن خلف العلاقات والمصالح، والتجمعات الظاهرة للبشر.[١]

الهرمنيوطيقا وصف للجهود الفلسفية والتحليلية التي تهتم بمشكلات الفهم والتأويل. وتقوم الهرمنيوطيقا على فلسفة التعمق خلف ما هو ظاهر من تعبيرات وعلامات ورموز للكشف عن المعاني الكامنة والجوانب غير المتعينة من الخبرة أو التجربة في محاولة لفهم المجهول بالمعلوم،إذ تبدأ عملية الفهم دائما من "المعلوم في تجربتنا لتنفذ إلى المجهول"، في محاولة لفهم التجربة التاريخية.[٢]

فجوهر عملية التأويل هو الكشف عمّا يكمن خلف الأشياء الظاهرة من دلالات ومعانٍ، ومحاولة كشف الغموض البادي في الظاهر بالتعمق خلفه والكشف عن آفاق لمعانٍ لا ندركها من النظرة الظاهرية الخارجية المجردة.

ومهما كانت الاختلافات بين فلاسفة التأويل، فإنهم يجمعون على موضوع واحد، هو أنّ التأويل محاولة للفهم، على أنّ الاهتمام بتحليل النصوص المكتوبة لم يستمر إلى مداه، إذ تطور على ما ذكرنا ليفتح آفاقا جديدة في موضوعات التأويل. وقد رفض بعضهم فكرة تحليل النصوص المكتوبة فقط، لأنّ ذلك يجعلنا نهمل اللغة في سياقها اليومي. ومن هنا جاء الاهتمام باللغة-أو "بالكلام"- كما تمارس في الحياة متقدما على الاهتمام بالنصوص المكتوبة كما وسع البعض من مفهوم النص ليشمل الأفعال ذات المعنى التي تشكل عالم الحياة اليومية ممّا فتح الطريق نحو تطبيق أفضل لمناهج التأويل في العلوم الاجتماعية.[٣]

---

[١]- للمزيد ينظر:- الشبكة المعلوماتية، على الرابط الألكتروني:

http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=٢٣٨

[٢]- نصر أبو زيد، "الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص"، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، أبريل ١٩٨١، ص١٤٨.

[٣]- الشبكة المعلوماتية، المصدر السابق. على الرابط الألكتروني:-

http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=٢٣٨

فتح منهج التأويل آفاقاً جديدة لنظرية ومناهج العلوم الاجتماعية و لاسيما ما يتعلق بمفهوم (الفهم) أي أنّ التأويل يهدف الى الفهم وحتى ندرك عملية التأويل يجدر بنا العودة الى الظاهرة الاساسية للفهم وكيف يكون من خلال اللغة.[١]

ولعلَّ أول من استعمل هذا المفهوم هو ماكس فيبر، فعلم الاجتماع كما يفهمه فيبر هو علم تفسيري، قاصدا بالفهم الإحاطة بدلالة الفعل ومعناه والهدف منه، إذ إنّ نشاطات الانسان تمتلك معنى أي تمتلك هدفا في منظور علم الاجتماع، كما يعرف فيبر علم الإجتماع بأنّه علم تأويلي أي أن فكرة التأويل موجودة ضمنا في فهمه وأنّ هذا العلم يشغل نفسه بالفهم التأويلي للفعل الاجتماعي وبالشرح السببي لمسار الفعل ونتائجه بمعنى أنّ العنصر التأويلي يتضمن العنصر السببي.[٢]

لم تكن وظيفة التأويل قبل شليرماخر تحمل أي معنى منهجي. فقد كانت وظيفة التأويل تنحصر في المساعدة في الكشف عن طبيعة مفردات النص وقواعده أو المساعدة في فهم النصوص الدينية، لقد كانت الهرمنيوطيقا حينئذ لا تتعدى الانطباعات العابرة. أما شليرماخر فقد حول الهرمنيوطيقا إلى منهج عام. فالتأويل ليس انطباعا عابرا، وإنما هو منهج يخضع لقانون عام يقوم على العلاقة بين الجزء والكل، أو بين الفردية والكلية أو بين الذات والموضوع. ويقوم هذا المنهج على فرضية هي أنّ شكل التعبير يظهر بالضرورة الروح العامة للثقافة.[٣]

وبذلك فقد أضحت الهرمنيوطيقا منهجا مستقلا إن لم تكن قد تحولت إلى علم مستقل بذاته.

---

[١]- عبد القادر عبد الله عرابي، المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧، ص ٢٢٠.

[٢]- بول ريكور، محاظرات في الايديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، ٢٠٠١، ص٢٦١.

[٣]- J. Bleicher , Contemprory Hermeneutics, Routledge and Kegan Paul, London, ١٩٨٠. P١١.

ما السبيل إلى فهم العالم؟ أو كيف يتصل الباحث بموضوع بحثه؟ إنّ الإجابة على هذين السؤالين لا تكشف عن تميّز منهج التأويل عن المنهج الوضعي التفسيري، بل تكشف أيضا عن تطور منهج التأويل نفسه بدءا من ديلثي وصولاً إلى المدرسة الفرنسية المعاصرة. ولا شك أنّ منهج التأويل ينظر إلى موضوع دراسته نظرة تختلف عن المنهج التفسيري الوضعي الذي يدعو إلى الدراسة الخارجية للمعطيات الاجتماعية. والذي يميز هذا المعطى الاجتماعي بقابليته للملاحظة، وبكشفه عن مؤشرات خارجية قابلة للقياس أنّه المنهج الذي عبرت عنه بجلاء أطروحة دوركايم المنهجية حول "دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء أو كأنها أشياء".[1]

نحا المنهج التأويلي منحى مغايرا، فلم يفترض انفصالا بين الباحث وموضوع بحثه، ومن ثم فقد عرف هذا الموضوع من خلال ماهيته الداخلية، وقدم أسلوبا منهجيا تنصهر فيه الذات الباحثة في موضوع بحثها بدلا من النظر إليه من الخارج بوصفه "شيئا خارجيا". على أنّ الموقف الهرمينوطيقي لا يتلخص بهذه الدرجة من الوضوح. وعلى الرغم من اتفاق فلاسفة التأويلي على أمور عدّة إلا أنّ موقفهم يكشف عن قدر من الخلاف يثبت تتبعه تطور فكرة التأويل وإمكاناتها المنهجية.[2]

لسنا هنا بصدد تقديم الآراء والخلافات بين منظري التأويل والنقد المتبادل بينهم بقدر ما نريد تقديم توضيحا منهجيا لفكرة التأويل وكيف انتقلت من النص الادبي والديني الى الفعل الاجتماعي، ليبرر الباحث استعماله هذا المنهج في قراءة الفعل الاجتماعي الذي هو نتاج تناقضات سوسيولوجية تحتم قراءته تعبيراً رمزياً عن أحلام وتطلعات

---

[1] ـ ينظر: كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

[2] ـ الشبكة المعلوماتية، المصدر السابق، على الرابط الألكتروني:-

http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=٢٣٨

فاعليه فهو قابل للقراءة المتنوعة بعدد تنوع القراء كما يوجد فيه ارتباط بالتاريخ وتركيبته الانسانية.[١]

لذلك يرتبط هذا المنهج ارتباطا جوهريا بظاهرة البحث التي تعتمد على الفعل الاجتماعي لعينات الدراسة في كل مفاصلها، كما استعمله الباحث في مباحث من الفصل الثالث عند الحديث عن إنتاج المعنى الديني من الفعل الاجتماعي.

رابعاً: منهج المسح الاجتماعي: ***Social Survey Method***

يُعرّفُ منهج المسح الاجتماعي بأنّه " المنهج الأكثر استخداما لجمع البيانات، وأن الأداتين الشائعتين في الحصول على بيانات المسح هما الاستبيان والمقابلة ، فالمسوح يمكن أن توفر للسوسيولوجيين بيانات حقيقية حول الآراء والاتجاهات والعقائد وأنماط السلوك لأعداد كبيرة من الأفراد ".[٢]

وهو طريقة من طرائق البحث الاجتماعي تطبّق خطوات المنهج العلمي تطبيقا عمليا على دراسة ظاهرة أو مشكلة اجتماعية أو أوضاع اجتماعية معينة سائدة في منطقة جغرافية إذ نحصل على المعلومات الكافية التي تصور مختلف جوانب الظاهرة المدروسة وبعد تصنيف البيانات وتحليلها يمكن الافادة منها في الأغراض العلمية.[٣]

بالإضافة إلى ذلك فإنّ المسوح تحاول أيضا أن تكشف العوامل التي تجعل الناس يتصرفون أو يشعرون بمثل هذا. فعلى سبيل المثال أظهرت المسوح الواسعة أنّ الآراء السياسية، وكذلك درجات مشاركة الناس في العملية السياسية (مثل الانتخابات) تتصل بعوامل مثل التعليم، والمهنة، والعمر، ومنطقة السكن.[٤]

---

[١] ـ للمزيد ينظر: مجلة اضافات ـ المجلة العربية لعلم الاجتماع ـ تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، بيروت ، العدد ٨، خريف ٢٠٠٩، ص .

[٢] ـ د. ناهدة عبد الكريم، مصدر سابق، ص ٨٩.

[٣] ـ خالد حنتوش، مصدر سابق، ص ١٩٦.

[٤] ـ د. ناهدة عبد الكريم، المصدر السابق، ص٩٠.

كما تستخدم كلمة الوصف لتدل على نفس المعنى الذي تنطوي عليه كلمة المسح تلك التي اشتقت بدورها من مصدرين آخرين في اللغة اللاتينية، الاول SUR، والثانية VER، بحيث أصبح معنى كلمة المسح النظر فيما وراء، ويحاول الباحث من خلال المسح تناول الظواهر بطريقة تمكنه من تمييز الجوانب العلمية أو ذات المعنى من المعطيات أو البيانات المتوافرة حول هذه الظواهر، ومن هنا يطلق على البحث الذي يهتم بدراسة الظواهر الراهنة بدقة، اسم المسح أو المسح الوصفي Descriptive Survey.

ولعل في هذا الالتقاء في المعنى بين البحث الوصفي والمسح ما يفسر لنا أرتباط البحوث الوصفية واعتمادها على المسح كطريقة في التوصل إلى البيانات الدقيقة حول أفراد الجمهور الذين يدور حولهم البحث، وفي التسجيل الواعي لهذه البيانات، حتى يمكن الرجوع إليها في الكشف عما تنطوي عليه من معانٍ ودلالات. [1]

تتنوع أنماط المسوح بحسب الأساس الذي يختاره الباحث، كذلك تختلف المسوح من حيث الحجم فإما أن يقوم الباحث بمسح شامل أو يقوم بعملية مسح بالعينة، وهذا الأخير ما استعمله الباحث في أثناء مسح ظاهرة "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية وذلك بسبب حجم هذه الظاهرة الكبيرة واستحالة القيام بعملية مسح شامل لها عن طريق الاستبانة.

١- د. محمد منير حجاب، اساسيات البحوث الاعلامية والاجتماعية، دار الفجر للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، ص ٨٠.

المبحث الثاني: مجالات الدراسة وتصميم العينة الإحصائية

اولاً: مجالات الدراسة

تدعى المجموعة الكاملة لوحدات التحليل ذات العلاقة **بالمجتمع الإحصائي** Population. أما البيانات المستعملة أساساً للتعميم والمعتمدةمن مجموعة فرعية من المجتمع الإحصائي فتدعى **العينة** Sample.

جرت العادة عند التعرض لتعريف المجتمع الإحصائي لدراسة ما، تحديد المحتوى والمدى والزمن. و تتمثل بالمجال البشري والمجال المكاني والمجال الزماني. والمجالات الثلاثة في الدراسة الحالية هي:

أ- المجال البشري:

ويمثل البالغين ذكورا وأناثاً من المشاركين في أداء مراسيم الزيارة الاربعينية (كهولاً وشباباً) خلال تواجد الباحث في الميدان ومشاركته المبحوثين ممارسة طقوس الزيارة.

ب- المجال المكاني:

ويمثل المسافة الواقعة بين محافظة النجف الاشرف ومدينة كربلاء المقدسة التي تقدر بنحو (٤٠-٥٠ كم) تقريباً، تلك الرقعة الجغرافية تمثل مسار المشّاية القاصدين زيارة قبر الامام الحسين (ع)، وينتشر على جانبي الطريق العديد من المواكب ونقاط الاستراحة المخصصة للزائرين.

ج- المجال الزماني:

امتد المجال الزماني للدراسة بجانبيها النظري والميداني من ١٦ /٤/ ٢٠١٠ ولغاية ٢٥/ ٤ /٢٠١٢. في حين آستغرق المجال الزماني للدراسة الميدانية خلال مدة انعقاد الظاهرة لعامي ٢٠١٠ ، ٢٠١١ أسبوعين لكل عام

ثانيا تصميم العينة الإحصائية ***Sample Design***

يحاول الباحثون الوصول إلى **عينة تمثيلية** Representive Sample، تكون مُمثّلة قدر الإمكان للمجتمع الإحصائي الذي سحبت منه، إذ توصف العينة بأنها تمثيلية إذا حقق تحليل وحدات المعاينة نتائج مشابهة لتلك التي سيجري الحصول عليها عند تحليل المجتمع الإحصائي الكلي،[١]

إذ تضمن العينة ذات التصميم الجيد أنه إذا جرى تكرار دراسة ما على عدد من عينات مختلفة مسحوبة من المجتمع المعطى، فإنّ نتائج كل عينة لن تختلف عن معالم المجتمع الإحصائي إلا بفارق محدود.[٢]

ولسحب عينة تمثيلية لمجتمع ما ينبغي تحديد حجم ونوع العينة المختارة.

ثالثاً تحديد حجم ونوع العينة: ***Sample Size***

تمثل العينة مجموعة فرعية تتألف من وحدات معاينة من المجتمع الإحصائي. تتشكل هذه المجموعة الفرعية عادة من تجميع وحدات المعاينة، فهي لا تضم المجموعة الكاملة لوحدات المعاينة التي جرى تعريفها بوصفها مجتمعاً إحصائياً. وعلى هذا تضم العينة وحدة معاينة واحدة، أو كل وحدات المعاينة ما عدا واحدة، أو أي عدد بينهما، لذا ينبغي تحديد حجم عينة ممثل للمجتمع الإحصائي.

ولكون مجتمع الدراسة كبيراً (يقدر بالملايين وتختلف التقديرات في تحديده من موسم لآخر)[*]

١ـ شافا فرانكفورت و دافيد ناشمياز، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة دة.ليلى الطويل، (دمشق- بترا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ١٩٠.

٢ـ المصدر نفسه، ص١٩١.

[*]ـ بلغ عدد أفراد عينة الدراسة ممن شاركوا في ظاهرة المشّاية لعام ٢٠١١ حوالي ١٦ ـ ٢٠ مليون فردا بحسب الإحصائيات المعلنة لمحافظة كربلاء والمعلن عنها في الفضائيات العراقية (أخذت الأرقام من الشريط الإخباري لقناة العراقية يوم ٢٠ صفر من العام نفسه).

ولصعوبة حصره أو عده، ولمحدودية إمكانات الباحث المادية والزمنية، آضطُرّ الباحث إلى آختيار عينة قصدية مثلت (٦٠٠) مبحوث ممن شاركوا في طقوس الزيارة الأربعينية، جرى توزيع الاستبانة عليهم بصورة قصدية لضمان الحيادية وعدم التحيز في آختيارهم. ولغرض استطلاع آراء مسؤولي المواكب (أي الاشخاص المسؤولين عن تنظيم وإدارة سرادق إطعام وإستراحة الزائرين) عَمَدَ الباحث إلى إختيار عينة قصدية مثلت (٤٠) مسؤول موكب جرى توزيع الاستبانة عليهم بصورة اعتباطية مع مراعاة بعد المسافة بين موكب وآخر وعلى طول الطريق الرابط بين النجف وكربلاء.

مع الأخذ بالحسبان أنّ حجم عينة الدراسة الحالية لا يؤثر في الدقة المطلوبة في صلاحية نتائجها، إذ يشير سيبم رونتري Seebohm Rowntree كلما كان المجتمع الإحصائي متجانساً أو متجانساً نسبياً في الموضوعات التي يعنى الباحث بدراستها، أمكن تصغير حجم العينة.[1]

١ـ طلعت عيسى، البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، (القاهرة ـ مكتبة القاهرة، ١٩٦١)، ص١٥٥.

المبحث الثالث :أدوات ووسائل جمع البيانات المستخدمة في الدراسة

أولاً: أدوات جمع البيانات

بعد أن أُجريَ سحب العينة الإحصائية وحُددّت مناهج الدراسة وجب على الباحث تحديد أدواته لجمع البيانات المتعلقة بالظاهرة موضوع البحث. ومن أجل الحصول على المعلومات الكافية التي تتطلبها الدراسة، سعى الباحث إلى المزواجة بين أكثر من أداة للحصول على بيانات تتمتع بقدرٍ من الدقة والموضوعية. ومن أهم الأدوات التي استتعملها الباحث وقد أغنت الدراسة بالبيانات المطلوبة، هي:

١- الإستبانة (الإستمارة).

٢- الملاحظة بالمشاركة.

٣- الملاحظة اليسيرة والمقابلة.

ولتصميم أداة فعالة يمكن من خلالها قياس ما وضعت لقياسه، آتبع الباحث الخطوات الثلاث الآتية:

أولاً: تصميم الاستبانة *Questionnaire Construction*

تُعّد الاستبانة أداة رئيسة في أبحاث المسح، إذ تركز الأسئلة في المسوح الاجتماعية عادة على (الحقائق والآراء والمواقف)، حوافز المستجيبين ودرجة معرفتهم بموضوع معين.[١]

توصف الاستبانة بأنها نموذج يضم مجموعة من الأسئلة التي توجه للمبحوثين بقصد الحصول على البيانات المتعلقة بموضوع الدراسة ومحاورها.[٢]

إذ يُعّد السؤال هو الأساس في جميع الاستبانات، لذا صممت الاستبانتين الحاليتين لتترجمان أهداف الدراسة إلى أسئلة معينة. وستقدم الإجابات على تلك الأسئلة، البيانات اللازمة التي تهدف الدراسة إلى اختبارها.

١- شافا فرانكفورت و دافيد ناشمياز، مصدر سابق، ص٢٥١.

٢- غريب محمد سيد احمد، مصدر سابق، ص٣٧.

احتوت الاستبانة المخصصة لزوار أربعينية الإمام الحسين (ع) على (٢١) سؤالاً، تضمنت بعض الأسئلة فقرات عدة. كما جرى تصنيف الاستبانة على قسمين رئيسين: شغل القسم الأول الأسئلة المتعلقة بالبيانات الأساسية للمبحوثين، والتي مثلت بمجموعها (٧) أسئلة صُمّمت لاستخلاص معلومات من المستجيبين بما يتعلق بخلفيتهم الثقافية، مثل الجنس والعمر والوضع الاجتماعي والتعليم والمهنة والدخل ...وغيرها. في حين آحتوى القسم الثاني على الأسئلة المتعلقة بالمعلومات والآراء الذاتية للمبحوثين وقد بلغت (١٤) سؤالاً.

كما احتوت الاستبانة المخصصة لمسؤولي المواكب على (١٠) أسئلة، تضمنت بعض الأسئلة فقرات عدة. كما جرى تصنيف الاستبانة على قسمين رئيسين: شغل القسم الأول الأسئلة المتعلقة بالبيانات الأساسية للمبحوثين، التي مثلت بمجموعها (٣) أسئلة صُمّمت لاستخلاص معلومات من المستجيبين عن خلفيتهم الثقافية، مثل المهنة والجنسية ومحافظة السكن ...وغيرها. في حين آحتوى القسم الثاني على الأسئلة المتعلقة بالمعلومات والآراء الذاتية للمبحوثين وقد بلغت (٧) أسئلة.

صُمّمت الأسئلة من حيث النوع إلى الأسئلة المغلقة – المفتوحة وذلك بتحديد بدائل للإجابة على كل فقرة من الفقرات، مع توافر بدائل (أخرى تذكر) لمنح المستجيب حرية أكبر في اختيار الإجابة التي لم ترد في الفقرات المحددة. فضلاً على الأسئلة الظرفية التي تُعّد من نوع الأسئلة المغلقة، إذ يُسبَق السؤال الظرفي في العادة بسؤال تصفية لتحدد من خلاله المجموعة الفرعية للمستجيبين وتمييزهم من الذين ستوجه لهم الأسئلة الملائمة لكل مجموعة متفرعة عن سؤال التصفية. كما أن بعض الأسئلة وضع من النوع المفتوح لصعوبة تحديد وحصر الخيارات، هذا من جانب ومن جانب آخر لاستنطاق المبحوثين والحصول منهم على إجابات لم يتسنَ للباحث رصدها أو تحديدها من قبل.

أما من حيث شكل السؤال فقد جرى تصميم الأسئلة بأشكال مختلفة، هدف الباحث من خلال ذلك تجنب إيجاد حالة (تصلب الاستجابة) التي تحدث حين تكون أسئلة

الاستبانة بشكل واحد. لذا صُمّم بعضها بشكل مقياس التقدير Rating وبعضها الآخر على شكل أسئلة مصفوفية Matrix Questions ، في حين صممت الأسئلة المتبقية على شكل أسئلة تراعي الأهمية أو الأولوية Ranking.

وعلى الرغم من أنّ الاستبانة صُمّمت لتكون آستبانة مقابلة، فقد عَدّ الباحث إنشاء الاستبانة بكتابة خطاب الغلاف Cover Letter لشرح الغرض من المسح للمستجيبين ولتحقيق معدل استجابة أعلى.

ثانياً: الملاحظة بالمشاركة (المباشرة) :

بدأ علماء الاجتماع باستعمال الملاحظة بالمشاركة أداةً لجمع البيانات في المجتمعات الحديثة المعقدة، والملاحظة أداة شائعة في حياتنا اليومية إذ من خلال الملاحظة نتعلم كثيراً ونحدد المواقف ونستنتج بعض الأدلة، إنّ الملاحظة سلوك يعتمد على الحواس البصرية والسمعية (و إن تطور استعملها عن طريق أجهزة التسجيل والتصوير وغيرها من وسائل التكنولوجيا الحديثة).

الملاحظة العلمية- مقابل الملاحظة العابرة والسريعة- هي محاولة منهجية يقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر أو عن العلاقات التي توجد بين عناصرها، فالملاحظة العلمية بما تتميز به من خصائص تصبح مصدرا أساسيا من مصادر الحصول على البيانات بل إنّ البعض ذهب إلى اعتبارها منهجا علميا من مناهج البحث العلمي ، وإذا كانت تعكس وجهة نظر الباحث إلى حد ما فإنها تعطينا صورة واقعية حية للظواهر التي تتناولها.[1]

إذن هي من وسائل البحث التي يلاحظ الباحث من خلالها الظواهر المفترضة سلفا، (مثل ظاهرة "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية في بحثنا هذا إذ نلاحظ أفراد الظاهرة وحركتهم داخل مجتمع الدراسة، انطلاقاً من أول خطوة يضعونها وهم يمارسون المشي لمسافات طويلة قاصدين ضريح الإمام الحسين في كربلاء وما يحدث

١- د.ناهدة عبد الكريم حافظ، مصدر سابق، ص١١٣.

من تفاصيل طوال هذه المدة التي تستغرق ثلاثة أسابيع أو أكثر)، والهدف من هذه الملاحظة هو جمع الحقائق والمعلومات التي يشتقها الباحث من الحقل الاجتماعي وتوصيفها وتحليلهامن خلال مطالعاته المستمرة للدراسات والأدبيات التي تتكلم عنأثر الطقوس والشعائر في تكوين هذه الظاهرة المجتمعية بهذا الحشد المليوني.

ثالثاً: المقابلة والملاحظة اليسيرة

أما المقابلة والملاحظة اليسيرة فكانتا أداتين مكملتين ومساعدتين لاستمارة الاستبانة. تُعّرف **المقابلة** Interview بأنها تفاعل لفظي أو لغوي بين الباحث والمبحوث، يثير الباحث أسئلة معينة ويطلب من المبحوث الإجابة عليها في إطار زماني ومكاني معينين وصولاً إلى أهداف الدراسة.[١]

إذ قام الباحث بمقابلة المبحوثين خلال تأديتهم لطقوس الزيارة. ومن خلال مقابلتهم جرى شرح الغاية العلمية من الدراسة وإيضاح أنّ ما يدلون به من معلومات ستكون في غاية الأمانة والسرية ولن يطلع عليها أحد سوى الباحث لأنها مُعَّدة لأغراض الدراسة والبحث العلمي. كما حرص الباحث على توافر مبدأ الاطمئنان وتبادل الثقة بينه وبين المبحوثين لسعيه بأن تكون إجاباتهم صادقة وموضوعية.

أما أداة **الملاحظة اليسيرة** Simple Observation التي تعرف بأنّها نظرة إلى الوضع من دون أن يجري تغيير لذلك الوضع. نظرة متعمدة ذات طبيعة عامة وتعمل على مستوى التعرف على الوضع وليس على مستوى ما يجب أن يلاحظ في الوضع، هدفها جمع معلومات متعلقة بالوضع.[٢]

١ـ المصدر نفسه، ص٦٣.

٢ـ رودولف غيمليون وبنيامين ماتالون، البحث الاجتماعي المعاصر مناهج وتطبيقات، ترجمة د.علي سالم، (بغداد- دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦)، ص١٠.

وقد جرى استعمالها من الباحث عند إجراء المقابلات مع المبحوثين لملاحظة الجسد الخارجي والحركات التعبيرية والسلوك اللغوي بوصفها مؤشراتٍ على السلوك والمواقف. تلك الحركات والألفاظ التي تصدر من المبحوث عند توجيه الأسئلة إليه قد تعبر عن الرضا أو الامتعاض أو الشعور بالارتياح أو السخط، كما أنها قد تبين صراحة المستجيبين أو ترددهم في الإجابة على بعض الأسئلة.

يمكن ملاحظة مشاركة الباحث في ملحق الصور صورة رقم (٦-٧)

الفصل الخامس
عرض نتائج الدراسة الميدانية وتوصيفها

توطئة

المبحث الأول
عرض نتائج آستبيان المشّاية وتوصيفها

المبحث الثاني
عرض نتائج آستبيان مسؤولي المواكب وتوصيفها

المبحث الثالث
نتائج الدراسة والتوصيات والمقترحات

توطئة

بعد الانتهاء من جمع البيانات وتبويبها وتفريغها، جرى معالجة البيانات في خطوات عدة ومن ثم جرى إنشاء جداول يسيرة ومركبة (مزدوجة) لوحدات عينة الدراسة (سواء للمشّاية أم لمسؤولي المواكب) عن طريق حساب التكرارات لكل متغير من المتغيرات واستخراج النسبة المئوية لكل تكرار. وبعد جدولة البيانات جرى تحليلها والتعليق عليها وكتابة تقرير الدراسة النهائي الذي يشتمل على العناصر الآتية:-

١- مناقشة كل جدول من الجداول التي آحتوت على بيانات خاصة بمتغيرات محددة وإظهار كل جدول من الجداول بصورة تمكن من المقارنة بين بيانات وحدات العينة في ملاحظات مختلفة، فضلاً على إحتواء الجدول على البيانات المتعلقة بمتغير/متغيرات ما لجميع وحدات العينة.

٢- تفسير البيانات لمعرفة العوامل المؤثرة في المشكلة المدروسة والعلاقة التي تربط بينهما وبين غيرها من المشكلات والظواهر للتوصل إلى الحقائق التي تهدف الدراسة للوصول إليها.

٣- ربط نتائج الدراسة الميدانية مع جانبها النظري، فضلاً على مقارنة نتائج الدراسة الحالية بعضها مع البعض الآخر، وبيان أوجه التشابه والاختلاف بين النتائج التي جرى التوصل إليها.

ضمَّ الفصل الخامس ثلاثة مباحث رئيسة. شمل المبحث الأول عرض وتوصيف نتائج استبيان زوار أربعينية الإمام الحسين (ع)، وضم المبحث الثاني عرض وتوصيف نتائج استبيان مسؤولي المواكب، في حين احتوى المبحث الثالث على عرض نتائج واستنتاجات الدراسة والتوصيات والمقترحات.

المبحث الأول

نتائج عرض واستبيان المشّاية وتوصيفاتها

أولاً: نتائج الاستبيان الخاص بزوار أربعينية الإمام الحسين

١) النوع:

جدول (١) يوضح التوزيع حسب النوع لوحدات عينة الدراسة

الجنس	التكرار	النسبة
الذكور	٣٦٦	%٦١
الإناث	٢٣٤	%٣٩
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (١) نسبة الإناث والذكور الذين شملتهم عينة البحث، ويتبين من خلاله أنّ نسبة الذكور مثلت **٦١ %** من مجموع وحدات العينة، وهي أعلى من نسبة الإناث التي مثلت **٣٩ %**.

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ الباحث لكونه من فئة الذكور فقد واجه صعوبة بالغة في إجراء المقابلات واستجواب الإناث المشاركات في تأدية طقوس الزيارة، إوعلى الرغم من خصوصية القيم الدينية الإسلامية بشكلٍ عام، والأعراف والتقاليد الاجتماعية العراقية بشكلٍ خاص، التي غالباً ما تحول دون السماح للغرباء (لا سيما الذكور منهم) بإجراء مقابلة أو حديث مع النساء، فقد سعى الباحث جاهداً إلى إستعمال اكثر من وسيلة لضمان تمثيل النساء، منها على سبيل المثال لا الحصر، مقابلة أسر كبيرة وملء استمارة مع ذكر وانثى من العائلة نفسها وفي جو منفصل كي لاتؤثر إجابات أحدهم على الآخر، أو مقابلة نساء كبيرات، كما أنّ الباحث عَمَدَ إلى أجراء المقابلات في أوقات مختلفة ولم يتقيد في وقت محدد لإجرائها، وذلك لضمان توافر الاستجابة من المبحوثين، مما أتاح فرص اللقاء المباشر مع الذكور و الاناث على حد سواء....، ولذا نجد أنّ تمثيل الأناث على الرغم من تفاوته مع الرجال فقد جاء ممثلاً للمجتمع المدروس. كما أن مشاهدات الباحث العيانية أكدت حضور وتنافس الأناث مع الذكور في المشاركة بطقوس الزيارة، على الرغم من ضغط التقاليد الاجتماعية والطابع المحافظة لبعض الأسر التي تمنع

النساء من الخروج فرادى من دون الاهل، إذ نجدهم يتسامحون في مثل تلك الظروف لقدسية المناسبة واهميتها التأريخية من وجهة نظرهم.

٢) العمر:

جدول (٢) يوضح الفئات العمرية لوحدات عينة الدراسة بالسنوات

الفئة العمرية	التكرار	النسبة	النسبة التراكمية
١٨ – ٢٨	١٠٨	%١٨	%١٨
٢٩ – ٣٩	٢٧٠	%٤٥	%٦٣
٤٠ – ٥٠	١٤٦	%٢٤	%٨٧
٥١ – ٦١	٤٨	%٨	%٩٥
٦٢- فأكثر	٢٨	%٥	%١٠٠
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٢) مشاركة مختلف المراحل العمرية ضمن عينة البحث من الزوار، إذ شكلت فئة الشباب غالبيتها بنسبة تراكمية بلغت **٦٣ %** للفئة العمرية (١٨-٣٩)، في حين لم تتجاوز نسبة المسنين ممّن بلغت أعمارهم ٦٢ عاماً فأكثر نحو **٥%** من مجموع وحدات العينة.

وربما يعود سبب قلة تمثيل الكهول إلى القدرة الجسدية التي يتطلبها المشي لمسافات طويلة لأداء الزيارة، لذا ظهر التفاوت في تمثيل العينة لمصلحة الشباب.

٣) التحصيل الدراسي:

جدول (٣) يوضح التحصيل الدراسي لوحدات العينة

المستوى الدراسي	التكرار	النسبة	النسبة التراكمية
أمي	١٤	%٢	%٢
يقرأ و يكتب	٣٤	%٥،٥	%٧،٥
ابتدائية	٤٢	%٧	%١٤،٥
متوسطة	٥٩	%١٠	%٢٤،٥
إعدادية	٩٣	%١٥،٥	%٤٠
دبلوم	٨٢	%١٤	%٥٤
بكالوريوس	٢٠٣	%٣٤	%٨٨
دراسات عليا	٧٣	%١٢	%١٠٠
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**	**%١٠٠**

يعرض الجدول (٣) مستوى التحصيل الدراسي ضمن عينة البحث، ويوضح أنّ أعلى نسبة مشاركة تحتلها الفئة الحاصلة على شهادة الباكالوريوس بـ ٣٤ % تليها فئة الحاصلين على شهادة الإعدادية بـ ١٥،٥ %، ثم فئة الحاصلين على "دبلوم" بنسبة ١٤ %، تليها فئة الدراسات العليا بنسبة ١٢ %، ثم فئة الحاصلين على شهادة المتوسطة بنسبة ١٠%، ثم فئة الحاصلين على ابتدائية بنسبة ٧ %، أما فئة من "يقرأ ويكتب" دون أي تحصيل علمي بنسبة ٥،٥%، وأخيرا فئة الأميين بـ ٢% .

يلاحظ على التكرار المتجمع الصاعد للحاصلين على دبلوم فأعلى قد بلغ نحو ٦٠% مجموع وحدات العينة، أي أنّ نسبة المتعلمين من ذوي الشهادات الجامعية تشكل النسبة الأكبر ضمن "المشّاية" مما يجعل هذه الظاهرة غير مقتصرة على الفئات المجتمعية ذات التعليم المحدود، وهذا عكس ما يميز غالبية التظاهرات العقائدية عبر التاريخ، إذ أنّ ظاهرة "المشّاية" تنتشر في الأوساط المثقفة وتُقبِل على أدائها جميع الشرائح الاجتماعية مما يعطيها بعدا ثقافيا وحضاريا يجعلها تتعدى كونها شعيرة دينية لتصبح معتقدا فكريا وإنسانيا.وهذا مبين في ملحق الصور رقم (٨-١٠)

٤) نوع العمل/المهنة:

جدول (٤) يوضح مهن وحدات عينة الدراسة

نوع العمل	التكرار	النسبة
موظف	١٠٥	%١٧،٥
أعمال حرة/كاسب	٩٦	%١٦
طالب	١٦٢	%٢٧
متقاعد	٣٧	%٦
بلا عمل/ربة بيت	٢٠٠	%٣٣،٥
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٤) توزيع مهن وحدات عينة البحث، إذ بلغت نسبة العاطلين عن العمل وربات البيوت نحو **%٣٣،٥**، تلتها فئة الطلاّب بنسبة **٢٧ %** ، في حين بلغت نسبة الموظفين **%١٧،٥**، أما من يزاولون الاعمال الحرة بنسبة **%١٦**، لتأتي بعدها فئة المتقاعدين بـ **٦ %**.

ويلاحظ هنا تقارب النسب بين فئة الطلاب وفئة غير العاملين، وبين فئة الموظفين وفئة أصحاب الأعمال الحرة، في تشكيل نسيج المشاركين في الزيارة الأربعينية، ويبين هذا التقارب أنّ غير العاملين يشاركون بنسب أكبر بسبب استقلاليتهم اقتصاديا وعدم ارتباطهم بظروف وظائفهم وأعمالهم ضمن النسيج الاجتماعي.

٥) الجنسية:

جدول (٥) يوضح جنسية وحدات العينة

الجنسية	التكرار	النسبة
عراقي	٥٠٣	%٨٤
غير عراقي (عربي أو أجنبي)	٩٧	%١٦
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٥) التوزيع على أساس الجنسية ضمن عينة البحث، إذ تبلغ نسبة العراقيين ٨٤ %، وذلك بأغلبية ساحقة مقارنة مع الجنسيات الأخرى المندرجة ضمن فئة غير العراقيين التي بلغت ١٦ % فقط.

ومن الطبيعي أن تكون نسبة الزوار العراقيين أكبر من نسبة الزوار العرب والأجانب، إذ يعود هذا إلى صعوبة تنقل الأجانب من بلدانهم إلى العراق، ولصعوبة حصولهم على تأشيرات وعلى معلومات كافية تشجعهم على أداء الزيارة. يقابل ذلك سهولة تنقل العراقيين داخل العراق ومعرفتهم بالطرق والإجراءات اللازمة و المناطق التي يقطعونها مشيا على الأقدام في أثناء قيامهم بأداء المراسم. إضافة إلى هذا فإن التفجيرات الإرهابية قد أسهمت في تقليص عدد الزوار من خارج العراق.

٦) التوزيع الجغرافي لمناطق سكن الزائرين:

جدول (٦) يوضح التوزيع الجغرافي لمناطق سكن وحدات العينة بحسب المحافظات

التوزيع الجغرافي لمناطق سكن الزائرين (المشّاية)	التكرار	النسبة
محافظات الوسط	١٣٧	%٢٧
محافظات الفرات الأوسط	١٤٥	%٢٩
محافظات الجنوب	١٥١	%٣٠
محافظات الشمال	٧٠	%١٤
المجموع	**٥٠٣**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٦) التوزيع الجغرافي لسكن وحدات عينة البحث من العراقيين، وقد أظهر التوزيع تواجد لمختلف المحافظات العراقية، تتصدر محافظات الجنوب ذلك التوزيع بنسبة بلغت ٣٠ %، تليها مباشرة محافظات الفرات الاوسط بـ ٢٩ %، ثم محافظات الوسط بنسبة قريبة تقدر بـ ٢٧ %، لتحل محافظات الشمال في الأخير بنسبة ١٤%.

ويمكن تفسير هذه النسب وتباينها بين المحافظات بسببين هما :

أولاً: التموقع الجغرافي لمدينة كربلاء، وقربها من محافظات الوسط والفرات الأوسط، مما يشجع سكانها على أداء شعائر الزيارة مقارنة بسكان المحافظات الأخرى.

ثانياً: التمركز الجغرافي الكبير للمجتمع الشيعي في محافظات الجنوب، مقارنة بمحافظات الشمال.

كما يجدر الإشارة هنا أنّ الباحث أجرى المقابلات على الطريق الذي تسلكه محافظات الوسط والجنوب، وهذا من شأنه أن يكثف نسبة تواجد سكان هذه المحافظات على طول الطريق.

ملاحظة : تستثنى من الاستبانة محافظة كربلاء نظراً لكون سكانها لا يشاركون في "المشّاية" لكونهم يقيمون في المدينة التي تضم ضريح الإمام الحسين ويكون أثرهم عادة في تقديم الخدمات وإنشاء المواكب للزوار القادمين من المحافظات الأخرى. على الرغم من وجود فئة قليلة من سكان مدينة كربلاء تشارك في مراسم "المشّاية" من خلال الذهاب إلى مدينة النجف والعودة منها مشيا على الأقدام طلبا للثواب.

٧) بيئة سكن المشّاية:

جدول (٧) يوضح بيئة سكن وحدات العينة (ريف/حضر)

بيئة السكن	التكرار	النسبة
حضرية (مدنية)	٤٠٤	%٦٧
ريفية	١٩٦	%٣٣
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يبين الجدول (٧) بيئة سكن وحدات العينة، إذ أظهرت معطيات الجدول أن نسبة سكان المناطق الحضرية تشكل **٦٧ %** من مجموع المبحوثين، في حين بلغ سكان المناطق الريفية **٣٣ %** فقط.

يتوافق ذلك التوزيع مع طبيعة التركيب الحضري الريفي للمجتمع العراقي، مما يؤشر ودلالاتٍ واضحة مفادها أنّ ظاهرة "المشّاية" لا تندرج ضمن الظواهر المدنية ولا تندرج ضمن الظواهر القروية أو الريفية أيضاً وانما تمثل جميع بيئات المجتمع

العراقي كونها ظاهرة مرتبطة بالعقائد الدينية، وهو ما يميزها عن كثير من العادات والتقاليد وحتى المراسم التي تكون عادة ذات انتشار ريفي، إذ إنّ مشاركة سكان المناطق المدنية يجعل ظاهرة "المشّاية" ظاهرة اجتماعية عامة.

٨) نقطة انطلاق المشي:

جدول (٨) يوضح نقطة انطلاق المشي لوحدات العينة

انطلاق المشي	التكرار	النسبة
من البيت	٢٣٥	%٣٩
من النجف الاشرف	١٨٤	%٣١
من مكان آخر	١٨١	%٣٠
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٨) الأماكن التي انطلق منها الزوار لأداء مراسم الزيارة الأربعينية ضمن عينة البحث، إذ جاءت أولا نسبة الذين انطلقوا من بيوتهم بـ **٣٩ %**، في حين حلت ثانيا نسبة مَن انطلقوا من مدينة النجف الأشرف وذلك بـ **٣١ %**، أما من انطلقوا من أماكن أخرى فقد حلت ثالثا بـ **٣٠%**.

وتوضح هذه النتائج أنّ الزوار يفضلون عادة الانطلاق من بيوتهم ولاسيما سكان المناطق القريبة من مدينة كربلاء،وذلك استجابة للروايات الواردة عن أهل البيت التي تبين زيادة الثواب والأجر على قدر المشقة والعناء لذا يفضل اكثر المشاركين في مراسم الزيارة الأربعينية الخروج من بيوتهم وقطع مسافات طويلة لكسب الثواب، كما تدخل الرفقة الاجتماعية بين أبناء المحلة الواحدة عاملاً مشجعاً لاداء الزيارة من المنازل. على حين يفضل آخرون الانطلاق من مدينة النجف لقربها من مدينة كربلاء من جهة ولكونها مدينة مقدسة ذات بعد ديني شيعي مهم من جهة أخرى، إذ تضم ضريح الإمام علي والد الإمام الحسين الذي يفضل أغلب الزوار بدء مراسم "المشّاية" بزيارته أولا قبل الانطلاق نحو كربلاء، فضلاً على كون النجف الاشرف المنطلق الاول والحاضن التاريخي لهذه العادة "المشّاية" إذ كان النجفيون اول من مارسها تاريخيا، كل هذه

العوامل تجعل من مدينة النجف عاملا أساسيا في التكوين السوسيولوجي والسيكولوجي للزيارة.

٩) من يرافقك في أثناء الزيارة؟

جدول (٩) يوضح نوع الرفقة من عدمها لوحدات العينة (خلال المشي)

نوع الرفقة (أو عدمها)	التكرار	النسبة
وحيداً	٦٢	%١٠
الأصدقاء	٣٧٧	%٦٣
العائلة	١٦١	%٢٧
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٩) نوعية المرافقين التي يفضلها الزّوار ضمن عينة البحث، إذ إنّ **٦٣ %** منهم كان مرافقوهم من الأصدقاء، في حين كانت العائلة هي المرافقة لـ **٢٧ %** منهم، أما الزوار الذين فضلوا أداء الشعائر منفردين ومن دون مرافقين فكانت **١٠%**.

وتبين النتائج أعلاه أنّ ظاهرة "المشّاية" ظاهرة اجتماعية من الدرجة الأولى، إذ إنَّ الغالبية الساحقة من الزوار ضمن عينة البحث يفضلون أداءها مع الأصدقاء أو العائلة وقلة قليلة لا تتجاوز العشرة بالمئة تفضل أداءها من دون مرافقين، على عكس ظاهرة الحج التي غالبا ما يقوم بها المسلم منفردا، وتبقى فرضا دينيا صرفا ولا تأخذ بعدا اجتماعيا مثل ظاهرة "المشّاية" التي تأخذ هذا البعد الاجتماعي من خلال عملية التحفيز والتأثير العاطفي للرفقة الاجتماعية التي تسبق عملية أداء الطقس الذي يمارس المجتمع العراقي المعروف عنه اهتمامه بجانب الرفقة بحكم عاداته الاجتماعية والطابع الشعبي والريفي الذي تنتمي إليه نسبة كبيرة من المشاركين في هذه الظاهرة كما جاء في نتائج الدراسة الحالية.

ومن خلال مشاهدات الباحث في اثناء مشاركته في الظاهرة لوحظ أنَّ أغلب المشاركين يتوزعون بجوقات (زمر وجماعات) ويخرجون ضمن مواكب تنتمي الى عشائر ومدن وذلك ما تجلى في أسماء المواكب التي كانت تحمل أسماء هذه العشائر

والمدن بالاضافة الى الطابع التضامني في توزيع الاكل والشرب الذي يحتاج الى عدد من العاملين كما سيأتي في ملاحق الصور الموضحة في الصورة رقم (١١)

١٠) كم عدد المرات التي مشيت بها لغرض الزيارة الأربعينية؟

جدول (١٠) يوضح عدد مرات المشي لوحدات العينة

عدد مرات المشي	التكرار	النسبة
١ ـ ٥	٢٣٧	%٣٩،٥
٦ ـ ١٠	١٩٨	%٣٣
١١ ـ ١٥	٧٢	%١٢
١٦ ـ ٢٠	٥٣	%٩
٢١ مرة فأكثر	٤٠	%٦،٥
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يستعرض الجدول (١٠) عدد تكرار الزيارات الأربعينية التي أُديّت من وحدات العينة، إذ سجلت فئة الذين مشوا [من ١ إلى ٥مرات] نسبة **٣٩ %**، تلتها فئة الذين مشوا [من ٦ إلى ١٠ مرات] بنسبة **٣٣ %**، في حين سجلت فئة الذين مشوا [من ١١ إلى ١٥] مرة نسبة **١٢ %**، أما فئة الذين مشوا [من ١٦ إلى ٢٠] مرة فسجلت **٩%**، لتحل بعدها فئة الذين مشوا ٢١ مرة فأكثر بنسبة **٦،٥%**.

و يلاحظ على نتائج بيانات الجدول أنّ معدل عدد مرات المشي ضمن عينة البحث يتراوح من مرة واحدة إلى خمس مرات ويعود ذلك إلى كون ظاهرة "المشّاية" كانت ممنوعة قبل عام ٢٠٠٣ ولم تصبح متاحة إلا قبل ٩ سنوات تقريباً، على حين تتناقص النسب ضمن عينة البحث كلما ارتفع عدد مرات المشاركة في "المشّاية" بسبب كونها كانت تتم بشكل سري قبل سقوط النظام السابق عام ٢٠٠٣.

١١) هل سبق أن مشيت لزيارة الأربعين أيام النظام السابق؟

جدول (١١) يوضح مشي وحدات العينة لتأدية الزيارة في زمن النظام السابق من عدمها

الخيارات	التكرار	النسبة
نعم	٢٠٥	%٣٤
لا	٣٩٥	%٦٦
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (١١) نسبة تأدية الزيارة الأربعينية أيام النظام السابق، إذ إنّ **٦٦ %** من الزوار الذين شملتهم عينة البحث أكدوا عدم مشاركتهم بالزيارة قبل عام ٢٠٠٣، و أشار نحو **٣٤%** منهم أنهم أدّوا هذه الشعائر في تلك الأيام.

وبحكم المنع الذي حصل بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ وما تلاها من تضييق على ممارسة الشعائر الحسينية بعد عام ١٩٨٠ واشتعال الحرب العراقية الايرانية التي استبطنت بعدا طائفيا بعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران وتبنيها الإسلام الشيعي أصبحت الظاهرة تمارس سرا عبر طرقات وعرة وملتوية، ابتعادا عن عيون السلطة وملاحقتها للزوار ممّا يفسر وجود نسبة قليلة ممّن مارسها إبان النظام السابق بالاضافة الى ذلك فان فئة الشباب المشاركة في هذه الظاهرة حاليا لم تكن بمستوى عمري يمكنها من أداء الزيارة سيرا على الاقدام في ذلك الوقت لان اعمارهم لا تسمح بذلك.

١٢) هل تركت عملك او دراستك عند مجيئك لأداء هذه الزيارة؟

جدول (١٢) يوضح ترك العمل أو الدراسة لوحدات العينة عند مجيئهم لتأدية الزيارة أم لا

الخيارات	التكرار	النسبة
نعم	٤١٩	%٧٠
لا	١٨١	%٣٠
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يستعرض الجدول (١٢) نسبة من تركوا أعمالهم للمشاركة في مراسم الزيارة الأربعينية، إذ يوضح أن فئة من تركوا أعمالهم أو دراستهم لأداء الزيارة الأربعينية تقدر بـ **٧٠%** ، وبلغت نسبة من نفوا كونهم تركوا أعمالهم أو دراساتهم من أجل أداء الزيارة بواقع **٣٠ %** من مجموع عينة البحث.

وتوضح تلك النسبة المرتفعة لمن تركوا أعمالهم الأهمية التي يوليها الزوار لظاهرة "المشّاية" إذ يترك غالبيتهم أعمالهم للمشاركة في مراسم الزيارة الأربعينية على الرغم من عدم كونها فرضا دينيا واجبا، ويعود ذلك إلى نظرية السلوك الجمعي التي تصهر الفرد ضمن الكيان الكلي وتلغي فكرة المنفعة الذاتية والتصرف بالعقل الفردي، كما أنّ إيمان الزوار بقضية الحسين وبأهمية المشاركة في المراسم لترسيخ مفهوم شيعي أساسي يجعل أداءها له الأولوية على كثير من الأعمال الحياتية الأخرى.

كما يعود سبب ارتفاع نسبة من تركوا أعمالهم وانصرفوا لأداء الزيارة الى كون زيارة الإمام الحسين تجلب الرزق وتطيل في العمر كما تقدم الروايات الشيعية الواردة عن أهل البيت حيث روي عن الإمام الصادق أنه قال "مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين، فإنَّ إتيانه يزيد في الرزق ويمد في العمر".[١]

وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى كون الحكومة العراقية سهلت أداء الزيارة على الراغبين بذلك من خلال منح عطل وإجازات في مختلف الدوائر للموظفين والطلاب، وبشكل خاص في محافظات الوسط والجنوب.

وعلى الرغم من عدم وجود نسب احصاءات رسمية دقيقة توضح حجم المصروفات الكلية لهذه الظاهرة وما يرافقها من تحضيرات لوجستية وما يتخلف عنها من ركود اقتصادي نتيجة ترك أعداد كبيرة من المشاركين لعملهم في اثناء تأدية الزيارة فإنّ هناك اسقاطات اقتصادية لهذه الظاهرة لا تقتصر على كمية المصروفات التي ينفقها كل زائر بل تقاس بمصروفات المواكب الموزعة على طول الطرق بين المحافظات التي تقدم شتى الخدمات كما سيأتي في استبيان المواكب الحسينية في المبحث الثاني من الفصل الحالي.

١ـ المجلسي، بحار الانوار، مصدر سابق ،ج١٠١، ص٣.

١٣) **ما سبب مجيئك ماشياً لأداء مراسم الزيارة الأربعينية؟** (الاجابة على أكثر من خيار)

جدول (١٣) يوضح أسباب مجيء المبحوثين لتأدية مراسم الزيارة

الخيارات	التكرار	النسبة
حب الإمام الحسين	٥٨٩	١ ٩٨%
لأداء الشعائر	٥٤١	%
طلب الشفاعة	٥٢٧	%
تحدي الإرهاب	٥١٨	%
طلب حاجة	٤٧٣	%
أداء الزيارة	٣٣٦	٥٦%
الثواب	٣١٧	%
الدعاء	٢٣٨	%
النذر	٢٠٢	%
العلاقات الاجتماعية	١٠١	%
الرفقة	٦٢	%
أسباب أخرى	٤٥	%
قضاء وقت الفراغ	١٣	%

يوضح الجدول (١٣) مختلف الدوافع التي تقف وراء مشاركة المبحوثين في مراسم الزيارة الأربعينية، إذ كان الدافع الأول بحسب إجاباتهم هو حبُّ الإمام الحسين وذلك بنسبة ____%، يليه دافع أداء الشعائر بنسبة ____%، ثم دافع طلب الشفاعة بنسبة ____%، لدافع تحدي الإرهاب بنسبة ____%، يليه دافع طلب الحاجة بنسبة ____%،

وقد احتلت الدوافع أعلاه الصدارة من حيث نسبها، وجاء بعدها في الترتيب دوافع أخرى تتمثل في :

دافع أداء الزيارة بنسبة ٥٦% ، ثم دافع الثواب بنسبة ____ % ، ثم دافع الدعاء بنسبة ____ % ، يليه دافع أداء النذر بنسبة ____ % ، ثم دافع العلاقات الإجتماعية بنسبة ____ % ، ثم دافع الرفقة بنسبة ____ % ، ثم أسباب أخرى بنسبة ____ % ، في حين جاء دافع قضاء وقت الفراغ في المرتبة الأخيرة من حيث ترتيب النسب وذلك بنسبة ____ % فقط.

ومن الملاحظ على النتائج أعلاه أنّ محور الدوافع الأساسية وراء مشاركة غالبية الزوار في ظاهرة "المشّاية" هو حبُّ الإمام الحسين، إذ يترجم هذا الحب ظاهرةً اجتماعيةً تتخذه مثلا أعلى في تأكيد هويتها و التذكير بالظلم التاريخي الذي لحق المجتمع الشيعي منذ حادثة كربلاء الى يومنا هذا، فدافع حب الحسين هو أساس للهوية الشيعية وترسيخ لفكرها، ومن ثَمّ الطبيعي أن يتحول إلى دافع اجتماعي علاوة عن كونه دافعا دينيا، كما يمكن إضافة دافع تحدي الإرهاب ضمن السياق الفكري نفسه إذ إنّ حب الحسين يعني الإقتداء به ومن ثَمّ التحلي بقيمه من شجاعة وغيرها، ومن هنا نجد أن ظاهرة "المشّاية" تتعدى كونها ظاهرة دينية واجتماعية إذ تتحول إلى ظاهرة سياسية وفكرية أيضا.

١٤) ما هو نوع العلاقات الاجتماعية التي حصلت عليها في أثناء الزيارة ؟

جدول (١٤) يوضح نوع العلاقة التي حصل عليها وحدات العينة أثناء الزيارة

نوع العلاقة	التكرار	النسبة
صداقة	٢٦٩	%٤٥
علاقة محددة بزمن (عابرة)	١٥٧	%٢٦
تواصل متقطع	١٢٢	%٢٠
زواج	٥٢	%٩
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يعرض الجدول (١٤) نوع العلاقات الاجتماعية التي تم اكتسابها في اثناء الزيارة الأربعينية لوحدات عينة البحث، اذ تحصل عادة بين الزوار علاقات اجتماعية متنوعة

نتيجة وجود وقت كافٍ وفرصة متاحة للحديث والتعارف في أثناء عملية المسير او أثناء الاستراحة، حيث وُجد أنّ علاقة الصداقة جاءت في المقدمة بنسبة ٤٥%، تليها العلاقات المحددة بزمن (عابرة) بنسبة ٢٦%، لتأتي بعدها علاقة التواصل بشكل متقطع بنسبة ٢٠%، وقد حلت علاقة الزواج في الأخير بنسبة ٩%.

تؤكد النتائج أعلاه أنّ ظاهرة المشّاية ظاهرة تسهم في تكوين علاقات اجتماعية، تبدأ بالمشاركة بالطقس وتتطور لتصل الى الزواج أحيانا وممّا ساعد على ذلك الطرق الطويلة التي يسلكها الزوار بين المدن، إذ جرت العادة أن ينزلوا في كل عام عند الموكب نفسه أو المنزل الذي أقاموا فيه بالعام السابق مما جعل العلاقة تتطور ويعود ذلك الى التطورات التكنلوجية التي دخلت الى العراق بعد ٢٠٠٣ وانفتاح البلد على شبكات الهاتف النقال التي جعلت من عملية التواصل الاجتماعي في اثناء الزيارة وبعدها مستمرا فهي تسهم في بناء علاقات جديدة في المجتمع، تبدأ من الصداقة وتصل إلى الزواج، أي تكوين الأسر التي هي نواة أساسية في بناء كل المجتمعات عبر التاريخ.

١٥) هل حصل لقاء بصديق في أثناء المشي لم تلتقِ به منذ مدة؟

جدول (١٥) يوضح إجابات المبحوثين بشأن إلتقائهم بصديق خلال الزيارة أو لا

الخيارات	التكرار	النسبة
نعم	٤٤٢	٧٤%
لا	١٥٨	٢٦%
المجموع	**٦٠٠**	**١٠٠%**

يستعرض الجدول (١٥) نسبة حدوث اللقاءات مع أصدقاء لم تتح فرصة رؤيتهم من قبل ضمن عينة البحث، إذ أكد نحو ٧٤% من مجموع وحدات العينة أنّهم آلتقوا فعلاً بأصدقاء لم ليتقوهم من قبل، في حين أشار نحو ٢٦ % من العينة بعدم حدوث ذلك.

وربما يعود سبب ارتفاع نسبة الذين التقوا باصدقائهم ومعارف خلال المشي الى التماثل المذهبي الذي يوفر فرصة الاشتراك بالطقس سنويا لاعداد كبيرة من الشيعة الذين ينشدون نقطة مشتركة تتمثل بكربلاء، لذا فإنّ حدوث مثل تلك اللقاءات يكون أمراً وارداً.

ومن هنا يمكن أنّ نلحظ أنّ الزيارة الأربعينية فرصة لحدوث لقاءات اجتماعية قد لا تكون متاحة خارجها، مما يحولها إضافة لكونها ظاهرة دينية إلى ظاهرة اجتماعية تسهم في إعادة بناء العلاقات بين مختلف أفراد المجتمع.

١٦) ما رأيك بالخدمات التي تقدمها الحكومة للزوار في أثناء المشي؟

جدول (١٦) يوضح إجابات المبحوثين بشأن إلتقائهم بصديق خلال الزيارة أو لا

الخيارات	التكرار	النسبة
ضعيفة جداً	١٨٠	%٣٠
ضعيفة	١٠٢	%١٧
متوسطة	٦٣	%١٠،٥
جيدة	٢٠١	%٣٣،٥
جيدة جداً	٥٤	%٩
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (١٦) تقديم الزوار ضمن عينة البحث للخدمات التي تقدمها الحكومة في أثناء مراسم الزيارة، إذ أكد نحو ٣٠ % من مجموع وحدات العينة بأنها ضعيفة جداً، و أشار نحو ١٧ % من المبحوثين أنها ضعيفة.

أما من عَدّها ضعيفة ولا جيدة (متوسطة المستوى) فقد بلغت نسبتهم نحو ____ %، في حين أجاب نحو ____ % منهم بأن الخدمات جيدة، وأكد نحو ٩ % فقط بأنها جيدة جداً.

تؤكد مشاهدات الباحث ان نسبة الخدمات الحكومية في المناطق المكتظة بالزوار تزداد عنها في الطرق المقفرة بين المحافظات وذلك يعود الى أنّ هذه الظاهرة تمرُّ باماكن وطرق طويلة ووعرة أحيانا مما يجعل وصول الخدمات الحكومية الى

المشاركين قليلة وتكاد تكون منعدمة، بالإضافة الى اعتماد الحكومة على الخدمات التي يقدمها السكان وأصحاب المواكب الحسينية للزوار، كذلك تكون أغلب المؤسسات الحكومية متواجدة في مدينة النجف والمدن المجاورة لها وذلك لوجود كثافة عددية من المشاركين في هذه المدن التي تشكل مركز استقبال وتوزيع للزوار ممّا يجعل الحكومة تستنفر كل إمكاناتها لتوفير الخدمات المختلفة لهم بالإضافة الى الغطاء الأمني الذي على الحكومة وقواتها الامنية توفيرهُ بشكل كبير وحساس لحفظ أرواح الملايين من المشاركين. كما موضح في ملحق الصور الصورة رقم (١٢-١٣) ولما كانت هذه الظاهرة كبيرة جدا وتمر بطرق واسعة وطويلة تفوق إمكانات الحكومة فقد جاءت نسبة الرضا عن أدائها أقرب للقبول من نسبة المنتقدين.

١٧) كم هو معدل مصروفك منذ خروجك لأداء الزيارة إلى حد الآن؟

جدول (١٧) يوضح معدل مصروفات المبحوثين بالدينار

المبالغ المصروفة	التكرار	النسبة
١٠٠٠ _ ٢٥٠٠٠ دينار	٢١٤	%٣٦
٢٦٠٠٠ _ ٥٠٠٠٠ دينار	١٥٩	% ٢٦ ٥
٥١٠٠٠ _ ٧٥٠٠٠ دينار	١٢٠	%٢٠
٧٦٠٠٠ _ ١٠٠٠٠٠ دينار	٩٩	%
أكثر من ١٠٠٠٠٠ دينار	٨	%١
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (١٧) معدل مصروف الزوّار المشمولين بالبحث، إذ قدرت الفئة [من١٠٠٠ إلى٢٥٠٠٠] بنسبة **٣٦ %** ، تلتها الفئة [من٢٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠] بنسبة **٢٦ ٥%**، ثم فئة [من ٥١٠٠٠ إلى ٧٥٠٠٠] بنسبة **٢٠%**، بعدها فئة [من ٧٦٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠] بنسبة **١٦ ٥%** ، وأخيرا فئة [أكثر من١٠٠٠٠٠] بنسبة **١ %**.

تبين النتائج أعلاه أن معدل الصرف المتوسط لأكبر نسبة من الزوار ضمن عينة البحث لا يشكل مبالغا كبيرة، ويعود هذا لوجود المواكب الحسينية التي تعد جزءا أساسيا

في الظاهرة، من خلال ما تقدمه من خدمات مجانية ومن طعام وإيواء للزوار القادمين من مختلف المناطق والبلدان.

غير أنه من جهة أخرى فأنّ هذه المبالغ الصغيرة المصروفة تشكل بالتراكم مبالغ يعتّد بها تصرف في أثناء هذه الظاهرة، ومن ثَمّ يمكن الربط بين ظاهرة "المشّاية" والمؤشرات الاقتصادية، من ناحيتين: الأولى ما يصرفه الزوّار، والثانية ما تكلفه الظاهرة لخزينة الدولة العراقية من مبالغ هائلة.

١٨) هل رأيت أو سمعت حادثةً غريبة أو كرامة حصلت مع الزائرين؟

جدول (١٨) يوضح إجابات المبحوثين بشأن رؤيتهم أو سماعهم بوقوع حادثة غريبة أو كرامة حصلت مع الزائرين أو لا

الخيارات	التكرار	النسبة
نعم	٢٤٧	%٤١
لا	٣٥٣	%٥٩
المجموع	٦٠٠	%١٠٠

يوضح الجدول (١٨) نسبة المشاهدة أو الإطلاع على "الكرامات"[*] التي تحدث في الزيارة الأربعينية، إذ نفى **٥٩ %** من عينة البحث أن يكونوا قد شاهدوا أو سمعوا عن معجزة حصلت مع الزائرين، في حين أكد **٤١ %** منهم أنهم سمعوا أو شاهدوا معجزة في أثناء مراسم الزيارة الأربعينية.

توضح النتائج أعلاه أنّ غالبية الزوّار لم يسبق لهم أن شاهدوا أو سمعوا حدوث كرامة أو شيء غريب، غير أنّ النسبة التي أكدت حدوث هذه الأمور لم تكن قليلة، إذ شكلت ثلث عينة البحث، ويعود ذلك إلى عوامل سيكولوجية وفسيولوجية تترك أثراً مهماً

---

[*]- الكرامة: يعتقد الكثير من الشيعة ان لاهل بيت النبي وخصوصا الائمة المعصومين كرامات تشبه المعاجز قد خصهم الله بها تكريما لهم ولمحبيهم على سائر الخلق فهذه الكرامات قد تحصل اثناء فترة الزيارة كأن يشفى مريض او تستجاب حاجة مستعصية او غيرها من الامور غير الاعتيادية.

في أثناء أداء الشعائر الدينية. هناك أفكار مسبقة تؤثر على خيال المشاركين في ظاهرة "المشّاية" اذ يعتقد هؤلاء الزوار أنّ هناك استجابة سريعة وخارقة للعادات الطبيعية قد تحصل نتيجة الدعاء أو النذر اثناء المشاركة في هذه الزيارة وتحمل العناء من مسافات طويلة، فالامام الحسين ولما له من قدر وقيمة كبيرين عند الله تعالى قد يستجيب لنذر زائر ما ويحقق حاجته وهذا ما يشاع اثناء الزيارة كما سيأتي في الجدول اللاحق.

١٩) إذا كان جواب السؤال السابق بنعم، هل لك أن تصف لنا هذه الكرامة؟

جدول (١٩) يوضح إجابات المبحوثين بشأن نوع الكرامة التي شاهدوها أو سمعوها

نوع الكرامة	التكرار	النسبة
لا أعرف	٣٥٣	%٥٨ ٨
شفاء مرضى	١١٧	%١٩ ٥
حدوث أمر خارق للعادة	٧٥	%١٢ ٥
قضاء حاجة مستعصية	٥٥	%٩ ٢
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (١٩) تصنيف الكرامات التي رآها أو سمع عنها الزوّار ضمن عينة البحث، حيث حلت نسبة من "لا يعرف" بالمرتبة الأولى بنسبة **%٥٨ ٨**، وربما يعود سبب ذلك إلى تحاشي الإجابة في الأمور الدينية التي لها طابع غيبي إذ يحذر أغلب أفراد المجتمع من أبداء رأيه بهذه المواضيع التي يعتبرونها من الغيبيات، كما جاءت معجزة شفاء المرضى في المرتبة الثانية بنسبة **%١٩ ٥**، تلتها معجزة "حدوث أمر خارق للعادة" بنسبة **%١٢ ٥**، مثل الإمام الحسين أو أحد الائمة المعصومين يسير مع الزوار أو رؤية منام يحث على المشي للأداء الزيارة ..وغيرها، وحلت بعدها معجزة "قضاء حاجة مستعصية" بنسبة **%٩ ٢**، لان من المتعارف ان يطلب الناس حوائجهم المستعصية من الإمام الحسين أو أخيه العباس في اثناء تأدية الطقس.

تؤكد النتائج أعلاه فرضية العامل السايكوفسيولوجي الذي يمثّل العلاج "الخارق" إذ أن الأبحاث الطبية تؤكد وجود علاقة بين أداء الشعائر الدينية وتصرف الوظائف

الحيوية في جسم الإنسان. هذه العلاقة هي ما تصنع معجزة "شفاء المرضى" التي تشكل أعلى نسبة معجزات في ظاهرة "المشّاية"، كما موضح في ملحق الصور في الصورة رقم (١٤).

٢٠) هل لديك ملاحظات على ظواهر سلبية حصلت أمامك؟

جدول (٢٠) يوضح إجابات المبحوثين بشأن الظواهر السلبية التي لاحظوها خلال الزيارة

الملاحظات	التكرار	النسبة
عدم وجود طريق خاص للزائرين	٤٩	%٨
انقطاع الكهرباء	٤٤	%٧
عدم التزام النساء بالحجاب والاختلاط مع الرجال	١١٦	%١٩
عدم المحافظة على النظافة	٨٩	%١٥
ضعف الاستعدادات الأمنية	٨٣	%١٤
عدم توفير وسائل نقل كافية	٧٢	%١٢
التبذير و الإسراف من البعض	٣٤	%٦
قلة الوعي عند بعض الزائرين	٤٨	%٨
توظيف الزيارة من بعض الأحزاب لأمور سياسية	٣٧	%٦
ترك بعض الموظفين لعملهم الطارئ من أجل الزيارة	٢٨	% ٥
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٢٠) تشخيص المبحوثين لبعض الظواهر السلبية التي حصلت أمامهم، إذ جاءت في المرتبة الأولى ظاهرة الاختلاط وعدم التزام النساء بالحجاب وذلك بنسبة١٩%، تلتها ظاهرة عدم المحافظة على النظافة بنسبة ١٥%، ثم ظاهرة ضعف الاستعدادات الأمنية بنسبة ١٤% ، ثم ظاهرة عدم توفر وسائل نقل كافية بنسبة ١٢%،

من حيث حلّت ظاهرة عدم وجود خاص للزوار بنسبة ٨%، وانقطاع الكهرباء بنسبة ٧%، ثم ظاهرة قلة الوعي عند بعض الزائرين بنسبة ٨%، لتحل بعدها ظاهرة توظيف الزيارة لأمور سياسية من قبل بعض الأحزاب بنسبة ٦%، وأخيرا جاءت ظاهرة ترك بعض الموظفين لعملهم الطارئ من أجل الزيارة بنسبة ٥%

ومما تقدم من نسب سنقوم بتحليل هذه الظواهر السلبية والعودة بها الى أسبابها:

على الرغم من وجود طريق خاص للزائرين بين مدينتي النجف الأشرف وكربلاء المقدسة إلا أنه غير كاف لاستيعاب الأعداد المشاركة في أداء الزيارة التي تتجاوز سعة الطريق وامتدادة بالإضافة الى وجود المواكب والسرادق المخصصة لتقديم الخدمات على طرفي الطريق، كما ليس بالإمكان تخصيص طريق بين المحافظات التي تشهد تدفقا ومشاركة واسعة في أداء هذه الزيارة، فالحكومة عاجزة عن ذلك بسبب بعد المسافات بين المحافظات الجنوبية والوسطى وبعض المحافظات الشمالية التي توجد بها نسبة من الشيعة بالاضافة الى ذلك لا يوجد طريق واحد يسلكه المشاركون في الزيارة اذ تتعدد الطرق بتعدد المدن والقرى والأرياف التي ينطلق منها المشاركون.

لكنّ الزوار يعتقدون أنّ من واجب الحكومة تخصيص هذه الطرق لأنها تتعلق بظاهرة دينية وهذا الجانب الديني يحتم على المسؤولين الحكوميين الاستجابة لكل متطلبات الزوار حتى لو كانت فائقة وكبيرة.

اما انقطاع التيار الكهربائي فهو مشكلة عامة في البلد ولا علاقة لها بالزيارة ومع ذلك فان مدينة كربلاء من خلال مشاهدات الباحث تشهد تحسنا كبيرا في مجال الكهرباء على مدى ايام الزيارة بالإضافة الى المولدات التي يستعملها أصحاب المواكب والبيوت التي تستضيف الزوار.

كما تعود ملاحضات نسبة من اعترضوا على عدم التزام النساء بالحجاب واختلاطهن بالرجال الى طبيعة الظاهرة الدينية وحساسيتها للشيعة، إذ تُعدُّ واقعة كربلاء من أقدس الظواهر الدينية عندهم لذا يجب التمسك بالتعاليم الاسلامية في اثناء ادائها ، وعلى الرغم من الالتزام الشديد بالحجاب وتفاصيلة الاجتماعية المتشددة التي تصل

أغلب الأحيان الى تغطية الوجه والكفين المسموح بإظهارهما عند فقهاء الشيعة إلا أنّ نسبة المعترضين على عدم الالتزام بالحجاب جاءت بالمرتبة الثانية في تسجيل الظواهر السلبية في اثناء الزيارة للسبب السابق، أما قضية الاختلاط مع الرجال فهي تعود الى المشاركة العفوية في أداء الطقس وعدم تخصيص طرق للنساء على الرغم من وجود مواكب مخصصة لهن للإستراحة والأكل والأمور الصحية.

اما ما يتعلق بعدم المحافظة على النظافة فإنه يعود الى العشوائية في تقديم الخدمات وكثرة المشاركين في الزيارة وتعدد أماكن السير والحركة، فلا توجد بلدية في العالم تستطيع السيطرة على حركة ملايين الناس في وقت متزامن من دون وقوع أخطاء، إنّ كثرة المواكب والزوار يؤديان الى غلق الطرق أمام حركة المركبات الخاصة بجمع النفايات لذا تكون ظاهرة وجودها في الأماكن العامة أمراً طبيعيً ومتوقعً، لكن يمكن الحد من هذه الظاهرة بتعاون الزوار مع عمال النظافة وعدم رمي المخلفات إلا في أماكن مخصصة لها.

وترجع نسبة أسباب الاعتراض على ضعف الاستعدادات الأمنية إلى أن الزيارة الأربعينية في كل عام تشهد خروقات أمنية تتسبب بقتل العشرات من الزوار ولعلّ الاوضاع السياسية التي شهدها العراق بعد سنة ٢٠٠٣ وما حصل من حرب طائفية ووجود تنظيمات مسلحة كل ذلك يتسبب بتلك الخروقات مما جعل القوات الامنية تأخذ كل استعداداتها من أجل الحد من التفجيرات الإرهابية التي تستهدف الزوار ، إنّ رسم الخطط الأمنية واستنفار القوات المسلحة وقوى الأمن جعل ظاهرة استهداف الزوار أقلَّ من الأعوام السابقة لكن هذا لا يعني السيطرة الكاملة لأن العراق يشهد بشكل عام خروقات من هذا النوع يأخذ زوار الأربعينية نصيبهم منها كل عام في اثناء الزيارة.

ويعود سبب عدم توفير وسائل نقل كافية لنقل الزوار من والى مدينة كربلاء الى قطع الطرق المؤدية الى المدينة بسبب ازدحامها بالمشاركين في الظاهرة وخوفا من استهدافهم بالسيارات المفخخة من الجهات الإرهابية.

لكن ذلك لا يعني انعدام وسائل النقل لأنّ الحكومة توفر كل امكاناتها من أجل توفير النقل للزوار ابتداءا بسيارات وزارة النقل ووزارتي الداخلية والدفاع التي تقل الزوار الى الأماكن التي تتوفر فيها حركة السير.

أما من انتقدوا ظاهرة التبذير والاسراف في تقديم الخدمات فإنّ ذلك يعود الى طبيعة الدوافع التي تجعل الانفاق في سبيل الأمام الحسين من الأمور المستحبة دينيا كما جاء في الأدبيات الشيعية لذلك يشعر كل فرد أنّ عليه المشاركة في عملية انجاح الزيارة، إذ بدء المشاركون يبتدعون ألوانا من الخدمات لم تكن معروفة من قبل ربما فرضتها عليهم الحياة المعاصرة والتكنلوجيا التي دخلت العراق بعد عام ٢٠٠٣، إذ نرى أماكن خاصة لتوفير الطاقة الكهربائية للهواتف النقالة او كاميرا التصوير بالاضافة الى الخدمات الاخرى مثل التدليك والحمامات والمفارز الطبية وتخصيص أماكن خاصة بالمفقودين أو ظالي الطريق وغيرها، لذلك يشعر المراقب لهذه الظاهرة أنّ هناك اموالا كبيرة تنفق من دون حساب، وربما يعود سبب ذلك الانفاق العشوائي الى عدم التنسيق بين مقدمي الخدمات وأصحاب المواكب، إنّ هناك روحاً تنافسية بين هؤلاء لتقديم الخدمات انسياقا وراء "وفي ذلك فاليتنافس المتنافسون" فالزوار الشيعة بكل أصنافهم سواءا أكانوا أصحاب مواكب أم مشاركين في المشّاية كلهم مندفعون نحو التباري في سبيل تقديم الكثير اعتقادا منهم أنّ الانفاق في سبيل الإمام الحسين يزيد في الرزق كما تقدم في المباحث السابقة.

كذلك انتقدت نسبة من عينة البحث ظاهرة قلة الوعي عند بعض الزائرين ، إذ إنّ ذلك يعود الى أن ظاهرة المشّاية ظاهرة اجتماعية / دينية يشارك بها المجتمع المسلم الشيعي بكل أصنافه وطبقاتة الاجتماعية شأنها شأن الظواهر الدينية الأخرى مثل صلاة الجماعة والحج وغيرها، لذلك نجد مستويات مختلفة ومتباينة في الوعي والثقافة والطبقة الاجتماعية بين المشاركين وهذا أمرٌ طبيعي.

لكنّ منتقدي هذه الظاهرة يقصدون عدم الوعي برسالة الإمام الحسين والأهداف التي سعى لتحقيقها في ثورته ضد الظلم والطغيان، وهذا الأمر كذلك ينسحب على كون هذه الظاهرة جماعية وغير نخبوية لذلك تشترك بها جميع الطبقات الاجتماعية.

في حين انتقدت نسبة من عينة البحث ظاهرة توظيف الزيارة لأمور سياسية من بعض الاحزاب وهذا بطبيعته ينحصر بالأحزاب السياسية ذات التوجّه الديني لأنّ تلك الأحزاب تعتقد أنّ الزيارة الأربعينية وغيرها من الطقوس الاسلامية تقع ضمن رسالتها الدينية التي عليها المشاركة بها وتسجيل حضورها الأيديولوجي فيها، كما تسعى هذه الأحزاب الى تعبئة جماهيرها دينيا وحزبيا في أثناء المشاركة الفعالة في هذه الزيارة، إذ تخرج المواكب والمسيرات بشكل جماعي ومنتظم للتعبير عن حضورها وتأكيد هويتها السياسية التي ترى الإمام الحسين رمزا وقائدا لتوجهاتها، وبحسب مشاهدات الباحث في أثناء مشاركته بالظاهرة لم تخلُ الطرقات والمواكب التابعة للقوى الساسية من شعارات وصور تحملان طابعا سياسيا، وهذا موضح في ملحق الصور صورة رقم (١٥-١٨)

اما مَن انتقد ظاهرة ترك الموظفين لعملهم من أجل الزيارة، فانّ ذلك يعود الى تشجيع الحكومات المحلية ودوائر الدولة والمؤسسات الأخرى للعاملين من خلال منحهم العطل والإجازات للمشاركة في أداء الزيارة ويعود هذا الأمر الى الشعور الداخلي بالخوف لدى المسؤولين من منع الناس من أداء الزيارة بالإضافة الى أنّ هؤلاء المسؤولين هم أنفسهم يشاركون في هذه الزيارة وقد حصل للباحث في أثناء عملية الاستبيان أن سأل اثنين من محافظي المدن الوسطى والجنوبية "هل تركت عملك من أجل المشاركة في اداء الزيارة" ؟ فابتسم احدهما وقال تركت محافظة كاملة من أجل المشاركة وكسب الثواب.

لذلك يكون المجتمع الشيعي في حلٍّ من أعماله في اثناء الزيارة الأربعينية حفاظا على أداء الطقس الديني والاجتماعي ، لأنّه قد يتعرض الممتنع عن أداء الزيارة الأربعينية الى انتقادات اجتماعية، وهذا الامر يحصل في المناطق الشيعية المغلقة ذات الطابع الريفي والشعبي.

٢١) هل لديك إضافة أو مقترح لتطوير المشّاية؟

جدول (٢١) يوضح إجابات المبحوثين بشأن تطوير المشّاية

الإقتراحات	التكرار	النسبة
توفير طريق خاص للزوار	١٠٧	%١٨
توسيع الحرمين الشريفين ليستوعبا الاعداد الغفيرة	٤٥	%٧
الاهتمام بالرعاية الصحية والنظافة	٦٩	% ٥
تسهيل إجراءات دخول الزوار الأجانب للعراق	١٧	%٣
توفير وسائل نقل كافية	٩٧	%١٦
عدم اختلاط النساء مع الرجال	١١١	% ٥
استثمار الزيارة للتوعية الدينية والوطنية	٥٧	%٥ ٩
استثمار الزيارة كمورد اقتصادي للبلد	٣٠	%٥
الاهتمام بالجانب الأمني	٤١	%٧
توفير تغطية إعلامية تلائم الحدث	٢٦	%٤
المجموع	**٦٠٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٢١) اقتراحات المشّاية لتطوير مراسم الزيارة الأربعينية، إذ جاء اقتراح عدم اختلاط النساء بالرجال في المرتبة الأولى بنسبة ٥ %، تلاه اقتراح توفير طريق خاص للزائرين بنسبة ١٨ %، ثم اقتراح توفير وسائل نقل كافية بنسبة ١٦ %، تلاه اقتراح الاهتمام بالرعاية الصحية والنظافة بنسبة ٥ %، بعده اقتراح استثمار الزيارة للتوعية الوطنية والدينية بنسبة ٩ ٥%، ثم اقتراح توسيع الحرمين بنسبة %، ثم اقتراح الاهتمام بالجانب الأمني بنسبة ٧%، ثم اقتراح استثمار الزيارة مورداً اقتصادياً للبلد بنسبة ٥%، ثم اقتراح توفير تغطية إعلامية مناسبة بنسبة ٤ %، ثم اقتراح تسهيل إجراءات دخول الزوار الأجانب للعراق بنسبة ٣ %

المبحث الثاني

عرض نتائج الاستبيان الخاص بمسؤولي المواكب وتوصيفها

ثانياً: نتائج الاستبيان الخاص بالمواكب الحسينية

قام الباحث بإجراء هذا الاستبيان في العام الموالي لإجراء الاستبيان الخاص بزوار الأربعينية، إذ شعر الباحث بضرورة إجراء استبيان خاص بمسؤولي المواكب الحسينية لما له من علاقة وثيقة بإداء الزيارة وتقديم الخدمات للزائرين.

٢٢) دلالات أسماء المواكب؟

جدول (٢٢) يوضح دلالات أسماء المواكب

دلالات الأسماء	التكرار	النسبة
أسماء ذات دلالات دينية	٣٠	%٧٥
أسماء ذات دلالة إجتماعية	٤	%١٠
أسماء ذات دلالة جغرافية	٦	%١٥
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول رقم (٢٢) **توزيع أسماء المواكب الحسينية**، واختيار مختلف التسميات التي تحملها المواكب، إذ بلغت نسبة المواكب التي تحمل أسماء ذات دلالات دينية مثل أسماء أهل البيت أو أصحاب الحسين.. وغيرها نحو **٧٥ %** من مجموع المواكب التي شملها المسح، تلتها المواكب التي لها أسماء مرتبطة بدلالات جغرافية وذلك بنسبة **١٥ %**، لتحل في المرتبة الثالثة المواكب التي لها أسماء مرتبطة بدلالات اجتماعية بنسبة **١٠ %**.

يميل أصحاب المواكب الحسينية إلى التبرك بأسماء آل البيت نظرا لارتباط هذه الأسماء بالشعيرة الدينية نفسها لذا جاءت نسبة المواكب التي تحمل أسماء أهل البيت نسبة عالية جدا وتحتل أسماء شهداء الثورة الحسينية أغلب هذه التسمياتِ خصوصا اسم الامام الحسين وأخيه العباس وعلي الاكبر والقاسم والرضيع ـ إشارة الى ابن الامام الحسين عبد الله الرضيع الذي لم يتجاوز عمره العام الواحد الذي رماه حرمله بسهم فذبحه من الوريد الى الوريد كما جاء في سير المقاتل ـ كما تحمل هذه المواكب أسماء عائلة الامام الحسين مثل موكب العقيلة زينب أخت الامام الحسين وموكب السيدة رقية بنت الإمام وسكينة وغيرها، تليها أسماء الائمة المعصومين وأصحاب الامام الحسين الذين شاركوا في معركة كربلاء، كما موضح في ملحق الصور، صورة رقم (١٩-٢١)

وربما يعود سبب تلك التسميات الى الارتباط الروحي للشيعة بأئمتهم ورموزهم الدينية، كما تعود أيضاً الى شعيرة الإحياء إي إحياء ذكر أهل البيت وشهداء الثورة

الحسينية من خلال تسمية المواكب بأسمائهم انسجاما مع وصية الإمام الحسين " أحيوا امرنا رحم الله مَن أحيا أمرنا "، كذلك يكون التبرك والتيمن بهذه الاسماء أحد الأسباب التي أدت الى تلك التسميات.

كما توجد مواكب تحمل اسماء قادة ومراجع دينيين تعود الى مريدين ومقلدين واتباع سياسيين لتلك الأسماء مثل موكب الصدرين وموكب الصدر الأول والصدر الثاني إشارةً الى الشهيدين محمد باقر الصدر الذي اعدمه النظام السابق سنة ١٩٨٠ والصدرالثاني السيد محمد الصدر الذي اغتاله النظام السابق في نهاية تسعينيات القرن الماضي بالاضافة الى موكب شهداء آل الحكيم وموكب الشيخ احمد الوائلي الخطيب الحسيني الشهير وغيرها من المواكب ذات الدلالات الدينية.

وكما موضح في ملحق الصور صورة رقم (٢٢-٢٤)

وقد جاءت نسبة المواكب التي تحمل اسماؤها دلالات اجتماعية بالمرتبة الثانية لكن بنسبة أدنى بكثير عن أسماء المواكب التي تحمل دلالات دينية، وربما جاءت هذه الفاصلة الكبيرة بين التسميتين بعد سقوط النظام العراقي سنة ٢٠٠٣ وانفتاح أبواب الحرية أمام الشعائر الدينية وممارستها، فقد كان اصحاب المواكب يسمون مواكبهم بأسماء ذات دلالات اجتماعية خوفا من السلطة التي كانت تحارب كل من يقترب من الدلالات الدينية في ممارسة طقوسه وشعائره، كما يعود سبب ذلك الى الوجاهة الاجتماعية التي لها اهمية كبيرة في المجتمع العراقي فالرجل الذي يترأس موكبا او يمشي أمامه او ينوح فيه فإنّه يشعر بشيء من الشموخ والأبهة من جراء ما يحيط به من جماهير تنظر اليه، كما يقول الدكتور علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث). وهكذا أخذ زعماء القبائل وشيوخ العشائر يطلقون أسماء قبائلهم وعشائرهم على المواكب. وهذا ما لاحظه الباحث في اثناء مشاركته في الظاهرة ان هناك موكب بني أسد او موكب بني تميم او السادة الجوابر أو الموسوية او غيرها من المسميات ذات البعد الاجتماعي.

اما المواكب التي جاءت اسماؤها مرتبطة بدلالاتٍ جغرافية أي مكانية فإنّ سبب ذلك يعود الى دوافع اجتماعية، كذلك فمن المتعارف في اغلب المدن او المحافظات

وجود مواكب تحمل اسماءها ودلالاتها المكانية فهناك موكب يحمل اسم العشيرة أو الأسرة وموكب أكبر يحمل اسم القرية ثم المدينة وأخير المحافظة كما يمكن أن يكون أكثر من موكب يحمل تلك الأسماء تبعا للتماسك الاجتماعي أو عدمه، فمع وجود خلافات داخل القبائل او المدن فإنّنا نلاحظ وجود اكثر من موكب يحمل الاسم نفسه.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ بعض المواكب قد حملت أسماء مركبة وكتب على يافطاتها الرئيسة أسماء ذات دلالات دينية واجتماعية وجغرافية فضلاً على الدلالات السياسية. علماً أنّ تسمية المواكب بأسماء لها دلالات سياسية لا يتحقق إلا إذا كان الموكب مرتبطا بأحزاب أو تنظيمات سياسية مثل موكب منظمة بدر او حركة العمل الإسلامي ..وغيرها من التنظيمات والقوى السياسية وكما مبين في ملحق الصور صورة رقم (٢٥-٢٨)

٢٣) تأريخ تأسيس الموكب؟

جدول (٢٣) يوضح تأريخ تأسيس الموكب

التأريخ	التكرار	النسبة
بعد عام ٢٠٠٣	٢٨	%٧٠
قبل عام ٢٠٠٣	١٢	%٣٠
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول (٢٣) التاريخ الزمني لتأسيس المواكب الحسينية التي شملها المسح، إذ أظهرت معطيات الجدول أنّ **٧٠ %** منها تم أسست بعد عام ٢٠٠٣، في حين جاءت نسبة المواكب التي تأسست قبل عام ٢٠٠٣ بـ **٣٠ %** فقط.

وربما يعود سبب ذلك إلى منع أداء الزيارة الأربعينية إبان النظام السابق الذي حكم العراق من عام ١٩٧٩ إلى غاية ٢٠٠٣، وبعد سقوطه عاد المسلمون الشيعة إلى إحياء ظاهرة "المشّاية" ممّا أدى إلى تضاعف عدد المواكب الحسينية سريعا بعد عام ٢٠٠٣.

كما توجد أسباب أخرى تتعلق بالوضع الاقتصادي للعراق بعد ذلك التاريخ وانفتاحه على الدول الاخرى وتنشيط حركة التبادل التجاري معها مع مما دفع التجار الشيعة لدعم المواكب الحسينية طلبا للثواب والرزق والبركة في تنمية رؤوس اموالهم.

٢٤) هل تم سُجِّلَ الموكب في هيئة المواكب الرسمية.(*)

جدول (٢٤) يوضح تسجيل الموكب في الهيئة من عدمه

الخيارات	التكرار	النسبة
نعم	٣٦	%٩٠
لا	٤	%١٠
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول أعلاه أنّ نسبة المواكب التي تم سُجِّلت في هيئة المواكب الحسينية بلغت **٩٠ %** ، في حين **١٠ %** منها لم تُسجّل بشكل قانوني ضمن الهيئة وهي نسبة قليلة وتعود إلى كون بعض المواكب غير ثابتة الوجود، إذ يعتمد وجودها على التبرعات الطارئة و المصادفات المواتية زمنيا لنصبها في أثناء مراسم الزيارة الأربعينية. كما انّ بعض أصحاب المواكب يعتمدون على قدرتهم المالية في دعم مواكبهم ولا يعتمدون على مساعدة الحكومة لضمان كسب الأجر والثواب.

يعود سبب تسجيل المواكب الحسينية ضمن هيئة رسمية الى أن الحكومية العراقية الحالية تقوم بدعم المواكب ماليا لتشجيع الظاهرة وتنظيمها مما يدفع بأصحاب المواكب إلى تسجيلها من أجل تنظيم عملية الدعم.

كما تقف الدوافع السياسية وراء هذا الدعم لضمان استعراض الشارع الشيعي الذي يُعدُّ أحد المسوغات الاساسية للمشروع السياسي للقوى الاسلامية الشيعية

(*)- وهي هيئة رسمية تقوم بتنظيم عمل المواكب الحسينية وتوفير الدعم المالي واللوجستي لها في اثناء المناسبات الدينية.

إذ إنّ ممارسة هذه الشعائر وتشجيعها يقع ضمن الرسالة الدينية لتلك القوى السياسية.

٢٥) **مهن أصحاب المواكب**:

جدول (٢٥) يوضح مهن مسؤولي المواكب

المهنة	التكرار	النسبة
أعمال حرة/كاسب	٣٢	%٨٠
متقاعد	٦	%١٥
عاطل عن العمل	١	%٢
موظف	١	%٢
طالب	/	/
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول رقم (٢٥) نوع العمل الذي يزاوله مسؤولو المواكب في حياتهم الإعتيادية والروتينية، إذ وجد أنّ **٨٠ %** منهم يعملون في مهن متنوعة (أعمال حرة)، في حين كان **١٥ %** منهم متقاعدين، و ظهر موظف واحد مثّل نسبة **٢،٥ %** وعاطل عن العمل واحد بالنسبة نفسها.

ويُستخلص من هذا أنّ إحياء مراسم الزيارة الأربعينية عن طريق إقامة المواكب لا يرتبط بشكل خاص بالفئات ذات الدخل العالي ولا يقتصر عليها، بل يشمل الفئات ذات الدخل المتوسط وربما ذوو الدخل المحدود والمتدني. ومن ثَمَّ فإن إنشاء المواكب غير مشروط بالقدرة المادية فقط، وإنما بالدوافع الدينية والنشأة الاجتماعية والتنافس وحب الظهور ... وغيرها من الدوافع التي تتحكم في إقدام الناس على ذلك الفعل.

ومن الجدير بالذكر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الطبقة الوسطى في العراق قد تغير عبر الزمن، إذ يرى حليم بركات أنّ الطبقة المتوسطة التي تكونت حديثا هي مزيج من المثقفين وخريجي الجامعات و من المهنيين المختلفين ومن الأطباء والمهندسين والموظفين والمحامين ومن العاملين في القطاع العام والخاص.[١]

١ـ حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٥٤.

٢٦) جنسية مسؤولي المواكب:

جدول (٢٦) يوضح جنسية مسؤولي المواكب

الجنسية	التكرار	النسبة
عراقي	٣٤	%٨٥
غير عراقي (عربي أو أجنبي)	٦	%١٥
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول رقم (٢٦) جنسية مسؤولي المواكب الحسينية، إذ شكل العراقيون منهم أعلى نسبة منهم ضمن عينة البحث بواقع **٨٥ %**، في حين مثّل العرب والاجانب منهم نحو **١٥ %**.

يؤكد الجدول أعلاه حضوراً ملحوظاً للعرب والأجانب وتمكنهم من إقامة مواكب داخل العراق مع قلة نسبتهم إلى نسبة العراقيين، إذ أتاح التغيير السياسي الحاصل في العراق بعد العام ٢٠٠٣ الفرصة الكافية لذلك، ومن الجدير بالذكر الإشارة هنا أن إقامة المواكب من غير العراقيين كان ممنوعاً ولا يسمح به النظام السابق.

وربما يرجع سبب قلة المواكب العربية والأجنبية إلى كثافة المجتمع الشيعي في العراق مقارنةً بالبلدان الأخرى، من جانب، وصعوبة منح الفيزا لدخول العرب والأجانب للأراضي العراقية من جانب آخر، فضلاً عن تخوف الجاليات الشيعية من دخول العراق بسبب العمليات الارهابية وهشاشة الوضع الامني الذي يشهد استهدافا للزوار في كل عام ومن ثَمّ صعوبة وضع مواكب ملحقة بوفود بلدانها على جانبي الطريق.

٢٧) التوزيع الجغرافي لسكن مسؤولي المواكب العراقيين:

جدول (٢٧) يوضح التوزيع الجغرافي لكل مسؤولي المواكب

التوزيع الجغرافي لمناطق سكن مسؤولي المواكب	التكرار	النسبة
محافظات الوسط	١٣	%٣٨
محافظات الفرات الأوسط	١٠	%٢٩
محافظات الجنوب	٩	%٢٧
محافظات الشمال	٢	%٦
المجموع	**٣٤**	**%١٠٠**

أظهرت معطيات الجدول (٢٧) أنّ التوزيع الجغرافي لمواقع سكن مسؤولي المواكب الحسينية داخل العراق قد توزعت على النحو الآتي، إذ احتلت محافظات الوسط المرتبة الأولى بنسبة ٣٨ %، في حين جاءت محافظات الفرات الأوسط في المرتبة الثانية بنسبة ٢٩ %،أما المرتبة الثالثة فكانت لمحافظات الجنوب بنسبة ٢٧ %، تليها محافظات الشمال بنسبة ٦ %.

وعلى الرغم من أنّ نتائج الجدول أظهرت تواجد لمسؤولي المواكب من جميع محافظات العراق، إلا أنّ نسب التفاوت في حضورهم ربما يعود إلى أن موقع المسير (المشي) الذي رصده الباحث واستطلع فيه آراء مسؤولي المواكب يقع بين محافظتي النجف وكربلاء اللتين تصنفان ضمن محافظات الوسط، كما أن لبعد وقرب المرقد المقدس للإمام الحسين عن مناطق سكن مسؤولي المواكب أثر في ذلك التفاوت.

كما أنّه من الملاحظ أنّ المواكب الحسينية في محافظات الجنوب ذات تمركز أقل، وذلك بسبب تحول البيوت في هذه المحافظات إلى شبه مواكب لإيواء "المشّاية" ولتقديم الخدمات الضرورية لهم، فالباحث في أثناء مروره في بعض مدن الجنوب ولاسيما

القرى والأرياف لاحظ أنّ أماكن الضيافة "المضايف والديوانيات" تقوم بوظيفة الحسينيات والمواكب في توفير كل مستلزمات الزائرين من مبيت وإيواء وخدمات.

٢٨) نوع الخدمة التي يقدمها الموكب؟

جدول (٢٨) يوضح نوع الخدمة التي يقدمها الموكب

نوع الخدمة	التكرار	النسبة
إطعام	٢٩	%٧٢
مبيت	٧	%١٧
خدمة أخرى	٤	%١٠
المجموع	**٤٠**	**%١٠٠**

يوضح الجدول(٢٨) نوع الخدمة التي يقدمها الموكب لـ "المشّاية" في أثناء أدائهم لمراسم الزيارة الأربعينية، إذ كانت خدمة الإطعام أكثر الخدمات التي يجري تقديمها وبنسبة **٧٢،٥ %**، تليها خدمة المبيت بنسبة **١٧،٥ %**، بينما بلغت نسبة الخدمات المختلفة الأخرى **١٠ %**.

وربما تعود طبيعة هذه النتائج لكون "المشّاية" يعتمدون في المبيت بصفة أكبر على بيوت السكان في المحافظات التي يمرون بها، و يعتمدون على المواكب في الإطعام نظرا لكونها موجودة في أثناء النهار على جانبي الطريق، أما الخدمات الأخرى فليست من الحاجات الأساسية في الزيارة لذلك جاءت نسبتها في آخر الترتيب.

إضافة إلى ذلك فإنّ الإطعام يُعدُّ أقصى درجات الكرم لدى المجتمعات البدوية، ويرى إبراهيم الحيدري في كتابة تراجيديا كربلاء أنّه خلال إقامة مواكب العزاء يقيم وجهاء البلد والاغنياء ولائم غداء وعشاء عامة، إلى جانب الولائم التي تقيمها المواكب، التي تقوم بتقديم الرز والمرق، وتسمى وجبة الأكل التقليدية في العراق "تمن وقيمه"، كما موضح في ملحق الصور، صورة رقم (٢٩) وأنه في الواقع يحدث أحيانا تبذير و إسراف في تقديم الطعام، والهدف من ذلك ليس الحصول على الأجر والثواب فحسب،

بل الأمل في جلب الرزق والبركة والعافية وكذلك رفع مكانة الشخص الاجتماعية وسمعته بين الناس.[1]

أما مايتعلق بالمبيت فيذكر أنّ سكان المحافظات القريبة في الفرات الأوسط يميلون إلى المشي حتى يصلون الى مسافة معينة آخر النهار فيعودون للنوم في بيوتهم، ليعودوا إلى النقطة نفسها التي توقفوا عندها في اليوم السابق ويستكملوا مشيهم.

أما الخدمات الباقية فهي كثيرة ومتنوعة لا تنتهي عند حد معين يحاول أصحاب المواكب الصغيرة او الباحثون عن تقديم خدمات مختلفة كسبا للزوار ابتكار أنواع خدمات كمالية مثل تدليك الزائرين أو تقديم أنواع من الفواكة والمرطبات او مساعدة الظالين عن ذويهم وغيرها.

٢٩) التكاليف المالية المتوقعة للموكب؟

جدول (٢٩) يوضح التكاليف المالية المتوقعة للموكب

التأريخ	التكاليف المالية بالمليون						المجموع	
	٥-٧		٨-١٠		١١-١٣			
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
٢٠١٠ وماقبلها	٢٧	%٦٧	١٠	%٢٥	٣	%٧،٥	٤٠	%١٠٠
٢٠١١	٩	%٢٢،٥	٣١	%	/	/	٤٠	%١٠٠
٢٠١٢	/	/	٧	%١٧،٥	٣٣	%٨٢،٥	٤٠	%١٠٠

يوضح الجدول رقم (٢٩) التكاليف المادية للمواكب الحسينية، مقسمة على ثلاث مراحل زمنية على النحو الآتي:

أكد نحو %٦٧،٥ من مجموع وحدات العينة أن العام ٢٠١٠ وما سبقه كانت تكاليف الموكب تتراوح بين (٥-٧) مليون دينار عراقي، كما أشار ٢٥% منهم إلى أنّ

١- ابراهيم الحيدري، مصدر سابق، ص ١٣٣.

التكاليف بلغت (٨-١٠) مليون للمدة ذاتها. في حين أكد نحو ٧،٥% من مجموع وحدات العينة أن التكاليف في تلك المدة تقدر بنحو (١١-١٣) مليون.

كما أكد نحو ٢٢،٥% من مجموع وحدات العينة أن العام ٢٠١١ كانت تكاليف الموكب تتراوح بين (٥-٧) مليون دينار عراقي، وأشار نحو ٧٧،٥% منهم إلى أنّ التكاليف بلغت (٨-١٠) مليون للمدة نفسها. في حين لم يذكر أيٌّ من وحدات العينة أنّ التكاليف في تلك المدة وصلت إلى (١١-١٣) مليون.

وأظهرت معطيات الجدول أن ١٧،٥% من مجموع وحدات العينة أكدو أنّ في العام ٢٠١٢ بلغت تكاليف الموكب نحو (٨-١٠) مليون دينار، كما أشار ٨٢،٥% منهم إلى أنّ التكاليف بلغت (١١-١٣) مليون للمدة نفسها. في حين لم يذكر أيٌّ من وحدات العينة أن التكاليف في تلك المدة وصلت إلى (٥-٧) مليون دينار عراقي.

ربما يعود سبب تزايد التكاليف المالية للمواكب الحسينية لعام ٢٠١٢مقارنة بالسنوات السابقة إلى تزايد عدد "المشّاية" مقارنة بالسنوات الماضية إذ سّجَل العام ٢٠١٢ وصول أكثر من ١٦ مليون زائر، كما يعود سبب ذلك أيضاً إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة، إذ بلغت كلفة الإنفاق الحكومي نحو ٥ مليار دينار لتغطية تكاليف الزيارة.

٣٠) مصادر تمويل المواكب؟

جدول (٣٠) يوضح مصادر تمويل المواكب

مصادر التمويل	التكرار	النسبة
تمويل ذاتي	١٧	٤٢،٥%
تبرعات أهالي	١٣	٣٢،٥%
مساعدات حكومية	١٠	٢٥%
المجموع	**٤٠**	**١٠٠%**

يوضح الجدول (٣٠) مصادر تمويل المواكب الحسينية، إذ أظهرت معطيات الجدول أنّ ٤٢،٥ % منها مصادر تمويلها ذاتي، في حين ٣٢،٥ % منها تعتمد على تبرعات الأهالي، ونحو ٢٥% من المواكب مصادر تمويلها مساعدات حكومية.

إنّ الظروف التاريخية لتأسيس المواكب الحسينية التي غالباً ما كانت ترتبط بعائلات أو عشائر أو شخصيات اجتماعية، تفسر لنا ارتفاع نسبة التمويل الذاتي على غيرها من مصادر التمويل، إذ بدأت بجهود ذاتية ولم يتحول إلا قسمٌ منها إلى هيئات عامة تعتمد على التبرعات أو على المساعدات الحكومية، بل بقيت نسبة كبيرة منها تقترب من النصف، محافظة على طابعها الأول وعلى طبيعة مصادر تمويلها الخاصة.

كما أنّ لدى بعض الشيعة معتقد يؤكد أنّ الأموال المصروفة في المواكب الحسينية ليس الهدف منها الحصول على الأجر والثواب فقط بل إنها تسهم في جلب الرزق والبركة والعافية.

وتتمثل التبرعات العامة التي توفرها الدولة عن طريق هيئة المواكب الحسينية بالمواد الغذائية والوقود وغيرها.

٣١) ما دوافع الخدمة؟

جدول (٣١) يوضح دوافع خدمة المشّاية

الدوافع	التكرار	النسبة
كسب الثواب	٣١	٧٧،٥%
تقليد درجت عليه منذ الطفولة	٩	٢٢،٥%
وجاهة اجتماعية	/	/
المجموع	**٤٠**	**١٠٠%**

يظهر الجدول (٣١) الدوافع التي تقف وراء إقامة المواكب الحسينية ، إذ أكد نحو ٧٧،٥% أنهم يسعون لكسب الثواب، في حين أشار نحو ٢٢،٥ % منهم إلى أنه تقليد درجوا عليه منذ الطفولة، في حين لم يذكر أيٌّ من المبحوثين أنّ دافعهم الوجاهة

الاجتماعية، إذ يرى كثيرون أنّ أداء خدمة "المشّاية" تُعدُّ واجباً اجتماعياً وتكليفاً دينياً، ولا يجب أن يرتبط بأفكار وتوجهات دنيوية، وعلى الرغم من ذلك بالإمكان القول إنّ الوجاهة قد تكون جزءًا من الأهداف غير المعلنة، لكن بنسبة أقل بكثير من نسبة ارتباط هذه الخدمة بأهداف دينية تتمثل في كسب الثواب. في حين يرى الدكتور على الوردي أنّ عامل الوجاهة الاجتماعية يقف في مقدمة الدوافع وراء انشاء المواكب كما تقدم في مباحث سابقة.

المبحث الثالث نتائج وإستنتاجات الدراسة والتوصيات والمقترحات

بعد عرض معطيات الدراسة الميدانية وتحليلها في المباحث السابقة سنتعرض في هذا المبحث الختامي إلى أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من دراسته حول ظاهرة "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية بشقيها (النظري والميداني)، تليها استنتاجات الباحث، بالإضافة إلى التوصيات التي خرجت بها الدراسة وسنختم بالمقترحات التي يرى الباحث أنها جديرة بالدراسات المستقبلية

أولا: النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

إنّ هدفنا من هذه النقطة (النتائج) يكمن في تقديم عناصر معرفية قادرة على توضيح أية مقولة حول ظاهرة "المشّاية" بوصفها طقساً دينياً من طقوس وشعائر العزاء الحسيني ، وقد توصل الباحث من خلال دراسته بشقيها (النظري والميداني) تكرار، إلى مجموعة من النتائج المهمة التي تضع ظاهرة "المشّاية" في إطارها الحقيقي، من خلال البحث في جذورها التاريخية وعواملها و أسبابها ودوافعها ، بالإضافة إلى النتائج التي توصل إليها الباحث في أثناء مشاركته في هذه الظاهرة من خلال الاستبانة الذي قام بها والنتائج التي تمخضَّ عنها كونها مجتمع البحث وعينته، وعلى ضوء ذلك يقدم الباحث مجموعة من النتائج التي توصل إليها وهي:

١- تبيّن من خلال الدراسة أنّها ظاهرة اجتماعية عامة تشارك بها كلُّ الأجناس البشرية للمجتمع المسلم الشيعي وأنّ نسبة الذكور مثلت **٦١ %** من مجموع وحدات العينة، وهي أعلى من نسبة الإناث التي مثلت **٣٩ %**. كما شاركت بها مختلف المراحل العمرية ضمن عينة البحث من الزوار، إذ شكلت فئة الشباب غالبيتها بنسبة تراكمية بلغت **٦٣ %** للفئة العمرية (١٨-٣٩)، في حين لم تتجاوز نسبة المسنين ممن بلغت أعمارهم ٦٢ عاماً فأكثر نحو **٥%** من مجموع وحدات العينة.

٢- أنّ هذه الظاهرة تمارس من المتعلمين من ذوي الشهادات الجامعية اذ تشكل النسبة الأكبر ضمن "المشّاية" ٦٠ % مما يجعل هذه الظاهرة غير مقتصرة على الفئات

المجتمعية ذات التعليم المحدود، على العكس مما يميز غالبية التظاهرات العقائدية عبر التاريخ، إذ إنّ ظاهرة "المشّاية" تنتشر في الأوساط المثقفة وتُقبِل على أدائها جميع الشرائح الاجتماعية مما يعطيها بعدا ثقافيا وحضاريا يجعلها تتعدى كونها شعيرة دينية لتصبح معتقدا فكريا وإنسانيا.

٣- أنّ ظاهرة الدراسة عراقية اذ تبلغ نسبة العراقيين ٨٤ %، وذلك بأغلبية ساحقة مقارنة مع الجنسيات الأخرى المندرجة ضمن فئة غير العراقيين التي بلغت ١٦ % فقط.

وهذا يعود الى طبيعة المجتمع العراقي التي عدها الباحث أحد الدوافع والأسباب التي أدت الى اتساع ظاهرة المشّاية كما جاء في المبحث الثالث من الفصل الثالث.

٤- أظهرت معطيات الجدول أنّ نسبة سكان المناطق الحضرية تشكل ٦٧ % من مجموع المبحوثين، في حين بلغ سكان المناطق الريفية ٣٣ % فقط، ويتوافق ذلك التوزيع مع طبيعة التركيب الحضري الريفي للمجتمع العراقي، مما يؤشر وبدلالات واضحة أنّ ظاهرة "المشّاية" لا تندرج ضمن الظواهر المدنية ولا تندرج ضمن الظواهر القروية أو الريفية أيضاً بل تمثل جميع بيئات المجتمع العراقي كونها ظاهرة مرتبطة بالعقائد الدينية، وهو ما يميزها عن كثير من العادات والتقاليد و المراسم التي تكون عادة ذات انتشار ريفي، إذ إنّ مشاركة سكان المناطق المدنية يجعل ظاهرة "المشّاية" ظاهرة اجتماعية عامة.

٥- أنّ ظاهرة "المشّاية" ظاهرة اجتماعية من الدرجة الأولى، إذ إنّ الغالبية الساحقة من الزوار ضمن عينة البحث يفضلون أداءها مع الأصدقاء أو العائلة وقلة قليلة لا تتجاوز العشرة بالمائة تفضل أداءها من دون مرافقين، إذ إنّ ٦٣ % منهم كان مرافقوهم من الأصدقاء، في حين كانت العائلة هي المرافقة لـ ٢٧ % منهم، أما الزوار الذين فضلوا أداء الشعائر منفردين ومن دون مرافقين فكانت ١٠%.

٦- من خلال انخفاض نسبة المشاركة بزيارة الأربعين مشيا على الاقدام أيام النظام السابق يتبيّن أنّ نسبة المشاركة تتعلق بنوعية السلطة الحاكمة وطبيعة نظرة السلطة الى الطقوس الدينية، إذ إنّ ٦٦ % من الزوار الذين شملتهم عينة البحث أكدوا عدم

مشاركتهم بالزيارة قبل عام ٢٠٠٣، في حين أشار نحو **٣٤%** منهم إلى أنهم أدّوا هذه الشعائر في تلك الأيام .

٧- تبين من خلال نتائج الدراسة أنّ من تركوا أعمالهم أو دراستهم لأداء الزيارة الأربعينية تقدر بـ **٧٠%** ، في حين بلغت نسبة من نفوا كونهم تركوا أعمالهم أو دراساتهم من أجل أداء الزيارة بواقع **٣٠ %** من مجموع عينة البحث، وتوضح تلك النسبة المرتفعة للذين تركوا أعمالهم الأهمية التي يوليها الزوار لظاهرة "المشّاية" إذ يترك غالبيتهم أعمالهم للمشاركة في مراسم الزيارة الأربعينية على الرغم من عدم كونها فرضا دينيا واجبا، كما يعود سبب ارتفاع نسبة من تركوا اعمالهم وانصرفوا لاداء الزيارة الى كون زيارة الامام الحسين تجلب الرزق وتطيل في العمر.

٨- على الرغم من عدم وجود نسب احصاءات رسمية دقيقة توضح حجم المصروفات الكلية لهذه الظاهرة وما يرافقها من تحضيرات لوجستية وما يتخلف عنها من ركود اقتصادي نتيجة ترك أعداد كبيرة لعملها اثناء تأدية الزيارة فان هناك اسقاطات اقتصادية لهذه الظاهرة لا تقتصر على كمية المصروفات التي ينفقها كل زائر بل تقاس بمصروفات المواكب الموزعة على طول الطرق بين المحافظات التي تقدم شتى الخدمات

يوضح الجدول (١٧) معدل مصروف الزوّار المشمولين بالبحث، إذ قدرت الفئة [من١٠٠٠ إلى٢٥٠٠٠] بنسبة **٣٦ %** ، تلتها الفئة [من٢٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠] بنسبة **٢٦،٥%**، ثم فئة [من ٥١٠٠٠ إلى ٧٥٠٠٠] بنسبة **٢٠%**، بعدها فئة [من ٧٦٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠] بنسبة **١٦,٥ %** ، وأخيرا فئة [أكثر من١٠٠٠٠٠] بنسبة **١ %**.

تبين النتائج أعلاه أن معدل الصرف المتوسط لأكبر نسبة من الزوار ضمن عينة البحث لا يشكل مبالغا كبيرة، ويعود هذا لوجود المواكب الحسينية التي تعد جزءا أساسيا في الظاهرة، من خلال ما تقدمه من خدمات مجانية ومن طعام وإيواء للزوار القادمين من مختلف المناطق والبلدان.

غير أنه من جهة أخرى فإن هذه المبالغ الصغيرة المصروفة تشكل بالتراكم مبالغ يُعتّد بها تصرف في أثناء هذه الظاهرة، ومن ثَمّ فيمكن الربط بين ظاهرة "المشّاية" والمؤشرات الاقتصادية، من ناحيتين: الأولى ما يصرفه الزوّار، والثانية ما تكلفه الظاهرة لخزينة الدولة العراقية من مبالغ.

٩- هناك أفكار مسبقة تؤثر على خيال المشاركين في ظاهرة "المشّاية" اذ يعتقد هؤلاء الزوار أنّ هناك استجابة سريعة وخارقة للعادات الطبيعية قد تحصل نتيجة الدعاء أو النذر في أثناء المشاركة في هذه الزيارة وتحمل العناء من مسافات طويلة، فالامام الحسين ولما له من قدر وقيمة كبيرين عند الله تعالى قد يستجيب لنذر زائر ما ويحقق حاجته وهذا ما يشاع في أثناء الزيارة لذلك نجد ازدياد عدد المشاركين في هذه الظاهرة.

١٠- يتضح من نتائج الدراسة وجود توضيف سياسي للظاهرة إذ انتقدت نسبة من عينة البحث ظاهرة توظيف الزيارة لأمور سياسية من بعض الاحزاب وهذا بطبيعته ينحصر بالأحزاب السياسية ذات التوجّه الديني لأنّ تلك الأحزاب تعتقد أنّ الزيارة الأربعينية وغيرها من الطقوس الإسلامية تقع ضمن رسالتها الدينية التي عليها المشاركة بها و تسجيل حضورها الآيديولوجي فيها، كما تسعى هذه الاحزاب الى تعبئة جماهيرها دينيا وحزبيا في أثناء المشاركة الفعالة في هذه الزيارة اذ تخرج المواكب والمسيرات بشكل جماعي ومنتظم للتعبير عن حضورها وتأكيد هويتها السياسية التي ترى الامام الحسين رمزا وقائدا لتوجهاتها، وبحسب مشاهدات الباحث في اثناء مشاركته بالظاهرة لم تخلُ الطرقات والمواكب التابعة للقوى الساسية من شعارات وصور تحملان طابعا سياسيا.

١١- يتضح من خلال الدراسة أنّ نسبة المواكب التي تحمل أسماء ذات دلالات دينية مثل أسماء أهل البيت أو اصحاب الحسين اعلى من غيرها إذ بلغت نحو **٧٥ %** من مجموع المواكب التي شملها المسح، تلتها المواكب التي لها أسماء مرتبطة بدلالات

جغرافية وذلك بنسبة ١٥ %، لتحل في المرتبة الثالثة المواكب التي لها أسماء مرتبطة بدلالات اجتماعية بنسبة ١٠ %.

وهذا يبين تمذهب المشاركين في هذه الظاهرة اذ يميل أصحاب المواكب الحسينية إلى التبرك بأسماء آل البيت نظرا لارتباط هذه الأسماء بالشعيرة الدينية نفسها .

كما توجد مواكب تحمل أسماء قادة ومراجع دينيين تعود الى مريدين ومقلدين واتباع سياسيين لتلك الأسماء مثل موكب الصدرين وموكب الصدر الاول والصدر الثاني إشارة الى الشهيدين محمد باقر الصدر الذي اعدمه النظام السابق سنة ١٩٨٠ والصدرالثاني السيد محمد الصدر الذي اغتاله النظام السابق في نهاية تسعينيات القرن الماضي بالإضافة الى موكب شهداء آل الحكيم وموكب الشيخ أحمد الوائلي الخطيب الحسيني الشهير وغيرها من المواكب ذات الدلالات الدينية.

١٢- يتضح أنّ التاريخ الزمني لتأسيس المواكب الحسينية التي شملها المسح يعود الى ما بعد سقوط النظام العراقي سنة ٢٠٠٣ ، إذ أظهرت معطيات الجداول أنّ ٧٠ % منها تم أُسّست بعد عام ٢٠٠٣، في حين جاءت نسبة المواكب التي كانت قبل عام ٢٠٠٣ بـ ٣٠ % فقط.

وربما يعود سبب ذلك إلى منع أداء الزيارة الأربعينية إبان النظام السابق الذي حكم العراق من عام ١٩٧٩ إلى غاية ٢٠٠٣، وبعد سقوطه عاد المسلمون الشيعة إلى إحياء ظاهرة "المشّاية" مما أدى إلى تضاعف عدد المواكب الحسينية سريعا بعد عام ٢٠٠٣.

وهذا يؤكد ارتباط هذه الظاهرة بالعوامل السياسية وطبيعة علاقة الجماعة الشيعية بالانظمة الحاكمة كما تقدم .

١٣- تبين من خلال الدراسة أنّ الحكومة الحالية تدعم هذه الظاهرة من خلال هيئة المواكب الحسينية إذ إنّ نسبة المواكب التي سُجلت في هذه الهيئة بلغت ٩٠ % ، في حين ١٠ % منها لم تُسجّل بشكل قانوني ضمن الهيئة وهي نسبة قليلة ، كما تقف الدوافع السياسية وراء هذا الدعم لضمان استعراض الشارع الشيعي الذي يُعدُّ أحد المسوغات الاساسية للمشروع السياسي للقوى الاسلامية الشيعية إذ إنّ ممارسة هذه الشعائر وتشجيعها يقع ضمن الرسالة الدينية لتلك القوى السياسية.

١٤- الإطعام يُعدُّ أقصى درجات الكرم لدى المجتمعات البدوية والهدف من ذلك ليس الحصول على الأجر والثواب فحسب، بل الأمل في جلب الرزق والبركة والعافية وكذلك رفع مكانة الشخص الاجتماعية وسمعته بين الناس ،اذ إنّ نوع الخدمة التي يقدمها اصحاب الموكب لـ "المشّاية" في أثناء أدائهم لمراسم الزيارة الأربعينية هي الاطعام بنسبة عالية وصلت الى : ٧٢،٥ %، تليها خدمة المبيت بنسبة ١٧،٥ %، في حين بلغت نسبة الخدمات المختلفة الأخرى ١٠ %.

١٥- ربما يعود سبب تزايد التكاليف المالية للمواكب الحسينية لعام ٢٠١٢مقارنة بالسنوات السابقة ناجم عن تزايد عدد "المشّاية" مقارنة بالسنوات الماضية إذ سجلت العام ٢٠١٢ وصول أكثر من ١٦ مليون زائر، كما يعود سبب ذلك أيضاً إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة، إذ بلغت كلفة الإنفاق الحكومي نحو ٥ مليار دينار لتغطية تكاليف الزيارة.

١٦- اتضح من خلال الدراسة أنّ الدوافع التي تقف وراء إقامة المواكب الحسينية ، بحسب ما أكد نحو ٧٧،٥% أنّ أصحابها يسعون لكسب الثواب، في حين أشار نحو ٢٢،٥ % منهم إلى أنّه تقليد درجوا عليه منذ الطفولة، في حين لم يذكر أيٌّ من المبحوثين أنّ دافعهم الوجاهة الاجتماعية، إذ يرى كثيرون أنّ أداء خدمة "المشّاية" تعد واجباً اجتماعياً وتكليفاً دينياً، ولا يجب أن يرتبط بأفكار وتوجهات دنيوية، وعلى الرغم من ذلك بالإمكان القول إنّ الوجاهة قد تكون جزءًا من الأهداف غير المعلنة، لكن بنسبة أقل بكثير من نسبة ارتباط هذه الخدمة بأهداف دينية تتمثل في كسب الثواب. في حين يعتقد الدكتور على الوردي بانّ عامل الوجاهة الاجتماعية يقف في مقدمة الدوافع وراء انشاء المواكب كما تقدم في مباحث سابقة.

ثانياً: إستنتاجات الدراسة:

١- وجد الباحث من خلال الدراسة النظرية لموضوعة البحث على ضوء المنهج التاريخي والتأويلي أنّ التأصيل الديني لهذه الظاهرة لم يتناسب وحجمها الحالي على الرغم من كثرة الروايات التي أكدت استحباب زيارة الإمام الحسين بشكل عام وزيارة أربعينيته بشكل خاص ، لكنه لم يعثر على روايات كافية تؤكد استحباب أداء هذه الزيارة بطريقتها الحالية (المشي على الأقدام لمسافات طويلة) عدا رواية واحدة تتعدد أساليب نقلها من الرواة عن الإمام جعفر الصادق لكنها تحمل دلالة واحدة تقريبا، إذ يوضح الإمام الصادق درجات الثواب التي ينالها الزائر بعدد الخطوات التي يقطعها في الطريق إلى ضريح الإمام الحسين، إذ أنه لم يكن كافيا أن يبّين الإمام الصادق القيمة الجزائية للثواب لجعل الزائر يقوم بقطع المسافات الطويلة والشاقة تاركا وراءه كل وظائفه الاجتماعية وعلى مدى أسابيع أو أشهر- إذا كان الزائر من بلدان بعيدة - فالواضح من سياق الرواية التي أكدّت على عدد الحسنات التي تتضاعف مع عدد الخطوات، أنّ الإمام الصادق كان يشجع على أداء الزيارة وليس على الوسائل التي تتحقق بها ، ويؤكد هذا المعنى السياق التاريخي للرواية ، إذ كانت وسائط النقل لا تتعدى المشي على الأقدام أو ركوب الدواب في أحسن حال، لذلك كانت وسائل النقل السائدة آنذاك هي السير على الأقدام لأداء مناسك الحج والزيارة، أما ركوب الدواب فكان مقتصرا على ميسوري الحال فقط، لذا استخدم الإمام الصادق في الرواية مقياس عدد الخطوات وليس حجم المسافة .

وعلى الرغم من أن الإمام الصادق ومن تبعه من الأئمة لم يوضحوا المعنى الحقيقي المقصود من طريقة أداء الزيارة، إلا أنّ هذه الطريقة أي "المشّاية" أخذت طابعا طقسيا ودينيا عند المسلمين الشيعة، لا لأنها تتعلق برمزية الإمام الحسين فحسب بل لوجود حاجة نفسية لديهم تستدعي الأداء بهذه الطريقة من خلال الوظائف الروحية للشعائر ذات النزعة العلاجية - الشفاء من الأمراض - التي تهدف إلى إعادة تعويض الإنسان عن صروف الحياة، بحيث أخذت الجماعات الشيعية المغلوب على أمرها تمارس هذه الشعائر للتعويض عن حالات الحرمان التي تشعر بها، وهذا ما أكدته نتائج الدراسة

الميدانية التي قام بها البحث، إذ أجابت نسبة كبيرة من عينة البحث أنّ الدافع الرئيس من ممارسة هذه الظاهرة "المشّاية" هو (حبُّ الإمام الحسين) و(شفاء مرضى) إذ احتلت هاتان الإجابتان المرتبة الأولى لأجوبة المستبينين في سؤالين مختلفين.

بالإضافة إلى ذلك فإن الإمضاءات الفقهية اللاحقة لشرعيّة هذه الظاهرة جعلتها تأخذ طابعا دينيا على الرغم من تأخر هذه الشرعيّة عن زمن التشريع الديني عند المسلمين الشيعة التي تعود في طبيعتها إلى أسباب وعوامل سياسية ، و لا سيما أنّ هذه الإمضاءات الفقهية حصلت بعد عام ٢٠٠٣، أي بعد توافر المناخ السياسي والاجتماعي لنجاح هذه الظاهرة التي تكتنز دلالاتٍ سياسية واجتماعية كبيرة.

٢- على ضوء ما تقدم يخلص الباحث إلى أنّ "المشّاية" **ظاهرة اجتماعية / سياسية،** أكثر من كونها ظاهرة دينية، و أنّ وجودها في المجتمع العراقي تحديدا أسهم في بلورتها وانتشارها بهذا الشكل، بحكم الظروف الاجتماعية والسياسية للجماعة الشيعية في العراق التي بدأت باستيفاء حقوقها التاريخية من الجماعات الفوقية (السلطة) التي تسببت في حرمانها من ممارسة طقوسها وشعائرها الدينية على مر العصور، فبعد سقوط نظام صدام حسين في العراق عام ٢٠٠٣ وجد المجتمع الشيعي أنّ الفرصة التاريخية التي انتظرها طويلا قد حانت للقيام بممارسة هذه الطقوس. كان الزوار الشيعة وهم يقطعون ألآف الأميال سيرا على الأقدام في زيارة أربعينية الإمام الحسين ينشدون هدفين مهمين: الأول قريب والثاني بعيد، فالقريب اشتمل على جوانب عاطفية ودينية لإشباع الجانب الروحي والعقائدي لهم، أما الهدف البعيد فأنه ينطوي على مشروع اجتماعي / سياسي أكثر عمقا وبالطبع أكثر دقة يتمثل في: إعادة بناء الوحدة الاجتماعية للجماعة الشيعية من خلال منحها مجددا شخصيتها وخصوصيتها الثقافيتين. هذه الرغبة غير المعلنة في الانبعاث الشيعي كانت تتغلغل في التعابير الرمزية لأول حركة لهم في هذا الاتجاه ـ أي في أول مسيرة مليونية قام بها الزوار الشيعة مشيا على الأقدام لأداء مراسم زيارة الإمام الحسين بعد سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ ـ ومن العبث الكلام عن الاحتفاء الشيعي بهذا المشروع من دون التأكيد على أن الحقد الشيعي إزاء نظام صدام لم يكن

استنفد بعد، فما زالت معاني النظام السابق راسخة في الذهنية الجمعية لهؤلاء الزوار. لذلك جاءت حركة الجماعة الشيعية تهدف إلى إعادة الهيبة إلى هويتها المقموعة والتأكيد بشتى الوسائل على هذه الرسالة التي تكتنز دلالات ثقافية وسياسية في الوقت نفسه .

٣- بالإضافة إلى ما تقدم يرى الباحث أن حاجة الجماعة الشيعية لتحقيق كثير من الطموحات المكبوتة منذ زمن طويل، هي التي فرضت على هذه الجماعة ضرورة اختيار آيديولوجي شديد الترسخ في المخيلة الجماعية، إذ إنّ كل تضرع بشري يتوجه للمقدس أو يتمفصل حوله يحمل في طياته صلاة دينية، إنّ الفراغ الذي يشعر به الزوار الشيعة يُعوّض مع تكاثر أعداد المشاركين في ظاهرة " المشّاية "، لأن السعي وراء المقدس يشكل ثابتة عند الإنسان، فهو يعبر عن حاجة نفسية إلى تنظيم التوترات الداخلية عند أي فرد يحن إلى الوجود الجماعي، عندما يكون المقصود هو العمل بصورة جماعية من أجل إعادة التوازن إلى العالم النفسي المشوّش، ومن ثمَّ فهذا يعني أنّ الحاجة إلى المقدس تتجاوز الفرد لتحتضن الجماعات التي من خلال ذلك التحرك الديني سوف تبحث في الماضي عن التوازن الذي تحن اليه اليوم، وقد يتخذ هذا البحث عن الماضي طرقا عدة فالأكثر قبولا بينها هو الطريق الذي يرتكز على ممارسة الطقوس والشعائر التعبيرية عن المقدس للتلاعب بالحاضر المبهم.

أدركت الجماعة الشيعية أنّ بإمكانها التلاعب بهذا الحاضر وتعويض طموحاتها السياسية التي كانت تحلم بها نتيجة المكاسب التي حصلت عليها الأحزاب الشيعية مؤخرا التي لم توفر لها تحقيقا أدنى لتلك الأحلام، من خلال ظاهرة "المشّاية" التي راحت تعبر عن انبعاث جماعي بإمكانه التعبير عن الطموحات المكبوتة، موظفين لذلك التحولات السياسية لمصلحة هذا الشعور الجماعي، لأنهم يدركون أنّ المحتوى السياسي للأحزاب الشيعية لا يتواءم مع تلبية احتياجاتهم المستقبلية كونهم جماعةً مستقلةً تبحث عن هوية قادرة على الانبعاث، لذلك جاءت ظاهرة "المشّاية" بمحتواها الداخلي تمثل ردة فعل منفصلة عن التوظيف السياسي لتلك الأحزاب، و إن لم يكن هذا الاستقلال / الانفصال مقصودا أو مخططا له، بل جاء في التعابير البينية لتلك الممارسات، ويؤكد ذلك المعنى

النتائج الميدانية للبحث، إذ إنّ وجود نسبة المتعلمين من ذوي الشهادات الجامعية في هرم نتائج الاستبانة ليسجل أعلى نسبة مشاركة في ظاهرة "المشّاية"، هذه النسبة العالية للمتعلمين تؤكد قصدية السعي للانبعاث المستقل عن التوظيف السياسي من أجل التعويض عن الاحتياجات وتلبية الطموحات المكبوتة.

ثالثا : المقترحات :

بناء على مجريات البحث و الأهداف والنتائج التي توصل إليها ، فإنّ الباحث لا يجد بدا من تصنيف بعض التوصيات التي استطاع أن يكون تصوراته عنها من خلال دراسته الميدانية لظاهرة "المشّاية" إذ يوجد نوعان من التوصيات أحدهما مستمد من مجتمع البحث، إذ تضمنت استمارة الاستبانة فقرة تتعلق بالتوصيات وضعها الباحث لغرض التعرف على آراء العينة واقتراحاتها لتطوير ظاهرة "المشّاية"، أما القسم الثاني منها فتمثل آراء الباحث واقتراحاته التي توصل إليها

أ) توصيات الدراسة:

لأهمية ظاهرة "المشّاية" في مراسم الزيارة الأربعينية في المجتمع العراقي الحديث ودورها في تشكيل الوعي الجمعي في القضايا الدينية، يرى الباحث أنّ يقدم مجموعة مقترحات بهذا الخصوص من شأنها إغناء هذه الظاهرة بالدراسات والبحوث : ـ

١ـ إنشاء مركزٍ للدراسات الدينية يدرس هذه الظاهرة من كافة جوانبها بشكل متخصص.

٢ـ دراسة هذه الظاهرةَ انثروبولوجيا، لتقويم العلاقات الاجتماعية التي ترشح عنها في أثناء عملية المشاركة من ملايين الأشخاص وتقديم النتائج التي تتمخض عنها.

٣ـ دراسة التوظيف السياسي والديني لهذه الظاهرة.

٤ـ دراسة الجانب الاقتصادي لهذه الظاهرة على وفق الإحصاءات الرسمية للنفقات والمصاريف التي تنفق عليها.

٥ـ دراسة المواكب الحسينية بشكل عام وعلاقتها بالمجتمع العراقي.

٦ـ دراسة ظاهرة "المشّاية" وانتقالها إلى مناسبات أخرى مثل وفيات الأئمة وبعض رجال الدين والرموز الدينية .

ب) مقترحات مجتمع البحث وهي :

١- اقتراح عدم اختلاط النساء بالرجال جاء في المرتبة الأولى بنسبة ١٨,٥ %.

٢- اقتراح توفير طريق خاص للزائرين بنسبة ١٧,٨ %.

٣- اقتراح توفير وسائل نقل كافية تقل الزوار من والى كربلاء بنسبة ١٦,٢ %.

٤- اقتراح الاهتمام بالرعاية الصحية والنظافة من قبل الزوار بنسبة ١١,٥ %.

٥- اقتراح استثمار الزيارة للتوعية الوطنية والدينية والاجتماعية من الحكومة والمرجعيات الدينية بنسبة ٨,٦ %.

٦- اقتراح توسيع الحرمين بين ضريح الإمام الحسين وأخيه العباس بنسبة ٧,٥ %.

٧- اقتراح الاهتمام بالجانب الأمني من قبل الحكومة بنسبة ٦ %.

٨- اقتراح استثمار الزيارة بوصفها مورداً اقتصادياً للبلد بنسبة ٤,٣ %.

٩- اقتراح توفير تغطية إعلامية مناسبة للزيارة الأربعينية بنسبة ٣,٥ %.

١٠- اقتراح تسهيل إجراءات دخول الزوار الأجانب للعراق بنسبة ٢,٨ %.

المصادر والملاحق

المصادر

الملحق الأول
الاستمارة الخاصة بزوار أربعينية الإمام الحسين (ع)

الملحق الثاني
الاستمارة الخاصة بمسؤولي مواكب زيارة أربعينية الإمام الحسين (ع)

المـصادر

أولاً: الكتب:-	
ت	المصدر
١	القرآن الكريم
٢	إبراهيم الحيدري: تراجيديا كربلاء، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران.
٣	إبراهيم عيسى عثمان: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، الأردن.
٤	ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار المؤرخ العربي، القاهرة، مصر، ط٣، ١٩٧٨.
٥	ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ٥.
٦	ابن قولويه القمي: كامل الزيارات، دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنانـ ١٩٨٠.
٧	ابن قتيبة: الإمامة و السياسية، دار النهضة، مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢.
٨	أنتوني غدنز: علم الاجتماع، (مع مدُخلات عربية)، ط٤، ترجمة الدكتور فايز الصايغ، بيروت - المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥.
٩	د. احمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨.
١٠	د. إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩.
١١	انطوان بارا: الحسين في الفكر المسيحي، مطبعة سرور، قم، ايران، ط٢، ٢٠٠٤.
١٢	بول ريكور: محاظرات في الايدولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، ٢٠٠١.
١٣	حاتم الكعبي: السلوك الجمعي، مطبعة الديوانية الحديثة، الديوانية، العراق، ط١، ١٩٧٣ .
١٤	الحر العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت لاحيار التراث، إيران، قم، ط٤، ١٩٩٤.
١٥	حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
١٦	د. حميد جاعد محسن: أساسيات البحث المنهجي، بغداد- شركة الحضارة للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.
١٧	حيدر العزاوي: ومضات حسينية، مؤسسة عاشوراء، قم ،إيران ، ٢٠٠١.
١٨	حنا بطاطو: العراق، ترجمة منيف الرزاز، دار الأمة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٠.
١٩	حسين البروجوردي: جامع احاديث الشيعة، دار الاعلمي، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٣.
٢٠	حسين النوري: مستدرك الوسائل، دار العراف للمطبوعات، ط٣، ٢٠٠١.
٢١	خالد حنتوش: المؤسسة الدينية ودورها في المجتمع، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، الآداب ،٢٠١٠.
٢٢	الخوارزمي: مقتل الحسين، مكتبة المفيد، قم، إيران.

٢٣	روبير بندكتي: الشعائر بين الدين والسياسة، دار مصر المحروسة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥.
٢٤	رودولف غيمليون وبنيامين ماتالون: البحث الاجتماعي المعاصر مناهج وتطبيقات، ترجمة د.علي سالم،بغداد- دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.
٢٥	الزمخشري: جار الله، الكشاف.
٢٦	السيد السيستاني: مناج الصالحين، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط١٠، ٢٠١٠.
٢٧	السيد صالح الشهرستاني: تاريخ النياحة، دار الزهراء، بيروت، لبنان.
٢٨	الشيخ الطوسي: تهذيب الأحكام، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط٤، ١٩٩٥.
٢٩	شافا فرانكفورت و دافيد ناشمياز: طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة د.ليلى الطويل، دمشق- بترا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.
٣٠	صادق الحسيني الشيرازي: أجوبة المسائل الحسينية، مطبعة أهل البيت، إيران، قم، ٢٠٠٧.
٣١	طلعت عيسى: البحث الاجتماعي: مبادئه ومناهجه، (القاهرة- مكتبة القاهرة، ١٩٦١)، ص١٥٥.
٣٢	الطوسي، أبو جعفر: مصباح المتهجد، دار المجة البيضاء، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.
٣٣	عباس العزاوي: العراق بين احتلالين، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ط١، ١٩٥٠.
٣٤	عبد الأمير القريشي: تاريخ عزاء طويريج، منشورات العتبة العباسية المقدسة ٢٠١٠.
٣٥	د.عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، القاهرة- دار النهضة العربية، ١٩٦٨.
٣٦	عبد القادر عبد الله عرابي: المناهج الكيفية في العلوم الاجتماعية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧.
٣٧	على الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، دار الكتاب الإسلامي، قم ، إيران ، ٢٠٠٥ .
٣٨	علي الوردي: وعاظ السلاطين، مطبعة الرابطة، بغداد، ط١، ١٩٥٤.
٣٩	فادية عمر الجولاني: علم الاجتماع التربوي، مركز الإسكندرية للكتاب ١٩٩٧ .
٤٠	د. قباري محمد إسماعيل: أصول علم الاجتماع، دار الكتب الجامعية، اسكندرية، ١٩٧٤.
٤١	لويس معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان.
٤٢	مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط .
٤٣	المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدر أخبار الأئمة الطاهرة، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٣.
٤٤	محب الدين الطبري الشافعي: لم تكن ردة.
٤٥	محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان، دار الهلال، لبنان، بيروت، ط ٥، ١٩٨١.
٤٦	محمد حسين فضل الله: حديث عاشوراء، دار الملاك،بيروت ، لبنان.
٤٧	محمد رضا الاعرجي الحائري الفحام: أحسن الجزاء في إقامة العزاء على سيد الشهداء، م٢، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ٢٠٠٩.
٤٨	محمد سند: الشعائر الدينية نقد وتقييم، سلسلة دراسات أسلامية، دار الغدير- قم.

٤٩	محمد علي محمد: تاريخ علم الاجتماع، دار المعارف الجامعية، مصر، الإسكندرية، ١٩٨٦.
٥٠	محمد عبد الحميد، البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، عالم الكتب، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ١٧٩.
٥١	محمد محمد صادق الصدر: أضواء على الثورة الحسينية، انتشارات الشريف الرضي، قم،إيران.
٥٢	د. محمد منير حجاب، أساسيات البحوث الإعلامية والاجتماعية، دار الفجر للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦، ص٨٠.
٥٣	محمود الغريفي: الشعائر الحسينية، مكتبة الفجر الجديد، المنامة، البحرين، ١٩٩٤.
٥٤	محمود قاسم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
٥٥	مهدي تاج الدين: النور المبين في شرح زيارة الأربعين، منشورات دار الأنصار، مطبعة باقري، إيران، قم.
٥٦	الميرزا حامد حسن النواب: الشعائر الحسينية ... كيف و لماذا؟، دار العلوم، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
٥٧	د. ناهدة عبد الكريم حافظ: مناهج البحث العلمي، بغداد، ٢٠٠٧.
٥٨	د. ناصيف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.
٥٩	هادي المدرسي، الشهيد والثورة، مطبعة أهل البيت، إيران، قم، ط٢، ١٩٩٨.

ثانياً: المجلات والمواقع الالكترونيَّة:-

ت	المصدر
١	د.محمد صالح الجويني: تاريخ المأتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، عدد ٩، السنة الثالثة ،٢٠٠٧، قم، إيران.
٢	مجلة التوحيد، السنة ١٦، العدد ٩٤.
٣	الشيخ رضا بابائي: مجلة نصوص معاصرة، العدد ٨، السنة الثانية، ٢٠٠٦، قم، إيران.
٤	الشيخ مهدي حسينيان القمي: الشرعية الدينية للمأتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، العدد ٨، السنة الثانية، ٢٠٠٧، قم، إيران.
٥	ماجد الغرباوي، مجلة التوحيد، السنة ١٦، العدد ٩٤، مايس ١٩٩٨.
٦	مجلة التوحيد ، السنة ١٦، العدد ٩٤، مايس ١٩٩٨.
٧	حوار مع السيد محمد بحر العلوم، مجلة النور، لندن، ١٩٩٧، العدد ٧٤.
٨	http://ar.wikipedia.org/
٩	http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=٢٣٨
١٠	نصر حامد أبو زيد، "الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص"، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، أبريل ١٩٨١.
١١	مجلة اضافات ـ المجلة العربية لعلم الاجتماع ـ تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، بيروت ، العدد ٨، خريف ٢٠٠٩.

ملحق (١)

جامعة بغداد
كلية الآداب – قسم علم الاجتماع

<u>الإستمارة الخاصة بزوار اربعينية الامام الحسين (ع)</u>
(المشاية)

أخي الزائر ... أختي الزائرة...

يقوم الباحث بإجراء البحث العلمي الموسوم بـ (**المشاية في مراسم الزيارة الأربعينية.. دراسة ميدانية**). وقد صُمِّمت هذه الاستمارة لاستطلاع آراء الزائرين في اربعينية الامام الحسين (ع) بشأن العديد من القضايا الراهنة التي تخص حياة المواطنين العراقيين.

إن استمارة الاستبانة التي بين يديك وضعت لأغراض علمية بحتة، ولن يطلع على نتائجها أي شخص سوى الباحث، **فلا داعي لأن تذكر اسمك فيها**. وستكون مشاركتك طوعية ولك القرار في أن تجيب على تلك الأسئلة أو لا، لكن بكل تأكيد إن لمشاركتك وإجابتك بصراحة دوراً أساسياً في إنجاح هذه الدراسة التي ستعود نتائجها - بعون الله- بالفائدة على الجميع وستسهم في بناء مجتمع أفضل. علماً بأنه ليس هناك إجابة خاطئة وأخرى صحيحة وإنما المهم مشاركتك والتعبير عن آرائك ومعتقداتك بحرية تامة.

ولكم فائق الاحترام والتقدير

الباحث

١- **الجنس :** ذكر ☐ انثى ☐

٢- **العمر :** ..... سنة

٣- **التحصيل الدراسي :**

أمي ☐ يقرأ ويكتب ☐ ابتدائية ☐ متوسطة ☐ إعدادية ☐ معهد ☐
بكالوريوس ☐ دراسات عليا ☐ أخرى تذكر ..... ☐

٤- **العمل:**

موظف ☐ أعمال حرة/كاسب ☐ طالب ☐ متقاعد ☐ بلاعمل (عاطل عن العمل) ☐
أخرى تذكر..... ☐

٥- **الجنسية:**

أ- عراقي ☐ **ب-** غير عراقي (عربي أو أجنبي) ☐

٦- **التوزيع الجغرافي لمحافظة السكن (**للعراقيين فقط**):**

محافظات الجنوب ☐ محافظات الوسط ☐ محافظات الفرات الأوسط ☐
محافظات الشمال ☐

٧- **بيئة السكن :**

أ- حضر ☐ **ب-** ريف ☐

٨- **من اين بدأت المشي؟**

أ- من البيت ☐ **ب-** من النجف الأشرف ☐ **ج-** من مكان اخر ☐

٩- **من يرافقك اثناء الزيارة ؟**

أ- وحيداً ☐ **ب-** الاصدقاء ☐ **ج-** العائلة ☐

١٠- **كم عدد المرات التي مشيت بها لغرض الزيارة الاربعينية ؟** ☐

١١- **هل مشيت لزيارة الاربعين قبل سقوط النظام ؟**

أ- نعم ☐ **ب-** لا ☐

١٢- **هل تركت عملك او دراستك عند مجيئك لاداء هذه الزيارة ؟**

أ- نعم ☐ **ب-** لا ☐

١٣- **ما هو سبب مجيئك ماشياً لأداء مراسم الزيارة الأربعينية ؟**

أ- لأداء الشعائر ☐ **ب-** طلب حاجة ☐ **ت-** النذر ☐ **ث-** أداء الزيارة ☐

ج- للثواب ☐ **ح-** للدعاء ☐ **خ-** طلب الشفاعة ☐ **د-** حب الحسين ☐
ذ- تحدي الإرهاب ☐ **ر-** العلاقات الاجتماعية ☐

ز- الرفقـــة ☐ **س-** قضاء وقت الفراغ ☐ **ش-** أسباب أخرى ☐

١٤-ما نوع العلاقة الاجتماعية التي حصلت عليها أثناء الزيارة؟

أ- صداقة ☐ **ب-** علاقات عابرة ☐ **ج-** تواصل ☐ **د-** زواج ☐

١٥- هل حصل والتقيت بصديق أثناء المشي لم تلتق به منذ فترة ؟

أ-نعم ☐ **ب-** لا ☐

١٦-ما رأيك بالخدمات التي تقدمها الحكومة للزوار أثناء المشي؟

أ-ضعيفة جداً ☐ **ب-** ضعيفة ☐ متوسطة ☐ **ج-** جيدة ☐ **د-** جيدة جداً ☐

١٧-كم هو معدل مصروفك منذ خروجك لاداء الزيارة لحد الآن ☐

١٨- هل رأيت أو سمعت بحادثة غريبة أو معجزة حصلت مع الزائرين (كنوع من الكرامات)؟

أ-نعم ☐ **ب-** لا ☐

١٩- إذا كان الجواب نعم هل لك ان تصف لنا تلك المعجزة؟

.....

.....

٢٠-هل لديك ملاحظات على ظواهر سلبية حصلت امامك خلال الزيارة، إذكرها بإختصار؟

.....

.....

.....

٢١- هل لديك اضافة أو مقترح لتطوير المشايه ؟

.....

.....

ولكم مني فائق الشكر والتقدير٠

صور توضيحية لطقوس ظاهرة بيسو

صورة رقم (١)

صورة رقم (٢)

صور توضيحية لطقوس ظاهرة بيسو

صورة رقم (٣)

صورة رقم (٤)

صور توضيحية لطقوس ظاهرة بيسو

صورة رقم (٥)

صور الباحث أثناء إجراء المقابلات

صورة رقم (٦)

صورة رقم (٧)

صور لمواكب طلبة الجامعات والمعاهد المشاركة في الظاهرة

صورة رقم (٨)

صورة رقم (٩)

صور لمواكب طلبة الجامعات والمعاهد المشاركة في الظاهرة

صورة رقم (١٠)

صورة توضح طريقة تحضير الطعام للزائرين

صورة رقم (١١)

صور توضح مشاركة الحكومة وقواتها الأمنية في دعم الظاهرة

صورة رقم (١٢)

صورة رقم (١٣)

مشاركة المرضى في الظاهرة لغرض الشفاء

صورة رقم (١٤)

صور توضح التوظيف السياسي للظاهرة

صورة رقم (١٥)

صورة رقم (١٦)

صور توضح التوظيف السياسي للظاهرة

صورة رقم (١٧)

صورة رقم (١٨)

صور توضح تسمية المواكب بأسماء أهل البيت

صورة رقم (١٩)

صورة رقم (٢٠)

صور توضح تسمية المواكب بأسماء أهل البيت

صورة رقم (٢١)

صور توضح تسمية المواكب بأسماء مراجع الدين والقادة السياسيين

صورة رقم (٢٢)

صورة رقم (٢٣)

صور توضح تسمية المواكب بأسماء مراجع الدين والقادة السياسيين

صورة رقم (٢٤)

صور توضح الدلالات الدينية والسياسية لأسماء المواكب

صورة رقم (٢٥)

صورة رقم (٢٦)

صور توضح الدلالات الدينية والسياسية لأسماء المواكب

صورة رقم (٢٧)

صورة رقم (٢٨)

صورة توضح مشاركة الناس في خدمة الاطعام والشراب

صورة رقم (٢٩)

Abstract

Given the importance of the phenomenon of "almassahya" in a ceremony visit in Shiite Muslim religious ritual, and increasing the numbers participating in the visit after the fall of the Iraqi regime in ٢٠٠٣,the researcher chose this subject "visit ceremony almasshaya in the fortieth a field social expanded study, relying on the participation in the performance of this visit curricula and utilizing social scientific theories in this study, Starting with curriculum historical phenomenon, dating back to historical roots and the circumstances that contributed to the potency over time through the successive generations, through comparative methodology, which was a way of comparison between different societies and religions to Learn common motives and causes such phenomena, Also the researcher use curriculum" Hermeneutical" Aserminotiqi indications to understand the Act different social phenomenon, especially that close to the phenomenon of conduct pooled, Therefore, the appropriate theory to study the theory of macro-behavior.

It has been shown through this study that the "almassahya" social phenomenon more political than religious phenomenon, Where it was adopted, that the researcher read it from the inside and through the questionnaire taken from a sample of the participants in this ceremony, this study showed the data through statistical tables that "almasshaya" taken shape, size, after the fall of the Iraqi regime in ٢٠٠٣, and opening the doors of freedom in front of Iraqi society to practice religious,

social, and this is what makes them respond to political and social circumstances of Iraq over time stages.

The study of this phenomenon present size exacerbated greatly in need of further studies, as it relates to aspects of the task and varied side such as social, religious, and political, economic and even sports in addition to political recruitment of this phenomenon.

Finally, the researcher tried to provide all available to him tools available to study this phenomenon, leaving the door open for researchers to illuminate other aspects to it.

The researcher

"ALMASSHAYA"

In the fortieth visit ceremony

Field study

Letter by (Mujahid AbouAlhail Badr Al Jabri) to the Council of the Faculty of Arts at the University of Baghdad and this part one of the requirements of a master's degree in sociology

Supervision of Dr. Nahda Abdul Karim Hafez

١٤٣٣ Hijri ٢٠١٢ A.D.